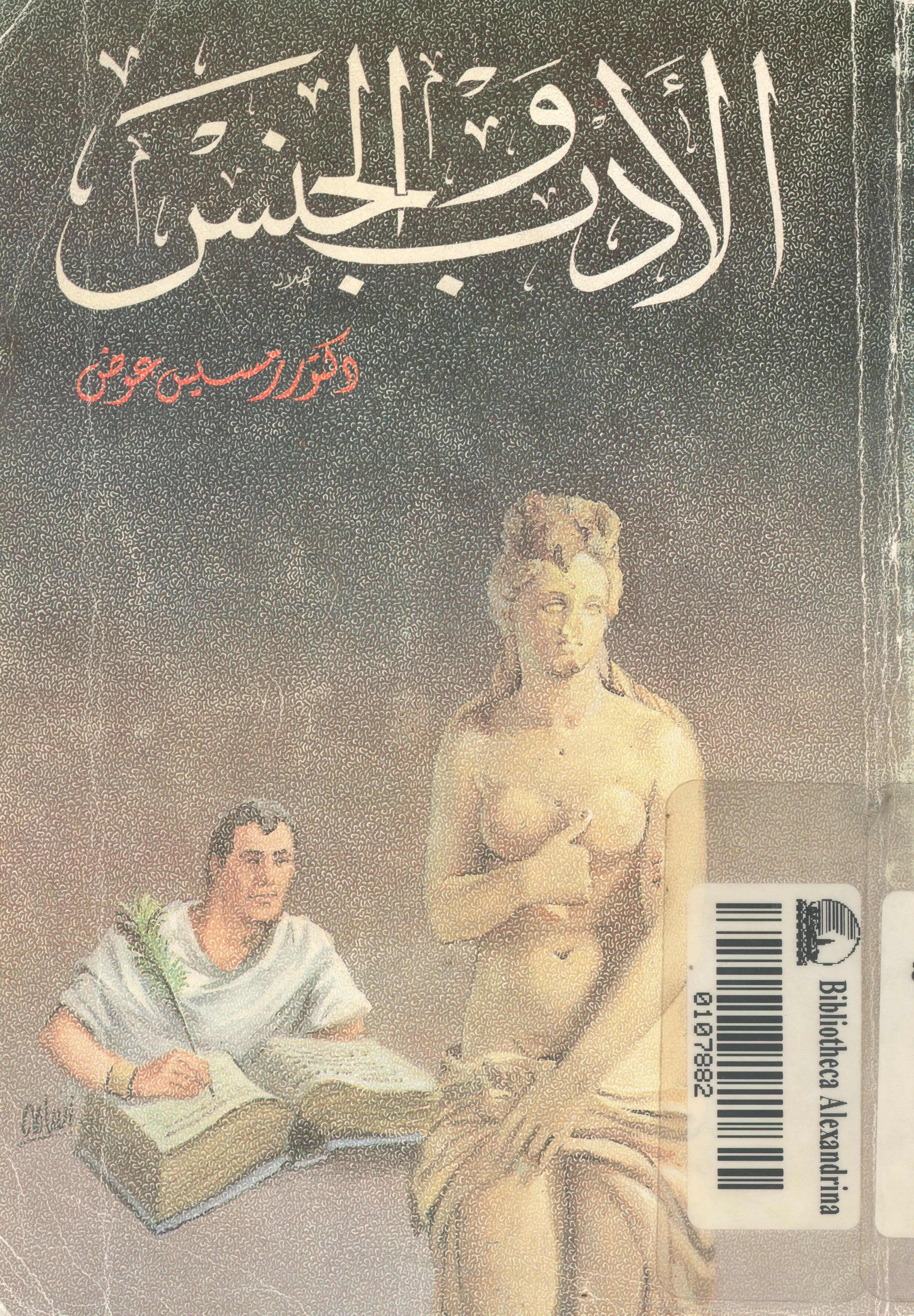
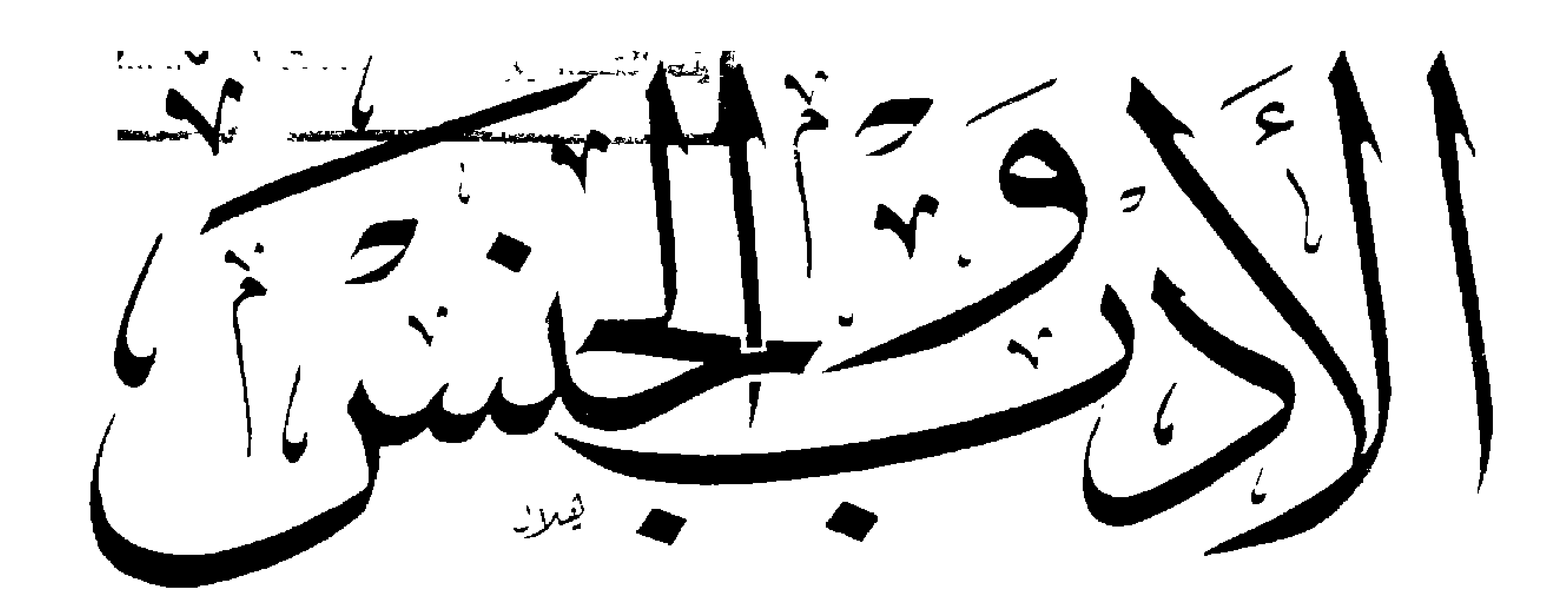
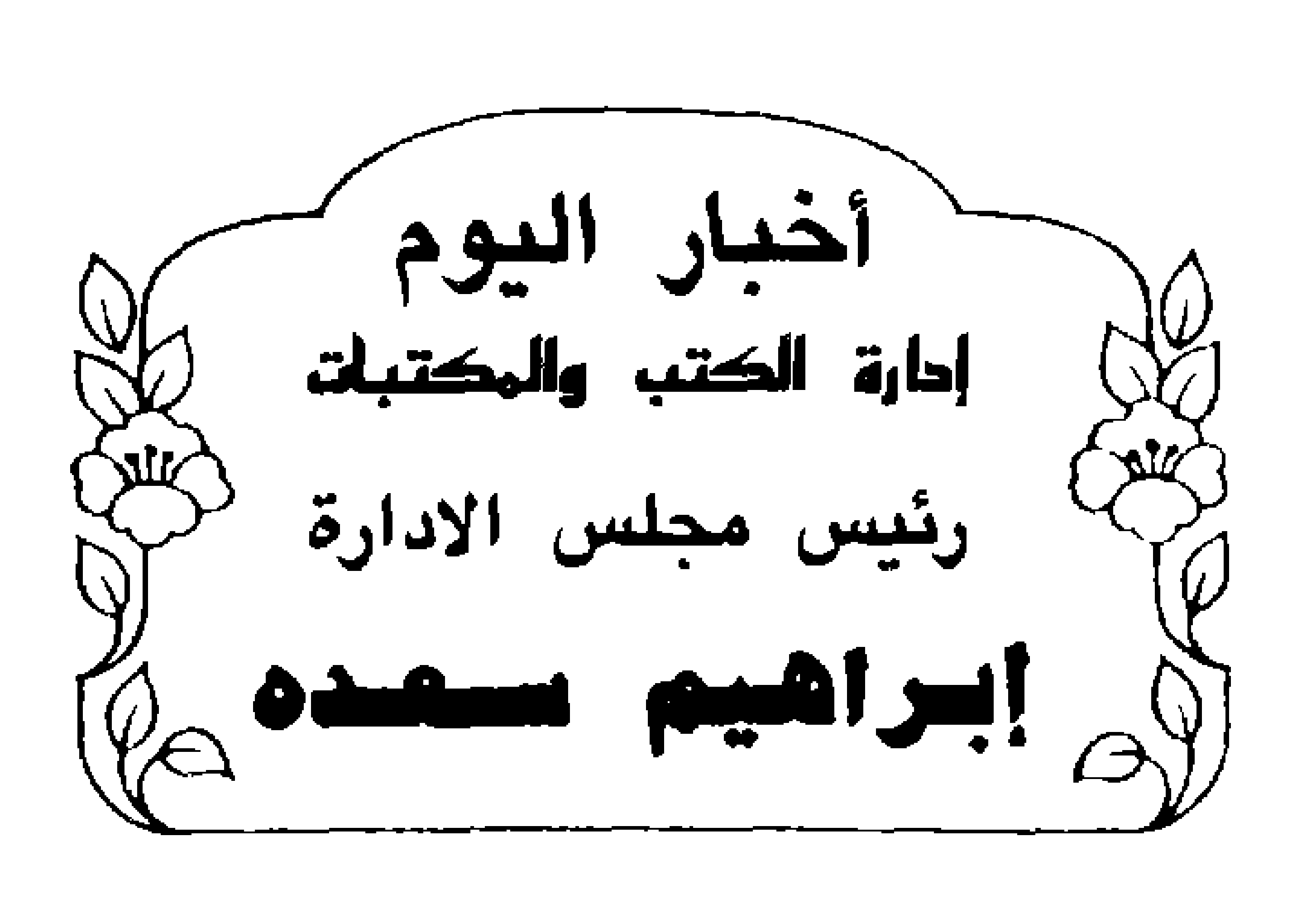

الأدب والجنس
دكتور رمسيس عوض



دكتور رمسيس عوض



الغلاف بريشة : أسامة أحمد نجيب
الاخـراج : خالد عبد الرازق

الاهــداء

إلى صديق عمرى وتوأم نفسى المرحوم جرجس ميخائيل تادرس فهو الذى أوحى إلىّ بتأليف هذا الكتاب .

القاهرة يونية ١٩٩٣

رمسيس عوض

مقدمة

الأدب المكشوف مصطلح درج النقاد على استخدامه للدلالة على ذلك النوع من الانتاج الأدبى الذى يخوض فى تفاصيل الجنس بهدف استثارة أحط الغرائز عند الانسان . ويرفض النقاد-ولهم كل العذر فى ذلك - اعتبار الأدب المكشوف فرعا من فروع الأدب الجاد . ولكن الخط الفاصل بين الأدب والجنس الرخيص والأدب والجنس الجاد أبعد ما يكون عن الوضوح أو الجلاء فى كثير من الأحيان . ولهذا نرى ان الرقابة كثيرا ما تتدخل لمصادرة بعض أنواع الأدب الجنسى التى قد تبدو رخيصة ومبتذلة فى بادىء الأمر ثم يتضح للفاحص المدقق انها نظيفة وراقية بعد فترة من الزمان . وفرض الحظر على مثل هذه الأعمال الأدبية قديم قدم الحضارة الانسانية نفسها ، ولكن كلما ارتفعت المجتمعات البشرية فى مدارج الرقى والتقدم وكلما رسخت اقدامها فى الأعراف والتقاليد الديمقراطية . . تقلص دور الرقابة فيها . ورغم هذا فالمجتمعات حتى فى أكثر الدول رقيا قد تسىء الفهم وتضل السبيل .

ويدل استقراء تاريخ الانسانية ان الرقابة ركزت كل اهتمامها على الكلمة المكتوبة وليس على الكلمة المنطوقة . نظرا لبقاء الأولى وزوال الثانية.ومن الخطل كل الخطل أن نظن أن الانسان اقتصر فى فرض الرقابة وممارسة الحظر على الجنس وحده ، فهناك أسباب اخرى عديدة للحظر:منها الجهر بالهرطقة والالحاد واحتدام الخلاف حول العقائد الدينية والسياسية . ولعلنا لا نخطىء إذا ذهبنا الى ان ممارسة الانسان للرقابة فى مجال الجنس اقل بكثير منها فى مجالى الدين والسياسة .

O O O

والأدب المكشوف ترجمة عربية غير دقيقة للكلمة الانجليزية PORNOGRAPHY وهى كلمة مشتقة اصلا

من الكلمة الاغريقية PORNOGRAPHOS ومعناها الحرفي « كتابة العاهرات » ويرجع السبب فى عدم دقة الترجمة العربية إلى ان الكلمة لا تنطبق على الأدب فحسب ولكن تنطبق أيضا على الصور والرسوم والنقوش ، بل ان ذهن المرء عند سماع الكلمة الأوربية قد ينصرف الى الصور والرسوم أكثر مما ينصرف الى الكلمة المكتوبة ، وتشير المعاجم الأجنبية فى معرض تعريفها لهذا المصطلح الى الرسوم البارزة الموجودة على جدران بعض الغرف فى بلدة بومبى الايطالية التى تصور الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة فى أوضاع مختلفة ، وهذه الغرف كانت مخصصة لاقامة حفلات من أجل إله الخمر والنشوة باخوس أو ديونيسيوس التى انتشرت عبادته فى القرن الثانى قبل الميلاد ثم ألغيت فى العام الميلادى ١٨٦ نتيجة ما أدت اليه من حماقات وطيش ونزق ، وتتضمن كلمة -PORNOGRA PHY معنى البذاءة والفحش ، وهو معنى أبعد ما يكون عن الوضوح والجلاء لأنه يختلف باختلاف الناظر اليه كما يذهب الى ذلك كاتب الجنس الأديب الانجليزى الكبير د . هـ . لورانس .

○ ○ ○

لم يستقر اقتران كلمة PORNOGRAPHY بالبذاءة والفحش فى الكتابة إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على يد القاضى كوكبيرن وذلك بعد أن نجح اللورد كامبل فى اصدار قانون الأدب المكشوف عام ١٨٥٧ . وقد أعطى هذا القانون للقاضى الحق فى تدمير الكتب والمطبوعات التى يرى انها تمثل جنحة يمكن اقامة الدعوى ضدها . وسعى اللورد كامبل من جانبه الى تهدئة خواطر المعترضين على مشروع القانون بتفسير مفاده ان هذا القانون لا ينطبق على الكتب ذات المميزات الأدبية والفنية بل تقتصر فقط على الأعمال التى ليس لها هدف سوى افساد

اخلاق الشباب . ويرد اللورد كامبل الحاجة الى اصدار هذا القانون بأن فرنسا ترسل آلاف الكتب والمطبوعات البذيئة الى انجلترا، وانه قد آن الأوان كى يصدر الانجليز التشريعات الكفيلة بوقف هذا السيل من المطبوعات المستوردة المفسدة للأخلاق العامة . وقوبل هذا القانون باعتراض شديد من مجلس اللوردات ثم انتقل الاعتراض عليه الى مجلس العموم . ففى مجلس اللوردات اعترض اللورد ليند هيرست بقوله:ان مثل هذا القانون من شأنه أن يجرم اللوحات الفنية العارية التى يعرضها متحف اللوفر الشهير فى باريس حيث تزوره أرقى سيدات العالم للتوفر على دراسة تحفه ولوحاته . فضلا عن ان كثيرا من المسرحيات الانجليزية المؤلفة فى عهد عودة الملكية الى انجلترا فى القرن السابع عشر لا يخلو من العبارات والألفاظ البذيئة . ناهيك عن البذاءة فى أشعار الشاعر الرومانى الكبير أوفيد .

ولعل العيب الخطير الذى شاب قانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٨٥٧ انه أعطى القاضى العادى الحق فى ممارسة سلطة الرقيب على الأعمال الفنية والأدبية يجيزها أو يمنعها وفق هواه . ومن ثم فهو يتمتع بالحق فى الأمر بتدميرها بغض النظر عما تشتمل عليه من قيمة فنية أو أدبية أو علمية .

وجاء كوكبيرن رئيس القضاة ليعطى هذا القانون تفسيرا ضيق الأفق عندما نظر عام ١٨٦٨ قضية مشهورة تعرف بقضية هيكلين.فقد جعل كوكبيرن الحكم على بذاءة أية مادة منشورة متوقفا على تفسير أية تلميذة من تلميذات المدارس لها.إذ عرّف الكتابة البذيئة أو الفاحشة بانها تلك التى تميل الى افساد عقول من هم على استعداد للتاثر بها إذا تصادف ان وقعت فى أيديهم.وذكر كوكبيرن ان المادة المكتوبة تعتبر بذيئة لمجرد ورود فقرة أو حتى كلمة بذيئة فيها .

وقضية هيكلين ليست قضية متهم وجهت اليه تهمة البذاءة بل انه اسم قاض استند الى قانون اللورد كامبل فأمر بتدمير نسخ من كتيب صغير أصدرته جمعية بروتستانتية تغالى فى تحمسها الدينى بعنوان : « كشف القناع عن سر الاعتراف وتبيان الانحلال الخلقى فى كهنوت الكنيسة الرومانية ، والشرور المحيطة بسر الاعتراف ، والأسئلة الموجهة الى النساء أثناء اعترافهن ». ويوضح هذا الكتيب المجهول المؤلف كيف ان الكاهن الكاثوليكى الذى يستمع الى اعتراف المرأة بتجاربها الجنسية يتعرض فى بعض الظروف الى الاغراء وتدور بخلده افكار حسية وخواطر جنسية وخاصة ؛ لأن الكنيسة الكاثوليكية تشجع كهنتها على الاستماع الى أدق التفاصيل الجنسية من أفواه الخاطئات التائبات طالما انها لا تثير فى الكهنة غير السخط وعدم الرضا . وتولى أحد غلاة المتحمسين البروستانت واسمه هنرى سكوت بيع هذه الكتيبات دون أن يكون للربح المادى فى نشاطه أى اعتبار ، ولكن القاضى هيكلين الذى نظر فى هذا الكتيب اعتبره عملا بذيئا وأمر بتدمير جميع النسخ التى تمت مصادرتها وعددها مئتان وخمسون نسخة . واستانف هنرى سكوت ضد حكم هيكلين فجاء حكم الاستئناف لصالحه على أساس أن سكوت تَوَلَّى توزيع الكتاب بهدف فضح وتعرية العيوب الموجودة فى الكنيسة الرومانية دون أن يدور بخلده أن يفسد الأخلاق العامة ..

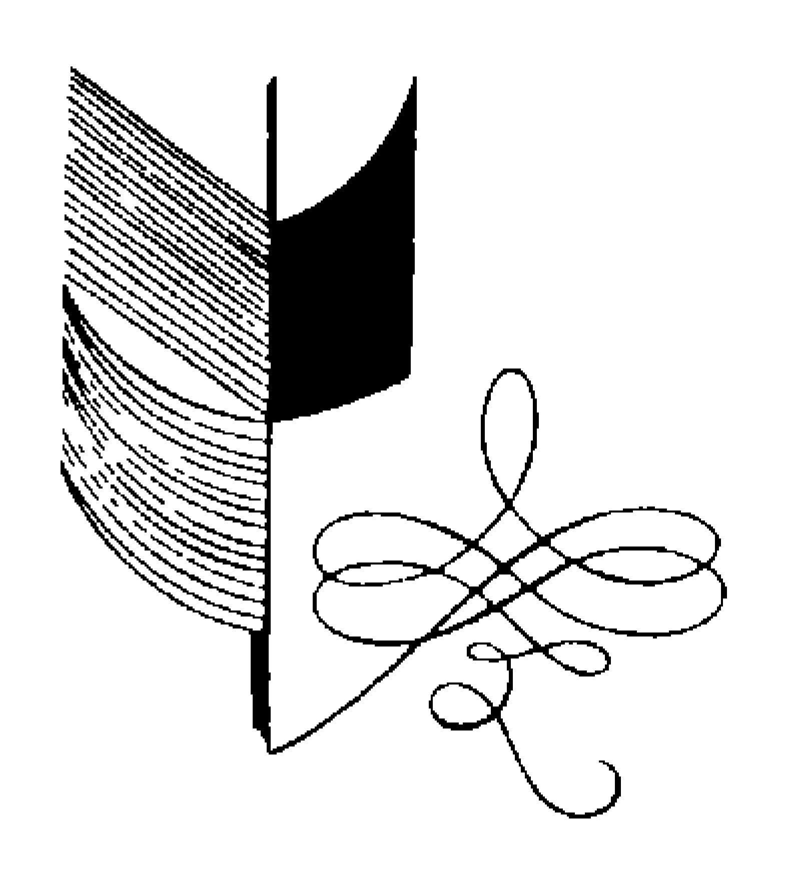
اخيرا تم عرض القضية برمتها على رئيس القضاة كوكبيرن فاصدر حكمه الشهير الذى عَرَّف فيه البذاءة والذى أصبح قاعدة قانونية لم تؤثر فى القضاء الانجليزى فحسب بل فى القضاء الأمريكى ايضا ، ومفاد حكمه ان الكتاب المصادر بذىء ومن شأنه أن يفسد عقول القراء بغض النظر عن حسن نوايا المؤلف أو الناشر أو الموزع ، وفسَّر كوكبيرن البذاءة بانها كل كتابة من شانها أن تستثير النوازع الجسدية والحسية فيمن لديه استعداد لذلك حتى

ولو كانت تلميذة مراهقة ، وظل هذا التفسير القاصر للبذاءة سائدا فى المحاكم الانجليزية حتى تم تعديله فى عام ١٩٥٩ بصدور قانون جديد ينص على ضرورة الحكم على الكتاب ككل وليس على بعض أجزائه كما أفتى بذلك كوكبيرن قبل وصفه بالفحش والبذاءة . فضلا عن ان القانون الانجليزى بعد عام ١٩٥٩ سمح للدفاع بإظهار ما قد ينطوى عليه الكتاب من مميزات فنية أو أدبية أو علمية الخ .. كما سمح له بالاستعانة بشهادة الخبراء فى هذا الشأن ، وقد أدخل القضاء الانجليزى قدرا أكبر من التعديل فى القانون عند النظر فى قضية « يوليسيس » للأديب الانجليزى المعروف جيمس جويس .

والجدير بالذكر ان تفسير كوكبيرن الضيق الأفق وجد فى انجلترا من يتبعه فى الثلاثينات من القرن العشرين ويقوم بتطبيقه على شاعر مغمور غريب الأطوار اسمه الكونت جوفرى فلا ديسلاس بوتوكى من مونتاك سوف نعرض فيما بعد لقصته مع القضاء الانجليزى .

ولكننا نبدأ بعرض موجز لتاريخ الرقابة منذ عصر الرومان حتى العصر الحديث .





الفصـــل الأول

الرقابة من عهد الاغريقى حتى القرن السابع عشر

الرقابة عند الاغريق

اتسم موقف الاغريق من الجنس بالاباحة المطلقة واستمتعوا بممارسته دون أدنى شعور بالذنب.تدل على ذلك رسومهم ونقوشهم التى ازدانت بها جدران الآثار . حتى أوانى الشرب التى استخدمها أطفالهم عند تناول وجبات الطعام كانت عليها رسوم تصور العلاقات الجنسية حتى تدخل الانشراح والابتهاج فى نفوسهم . وكانت التماثيل التى ترمز إلى التناسل والخصوبة تقام فى النواصى والميادين العامة .

تصور هذه التماثيل رجالا ملتحين يتكئون على قواعد ذات أشكال مربعة فى وسطها أعضاء ذكر منتصبة يأتى اليها الفتيات من كل حدب وصوب ليجلسن فوقها مثلما يمتطى الفارس حصانه . فضلا عن أن صانعى الأحذية كانوا يصنعون نماذج جلدية من هذه الأعضاء يبيعونها لأية أرملة فقدت زوجها الذى تركها بلا أنيس أوجليس . ونحن نطالع فى مسرحية « ليسستراتا » أن النساء من أهل ميليزيا اشتهرن بصنع هذه الأوتاد الجلدية.وتعبر المسرحية عن أسفها لاختفائها من السوق فلا تجد الأرملة المسكينة فى هذه الأيام ما يعزيها أو يؤنس وحشتها .

ولم يخجل الاغريق أيضا من الاعتراف باستمتاعهم بالشذوذ الجنسى بين الرجل والرجل . وهو مايشير إليه الفيلسوف « أفلاطون » فى ذلك الجزء من جمهوريته المعروف باسم « المناظرة ».ولم يخف الفيلسوف سقراط غرامه بالشذوذ الجنسى . ومن المعروف أن الكاتبين المسرحيين المعروفين اسخيلوس وسوفوكل كانا يمارسان الشذوذ الجنسى مع الصبية . والغريب أن المجتمع الاغريقى لم يعترض على ممارسة النساء للسحاق ولكنه لم ينظر إليه بنفس الاكبار والاعجاب الذى نظر به إلى الشذوذ الجنسى بين الجنس الخشن .

ويلخص الكاتب الرحالة الساخر لوسيان (حوالى ١١٥ ـ ٢٠٠ ملادية) موقف الاثينيين من الشذوذ الجنسى فيذهب إلى أنه ممارسة طبيعية للغاية ولا غبار عليها تدل على الرقى ورفعة الذوق ولكنه يصلح للفلاسفة فقط دون الشعب وعامة الناس . ويردد لوسيان رأيا مفاده أن علاقة الرجل بالمرأة تدوم لأن المرأة تبادل الرجل الاستمتاع بالجنس كما أنها قادرة دائما على امتاع الرجل . أما علاقة الرجل بالصبى فهى علاقة موقوتة ولا تدوم؛ لأن الصبى سرعان ما يكبر وتنمو لحيته ويفقد شبابه الغض ومن ثم يفقد قدرته على الامتاع .

يشير المؤلف الكوميدى الاغريقى المعروف أرسطوفان (حوالى ٤٤٨ ـ ٣٨٠ ق . م) فى مسرحيته « ليسستراتا » إلى الجنس صراحة ودون مواربة عندما تطرح احدى الشخصيات على الرسول الأسبرطى السؤال التالى : « هل أنت رجل أم أنك الوتد بريانوس إله الخصب والتناسل ؟ » وتدور أحداث هذه المسرحية الكوميدية حول الحرب بين أهل أثينا وأهل أسبرطة وهى حرب طالت وامتدت دون طائل . ومن ثم تفكر سيدة من أثينا اسمها ليسستراتا فى وضع نهاية لهذه الحرب وإرغام المتحاربين على التوصل إلى السلام .

وتنجح هذه السيدة فى تحريض زوجات بقية الاثينيين ضد أزواجهن والاستيلاء على ما فى خزائن المدينة من أموال . ويرفض جميع النسوة مضاجعة أزواجهن بغية حثهم على التصالح مع أهل أسبرطة . وتقوم سيدة من أسبرطة بنفس الدور الذى تقوم به ليسستراتا فى أثينا . . وهناك منظر فى الفصل الأخير من المسرحية يجمع بين الجنس والهزل الخشن . فعندما يصل المبعوثون من أسبرطة للتفاوض على شروط السلام مع أهل أثينا يتظاهر الاثينيون بأنهم يعتقدون أن أعداءهم الوافدين من أسبرطة يخفون رماحا تحت ثيابهم (اشارة إلى أعضائهم

التناسلية) وهو منظر لابد أنه جعل النظارة الاغريق يضجون بالضحك من المسرحية التى قدمت على خشبة المسرح الاغريقى لأول مرة عام ٤١١ ق . م . بل إن نظارة المسرح عبر الحقب التاريخية وفى شتى أنحاء العالم يستغرقون فى الضحك الصاخب من هذه الاشارة الجنسية ومثيلاتها حتى يومنا الراهن رغم مرور مايقرب من ألفى وخمسمائة عام على أول عرض لها . ويدل هذا على انعدام الرقابة على أدب الجنس فى عهد الاغريق الذين استمتعوا بحرية التعبير عن الجنس مثلما استمتعوا بممارسته فى انطلاق كامل . .

والجدير بالذكر أن رجال القانون فى أمريكا اعتبروا هذه المسرحية أدبا مكشوفا من شأنه افساد أخلاق الناس . وحتى وقت قريب للغاية كانت المسرحية فى أصلها الكامل ممنوعة من دخول الأراضى الأمريكية وتتعرض لمصادرة رجال الجمارك الأمريكان لها .

والجدير بالذكر أيضا أن مسرحية « ليسستراتا » ليست بالعمل الوحيد من تأليف أرسطوفان الذى يشتمل على اشارات جنسية فاضحة.فمسرحيته « الضفادع » تزخر أيضا بالبذاءات ، الأمر الذى أحرج صدر عالم اليونانيات الانجليزى الكبير الدكتور جلبرت مرى الذى أصر دائما على ترجمة كلمة « يضرط » فى هذه المسرحية بكلمة يتمخط (يتف) . فضلا عن أن مسرحيتى « إليكترا » التى ألفها الشاعر يوربيديس و« أوديب ملكا » التى ألفها سوفوكل تتناولان موضوعات فاضحة مثل الحب الحرام بين ذوى القربى والأرحام .

ورغم جو الاباحة التى عرفها الاغريق فإن الفيلسوف أفلاطون على مايبدو هو أول من حاول أن يلعب دور الرقيب فى تاريخ الفكر والأدب فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد عندما اقترح فرض الحظر على أشعار هوميروس مثلما فعل توماس بودلر بأشعار شكسبير بعد ذلك بألفى عام . فقد اقترح أفلاطون اصدار نسخة نظيفة وخالية من

البذاءات من أعمال الشاعر الاغريقى القديم هوميروس وهو نفس الشىء الذى فعله بودلر فيما بعد بأعمال شكسبير .

الرقابة عند الرومان

يتضح لنا مما سبق أن الاغريق لم يعرفوا الحظر على الكتابة والأدب وأن الفيلسوف أفلاطون أول من طرح فكرة فرض الرقابة عليهما . وبمجىء الرومان عرف العالم الأوربى الحظر الفعلى على الأدب عندما قام الامبراطور أوغسطوس بطرد الشاعر الرومانى المعروف أوفيد (٤٣ ق . م - ١٨ م) بسبب قصيدته الجنسية الفاضحة التى ألفها بعنوان « فن الحب » وقت ميلاد السيد المسيح تقريبا . ولعلها من أكثر الأعمال الأدبية إباحية قُيِّضَ لأديب عبقرى أن يسطرها عبر التاريخ الانسانى كله . وفى عصر النهضة ذاعت هذه القصيدة وحظيت بشعبية كاسحة. فقد امتدحها دعاة المذهب الانسانى واعتبروها عملا مستنيرا يميط اللثام عن الحب، ليس بوصفه مجرد شهوانية وغريزة حيوانية، ولكن بوصفه علاقة انسانية تتسم بالسمو والرقى وشدة التعقيد . وفى كتاباته جعل الأديب الايطالى بوكاشيو أحد شخصياته وهو معلم حكيم يضع هذه القصيدة فى متناول أيدى التلاميذ الناشئة . ورغم ذيوع قصيدة « فن الحب » فقد اعتبرها الكثيرون دعوة إلى الفجور والتهتك وتشجيع سافر على الزنا من شأنه أن يقوض أركان المجتمع .

يبدأ أوفيد قصيدته بالقول إنه يهدف من ورائها إلى تلقين دروس الحب لمن ليس له خبرة أو دراية به . فالحب مهارة ينبغى على الانسان حِذقها واتقانها، شأنها فى ذلك شأن سائر المهارات مثل التجديف والملاحة .

وتنقسم القصيدة إلى ثلاثة أجزاء يبلغ كل جزء من الجزءين الأول والثانى نحو ثمانمائة بيت شعر،ويمتد طول الجزء الثالث إلى أكثر من هذا . ويحتوى الجزء الأول على نصيحة يزجيها الشاعر إلى العاشق بشأن كيفية العثور على حبيبة توافق ذوقه وعلى مزاجه وهواه . ثم كيفية الحصول على ودها . ويشرح الجزء الثانى للعاشق كيفية احتفاظه بهذا الود.أما الجزء الثالث فيدور حول السيدات العاشقات وما ينبغى عليهن أن يفعلنه حتى يستمررن فى ممارسة العشق والهيام ، وكنوع من التقية زعم الشاعر أوفيد أنه يوجه قصيدته إلى عامة النساء فى روما سواء كن متزوجات أو عازبات وليس إلى سيدات وعذارى المجتمع الراقى . ولكن هذا التحايل لم ينطل على كثير من الناس وبالذات على الامبراطور أوغسطوس الذى رأى أن للكتاب آثارا أخلاقية مدمرة ، ومن ثم أمر بنفى مؤلفه من روما فى وقت لاحق .

يقول أوفيد فى الجزء الأول من قصيدته:ان أحسن فرصة لغواية النساء هى الحفلات والمآدب والشوارع والمسارح والسيرك وساحات المحاكم ولاسيما اذا كان العاشق يعمل فى مهنة تتصل بهذه المحاكم .

فالمحامى الذىّ يدافع عن موكلته أمام المحاكم يجد الطريق أمامه ممهدا . ويضيف الشاعر:أن شرب الخمر فى الحفلات والولائم يعطى الرجال الجرأة والشجاعة ويلهب مشاعرهم . ولكنه يحذر العشاق من أن يلعب الخمر بعقولهم ومن أن يعميهم الظلام فيعجزون عن التمييز بين الحسناوات وغير الحسناوات . ومن ثم فإنه ينصح العاشق أن يتأكد من جمال معشوقته فى وضح النهار . ويرى الشاعر أنه ليس هناك امرأة لايمكن اصطيادها اذا كان الصائد ماكرا يحذق فن الصيد ورمى الشباك . المسألة كلها تحتاج إلى المثابرة وعدم الاستسلام لليأس .

ويذهب أوفيد إلى أن أفضل السبل إلى الوصول إلى أية سيدة هى

خادمتها . فاذا شكت هذه السيدة أمام خادمتها من خيانة زوجها لها فينبغى على هذه الخادمة أن تبادر بدهاء ومكر إلى نصح الزوجة بأن تعامله بالمثل . حينئذ يمكنها أن تهمس باسم الحبيب فى أذن مخدومتها وتؤكد لها أنه ميت فى غرامها . ويرى الشاعر أنه قد يكون من الأصلح أحيانا غواية الخادمة بعد غواية سيدتها . ولكنه ينصح بعدم البدء فى غواية الخادمة إلا بعد أن تقع المخدومة فى الشباك . وعن طريق الخادمة يمكن للعاشق أن يقف على أحوال عشيقته فى كل ماتقول وما تفعل . غير أنه فى هذه الحالة ينبغى على العاشق ابقاء سر الخادمة فى الحفظ والصون حتى لا تنقلب عليه . ويقول الشاعر:انه ينبغى على العاشق ألا يكف عن امتداح معشوقته : شكلها وشعرها وقوامها وسحر وجاذبية كل شىء فيها،فالنساء يعجبهن الثناء ويطربن للمديح . وعندما تتطور علاقة العاشق بمعشوقته إلى مرحلة القبل والأحضان فينبغى عليه ألا يتوقف عند هذا الحد رغم ما قد تبديه العشيقة من مقاومة فى بادىء الأمر فهى تتمنى فى قرارة قلبها أن يستمر العاشق فى ملاحقته لها . ولهذا ينبغى على العاشق أن يتجاوز القبلات ويذهب إلى ماهو أبعد من هذا حتى ولو اقترن الأمر باستخدام شىء من العنف والارغام اللذين قد تبدى العاشقة سخطا عليهما وتأففا منهما. والويل كل الويل للعاشق الذى يكتفى بالتمهيد للحب دون اتمامه . ويختتم الشاعر الجزء الأول من قصيدته بأن ينصح العاشق بغواية أكبر عدد من النساء ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وينتقل الشاعر فى الجزء الثانى من القصيدة إلى أسلوب الاحتفاظ بالمرأة بعد أن أصبحت عشيقة كاملة . ينصح الشاعر الرجل فى هذه الحالة بعدم اهمال عشيقته حتى بعد أن تستسلم له استسلاما كاملا،كما ينصحه بضرورة مراقبتها مراقبة دقيقة لمعرفة أدق خلجاتها ورغباتها .

وأن يمتدح اللذة التى يشعر بها فى كل مرة يضاجعها . والجدير بالذكر

أن الشاعر الرومانى أوفيد لايرى فى معاشرة العاهرات والمومسات مصدرا للمتعة واللذة. فالمتعة فى نظره لابد أن تكون مشتركة ومتبادلة بين الرجل والمرأة وليس نتيجة استسلام المرأة للرجل بدافع من احساسها بالواجب. فالرجل يلهبه مايسمعه من المرأة من تأوهات وغنج . ويفسر لنا هذا السر فى اعراض الشاعر عن مضاجعة الصبية مثلما كان شائعا بين الاغريق . وأوفيد ينصح العاشق ألا يقترب من جسد معشوقته إلا اذا كانت ترغب فى قربه منه وأن يبتعد عن مضاجعتها اذا كانت لاترغب فى ذلك . هذا هو السبيل لاستمرار العلاقة بينهما . ويضيف أوفيد إلى بذاءته قوله إنه ينبغى على العاشق أن يتحسس أعضاء معشوقته ويربت عليها حتى يكتشف المواضع التى تثيرها فلا يمنعه الخجل أو الحياء من لمسها .

أما الجزء الثالث من القصيدة الذى ينصح المرأة باستثمار كل مافى جسدها من مزايا فهو أكثر الأجزاء بذاءة فالشاعر لايكتفى بنصيحة المرأة بالعناية بتصفيف شعرها وتحريك أردافها وهى تسير فى الطريق حتى تلفت أنظار الرجال إليها وبالكشف عن بعض جسدها لاثارة الناظر إليها مثل الجزء الأسفل من الكتف والجزء الأعلى من الذراع بل إنه يحبذ مجموعة من الأوضاع الجنسية المتنوعة تختار من بينها مايظهر فتنتها وما يتناسب مع جسدها .

ولهذا فليست هناك غرابة رغم مرور ألف وتسعمائة عام على تأليف أوفيد لهذه القصيدة أن تقوم مصلحتا الجمارك والبريد فى الولايات المتحدة بحظرها ومنع تداولها .

وليس من شك أن موقف أوفيد من المرأة يدل على أن الرومان اعتبروها فريسة مشروعة من حقهم الايقاع بها واصطيادها مثلما يهاجم العدو قلعة حصينة ولا يتركها إلا بعد سقوطها فى يده ، فى حين أن موقف الاغريق من المرأة أكثر تعقيدا وتحضرا فهى تمثل فى

نظرهم الاستغراق الراقى فى المتعة والعاطفة . وإلى جانب شهوانية الرومان نرى أن مسلكهم الجنسى يتسم بالوحشية والسادية وأن أباطرتهم ضربوا لهم فى كثير من الأحيان المثل فى هذه الوحشية . ونحن نجد فى « هجائيات » الشاعر الرومانى جوفينال وصفا لزوجة تستمتع بمنظر عبيدها وهم يجلدون بالسياط ويضربون بالعصى لأن زوجها رفض أن يعاشرها فى الليلة السابقة كما أنها تقوم بجلدهم بنفسها كنوع من التمهيد لمقابلة عشيقها فى السر ، الأمر الذى يدل على وجود علاقة وثيقة بين ممارسة الجنس عند الرومان وممارسة التعذيب أو السادية .

ومن الخطأ أن نظن أن البذاءة مقصورة على أدب أوفيد. فالأدب اللاتينى يزخر بمثل هذه البذاءات وإن كان بدرجة أقل مثل كوميديا بلوتوس و « الحمار الذهبى » لأبوليوس وقصائد « بريابيا » و « آلهة اللذة » لجايوس بيترونيوس و « الحكم الساخرة » لمارشال .



الرقابة فى عهد الكنيسة الرومانية

بمجيء المسيحية طرأ على سلوك الامبراطورية الرومانية وأخلاقها تغير بطيء ولكنه ملحوظ. فقد بدأ الناس يهتمون بطهارة الجسد عند النساء والرجال على حد سواء . وأصبحت العفة المثل الأعلى الذى ينبغى احتذاؤه بعد أن كان الاغريق يعتبرون ممارسة الجنس شيئا طبيعيا للغاية ، ومن بعدهم جاء الرومان ليمارسوا الجنس ممزوجا بالضرب والسادية .

وعندما جاءت المسيحية لم تنبذ السوط الرومانى ولكنها استخدمته كأداة لتطهير الجسد من شهواته بدلا من استخدامه كما فعل الرومان من أجل الاثارة الجنسية . ومع هذا فإن علماء النفس يؤكدون شبهة الاثارة الجنسية التى تنطوى عليها وقائع الجلد التى يفترض أن الهدف منها هو السمو والارتقاء بالروح . ومن ثم قام الرهبان والراهبات المسيحيون بضرب بعضهم البعض بالسياط للتخلص من شيطان الجنس الذى يسكن أجسادهم بل انهم كانوا أحيانا يقومون بتوقيع هذا العقاب بأنفسهم على أبدانهم إذ دب فيها الأشتهاء للجنس . ونحن نطالع وصفا لهذا فى كتاب « جنة الآباء القديسين » الذى ألفه بالاديوس فى عهد الدولة الرومانية .

كان الضرب فى بادىء الأمر على الظهر والأكتاف ولكن بعد مرور الزمن خشى الناس أن يلحق الضرب فى هذه المواضع الأذى بالمضروب ومن ثم نزلوا بالضرب إلى منطقة غير ضارة هى منطقة العجز ، الأمر الذى جعل الضرب فى نهاية الأمر مثيرا من الناحية الجسدية وخاصة اذا كان المضروب امرأة شابة تبغى التوبة على يد قديس أو رجل من أولياء الله الصالحين تلجأ إليه حتى يؤدبها . ويلقى

كتاب « أفعال قدسية » الضوء على أهمية دور الجلد فى تاريخ الكنيسة الرومانية . وهكذا تفشت ظاهرة ضرب التائبين لدرجة اضطرت البابا هدريان الرابع فى القرن الثامن الميلادى أن يصدر أمرا يمنع رجال الدين من ممارسته . . غير أنهم تجاهلوه فى كثير من الأحيان .

على أية حال عندما تمكنت الكنيسة الرومانية من بسط نفوذها فى أنحاء أوربا فى القرن الرابع خلت المؤلفات من الجنس . واقتصر تأليف المخطوطات على الأمور الدينية والروحية يتوفر الرهبان والنساك فى الأديرة على وضعها . ورأت السلطة الكنسية أن من حقها انزال العقاب بكل انسان تسول له نفسه الخروج على تعاليم الديانة المسيحية . وفى بادىء الأمر التجأت الكنيسة الكاثوليكية فى أسلوب حظرها إلى مجرد التحذير والطرد من الكنيسة . ولكنها شيئا فشيئا استخدمت وسائل أعنف وأكثر قدرة على الردع مثل فرض الغرامات والزج فى السجن ووضع المذنبين على خوازيق .

ومع أفول العصور الوسطى تفشى الفساد الأخلاقى بين الرهبان والنساك فتحول بعض الأديرة على أياديهم إلى مباءات يندى لها الجبين كما يتضح لنا من كتاب بوكاشيو المعروف « ديكاميرون » الذى سوف نتناوله فيما بعد بالتفصيل، فضلا عن أن أبيلار رجل الدين المعروف الذى اقترن اسمه بعشق الويزا ألف عام ١١٢٠ مبحثا لاهوتيا لم يرق فى عين الكنيسة الكاثوليكية بعنوان « مقدمة اللاهوت » فاعتبرته هذه الكنيسة عملا إلحاديا، وأمر سنودس أو مجمع سواسون بإحراقه . وبمرور الوقت زاد عدد الكتب المخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وأعرافها، الأمر الذى هددها فى صميم كيانها ، وزاد الطينة بلة بزوغ عصر النهضة مما زاد من اهتمام الناس فى أوربا باكتساب العلوم والمعارف . وقبل أن نعرض لاختراع آلة الطباعة فى بداية عصر النهضة والدور الذى لعبته فى نشر المعارف التى رأت فيها الكنيسة

الكاثوليكية تهديدا لها،يجدر بنا أن نتناول ديكاميرون الذى ألفه بوكاشيو .

بوكاشيو وديكاميرون

تعتبر رواية « ديكاميرون » (أى الأيام العشرة) التى ألفها الأديب الايطالى الكبير جيوفانى بوكاشيو فى الفترة بين ١٣٤٨ و ١٣٥٣ والمنشورةفى البندقية عام ١٣٧١ أول عمل بذىء وفاضح فى العصر الحديث . ومما زاد من ذيوعه وإقبال الناس عليه انه أول كتاب أدبى قيض له أن يعرف الطباعة،أضف إلى ذلك أسلوبه السردى الممتع الذى يفيض بالواقعية ويتدفق بالحياة . فى حين أن الأعمال البذيئة التى سبقته كانت لاتعدو أن تكون مخطوطات محدودة الانتشار .

كان جيوفانى بوكاشيو ابن زنا ينحدر من أب تاجر من توسكانى بايطاليا وأم فرنسية استطاع هذا التاجر أن يراودها عن نفسهاأثناء زيارة قام بها إلى باريس . ولكنه مالبث ان هجرها ثم ارسل الطفل جيوفانى الى ايطاليا ليعيش فى نابولى حيث شب وترعرع والتحق بخدمة ملكها . واستطاع الشاب جيوفانى غواية ابنة هذا الملك الشرعية ماريا داكوينو وأن يتخذها عشيقة له . وقد خلد بوكاشيو هذه المرأة باسم فياميتا فيما سطر من قصص ونظم من أشعار . ثم التحق بوكاشيو بخدمة السلك الدبلوماسى فى الفاتيكان حيث قام البابوات بارساله فى مهام مختلفة أعطته حنكة وخبرة عملية فى الحياة . وأخيرا استقر به المقام بالقرب من فلورانسا حيث كان والده يعيش،وحيث ألف « الديكاميرون » التى تعد أهم أعماله جميعا بهدف « تصوير الحياة كما هى » .

وتتكون « الديكاميرون » من سلسلة من الحكايات التى يربط بينها خط سردي واحد . وهو أسلوب اقتدت به أعمال أدبية فى بلاد أخرى مثل « حكايات كانتربرى » فى انجلترا « والهيتاميرون » فى فرنسا و « ألف ليلة وليلة » فى بلاد الفرس . تقع أحداث « الديكاميرون » فى زمن الطاعون الذى أصاب فلورانسا عام ١٣٤٨ . ويحدثنا المؤلف فى قصصه عن عشرة أشخاص يتكونون من سبع نساء وثلاثة شبان من أنبل العائلات الايطالية وأعرقها يهربون بجلدهم من الطاعون فيعيشون فى فيلا فاخرة بالقرب من فلورانسا يحبسون أنفسهم فيها اتقاء للعدوى ولايجدون ما يسرون به عن أنفسهم ويزجون به أوقات الفراغ غير حكاية القصص التى يبلغ عددها فى فترة العشرة الأيام التى يمكثونها فى الفيلا مائة حكاية . ورغم أن بعض هذه الحكايات لا يعالج الجنس من بعيد او قريب،فإن معظمها يسخر من فكرة العفة أو العذرية فى واقع الحياة العملية فى تلك الفترة من تاريخ ايطاليا ، ويسخر بالذات من رجال الدين المسيحى .

وفى اليوم الأول يروى واحد من هؤلاء الشبان حكاية الراهب الذى قام بغواية فلاحة شابة فى قلايته . وأثناء ممارسته الجنس معها ندت عنه أصوات عالية ، الأمر الذى لفت نظر رئيس الدير فداهم قلاية الراهب ليأخذ الفتاة لنفسه . ولم يقصر بوكاشيو قصصه البذيئة على الرهبان والراهبات،فنحن نقرأ فى حكايات اليوم الثامن عن زوج مخدوع قامت زوجته بحبسه فى صندوق أغلقته بالضبة والمفتاح . ثم استدعت عشيقها لتمارس الجنس معه على مسمع من زوجها المسكين . غير أن بوكاشيو سخر موهبته الأدبية فى الأساس للزراية برجال الكنيسة ونسائها ، فإحدى حكايات اليوم التاسع تروى أن رئيسة أحد الأديرة استيقظت من نومها مفزوعة على عدد من الراهبات يطرقن باب حجرتها . ولما فتحته لهن أبلغنها أنهن ضبطن الأخت ايزابيلا مع شاب فى قلايتها . ولم يدر بخلد الراهبات أن رئيسة الدير

كانت فى تلك الآونة تفعل نفس الشىء مع أحد القساوسة . وبسبب الظلام الدامس الذى يسود حجرتها أخطأت رئيسة الدير فلبست بنطلون عشيقها لتخرج على عجل وتعنف الراهبة الزانية على فعلتها . ولكن هذا اللباس الذى ارتدته عن طريق الخطأ فضح أمرها واضطرها إلى نبذ أسلوب التقريع والتحدث مع الراهبات بلغة مغايرة تماما مفادها أنه يستحيل على الانسان مقاومة رغبات الجسد .

وتروى احدى حكايات اليوم التاسع قصة تصطبغ بصبغة المتعة الجنسية المريضة المقترنة بالسادية والماسوكية . وهى تدور حول رجل متزوج اسمه جيوسيفو دعا صديقا له إلى منزله على العشاء . فقدمت الزوجة اليهما عن عمد طعاما سيئا للغاية . واغتاظ الزوج منها وانتزع فرع شجرة وأخذ يضربها حتى كسر عظامها دون مبالاة بتوسلاتها .

وفى الصباح جاءته الزوجة لتسأله بمنتهى الرقة والوداعة عما يطلب هو وصديقه من طعام . وتدل هذه الحكاية على المتعة الجنسية السادية ـ الماسوكية المرتبطة بالضرب ، أو أن ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب كما يقول المثل العربى .

ولعل أكثر قصص الديكاميرون بذاءة تلك الحكاية التى وردت ضمن حكايات اليوم الثالث بعنوان « الشيطان يدخل الجحيم » التى تدور أحداثها حول فتاة وثنية من تونس أرادت أن تكرس حياتها لخدمة الرب . فنصحتها احدى صديقاتها أن تعتنق الدين المسيحى وتحيا حياة النساك والرهبان الذين يعيشون فى الصحارى والفيافى بعيدا عن دنس العالم وآثامه . وتتبع الفتاة هذه النصيحة فتذهب إلى الصحراء حيث تقابل راهبا اسمه روستيكو ينبهر بحسنها وجمالها فيدعوها إلى قلايته ويعطيها الراهب محاضرة طويلة عريضة عن العداوة بين الله والشيطان وكيف أن الخدمة الحقيقية لله تتمثل فى

ادخال الشيطان الجحيم . وتقول هذه الحكاية الداعرة أن الراهب قام بخلع ملابسه وركع كما لو كان يصلى . وطلب من الفتاة أن تتجرد من كل ثيابها وتقف أمامه عارية فى وضع يبدو منه وكأنها تصلى . وحتى لا نستفيض فى ترديد بذاءات بوكاشيو نكتفى بالقول إن الراهب أفهم الفتاة أن قضيبه المنتصب هو الشيطان وأن فرجها هو الجحيم . وانتشى الاثنان عندما تعاونا فى ادخال الشيطان فى الجحيم .

ولعلنا ندهش اذا علمنا أن كتاب « الديكاميرون » البذىء له أهمية عظيمة فى تاريخ الآداب الأوربية . وهو شىء شبيه بأهمية « ألف ليلة وليلة » فى الأدب العربى . ولعلنا ندهش أيضا اذا علمنا أن الكنيسة لم تقم بحظر حكايات بوكاشيو فور نشرها . فقد سمحت بتداوله حتى منتصف القرن السادس عشر..أى حتى وقت ازدهار حركة الاصلاح الدينى فى كل أرجاء أوربا.إذ واكب هذا الاصلاح تيار رجعى مضاد سعى إلى وقف زحف الاصلاح الدينى الكاسح . وفى نهاية القرن الخامس عشر أظهر بعض الأفراد اعتراضا على كتاب بوكاشيو فقد ألقى به رجل شديد الغيرة على دينه فى ألسنة اللهب وظل كتاب بوكاشيو متداولا حتى منتصف القرن السادس عشر كما أسلفنا عندما طالب البابا بولس الرابع بوضع الكتاب ضمن قائمة الكتب الممنوعة واشترط هذا البابا استبعاد الأجزاء البذيئة منه قبل السماح بتداوله .

والغريب أن الكنيسة لم تجد غضاضة فيما تضمنه الكتاب من فحش جنسى وكان تطاوله على رجال الدين واتهامهم بالجشع وكثرة الكذب هو السبب الذى حدا بالبابا إلى حظره . واستجاب المنقحون لرغباته فاستبعدوا كل الاشارات المسيئة للاكليروس واستبدلوا الرهبان الداعرين [illegible] والراهبات الزانيات بنساء المجتمع الراقى كما حولوا رئيسة الدير التى سبق الاشارة اليها إلى كونتيسة . وهكذا سمح البابا بعد اجراء هذه التعديلات بتداول الكتاب .

لقد ترك كتاب بوكاشيو أثرا واضحا فى قصائد الشاعر الانجليزى الكبير جوفرى تشوسر الذى زار فلورانسا عام ١٣٧٣ فى مهمة رسمية أى قبيل وفاة بوكاشيو بوقت قصير.
واقتفى تشوسر أثر الأديب الايطالى فنظم « حكايات كانتربرى » التى تتسم بالفكاهة الخشنة والاشارات الجنسية البذيئة على نفس منواله. ومن هذه الحكايات التى تنطوى على البذاءة الجنسية تلك الحكاية المعروفة باسم « زوجة من باث ».

وبسبب بذاءة كتاب بوكاشيو قامت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بمنعه من التداول رغم مرور خمسة قرون على اصداره. وفى عام ١٩٢٢ صادر مكتب بريد مدينة سنسيانى بالولايات المتحدة عددا من نسخ الكتاب رغم تشذيبها وتهذيبها وحكم قاضى الولاية بتوقيع غرامة قدرها ألف دولار على تاجر الكتب المسئول عن احضار الكتاب إلى الأراضى الأمريكية، وفى عام ١٩٢٧ قام رجال الجمارك الأمريكان بتمزيق وتشويه نسخة من الكتاب وارسالها إلى تاجر الكتب البريطانى المسئول عن شحنه إلى الولايات المتحدة.

وقد قامت السلطات الانجليزية معظم الأوقات بمصادرته. ففى الفترة من ١٩٥١ حتى ١٩٥٤ أصدر القضاء الانجليزى ثمانية أوامر بتدمير الكتاب مستندا فى ذلك إلى قانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٨٥٧ والذى سوف نشير إلى ظروف استئنافه فى وقت لاحق. ولكن حظره فى المرة الثامنة كان سببا فى احتدام اللغط والجدال بين الناس لأن الاستئناف ألغى أمر المحكمة القاضى بحظر. ومع هذا فإن كثيرا من الدول حتى يومنا الراهن مثل استراليا تزور عن الكتاب ولاتسمح باصداره فى طبعات رخيصة فضلا عن أنها أحيانا لاتسمح بتداوله الا بعد اجتثات البذاءات منه.

الكنيسة الكاثوليكية تشدد الرقابة بعد اختراع الطباعة

بعد اختراع الطباعة فى أوربا فى القرن الخامس عشر أحست الكنيسة بالخطر الداهم يتهددها بسبب ما وفرته الطباعة من سهولة ويسر فى انتشار الكلمة المكتوبة وذيوعها . وزاد من احساسها بهذا الخطر بطبيعة الحال اشتداد ساعد حركة الاصلاح الدينى المناوئة لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية . ومن ثم فقد سعت ما وسعها السعى إلى احكام قبضتها على الكتب المخالفة لها فى الرأى . ففى عام ١٥٥٧ قامت محاكم التفتيش فى عهد البابا بولس الرابع بوضع أول قائمة لحظر الكتب التى لاتروق لها اسمها « فهرس الكتب الممنوعة » وهو فهرس يختلف تماما عن فهرس آخر فكرت الكنيسة الكاثوليكية فى اصداره . ولكن هذا الفهرس الآخر لم يقيض له الظهور . وكان هدف الكنيسة من وراء السماح باعادة نشر الكتب المحظورة هو استبعاد الفقرات المعترض عليها و تنقيتها من الشوائب . والجدير بالذكر فى هذا الشأن أن الكنيسة الكاثوليكية لم تسمح بتداول كتاب « الديكاميرون » إلا بعد تنقيحه واستبعاد فضائح الرهبان ورجال الكنيسة منه بناء على توجيه من مجلس ترنت الكنسى المنعقد فى عام ١٥٧٣ .

ولعلنا نردد ماسبق ان ذهبنا اليه من أن الكنيسة الكاثوليكية لم تظهر استياءها من البذاءات الجنسية بقدر ما أظهرت من استياء من الهجوم على سلطانها . والجدير بالملاحظة أن فهرس الكتب الممنوعة الذى وضعته الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر لم يجرم البذاءة أو يعتبر انها فى حد ذاتها عمل يستحق المقاضاة طالما أنها لاتتعرض بالهجوم على سلطة الكنيسة . وظل هذا الموقف الكنسى الرخو من البذاءة سائدا فى انجلترا حتى القرن السابع عشر أى حتى

مابعد عهد الاصلاح الديني . لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تقدم الكتابات البذيئة كلما عنّ لها ذلك إلى المحاكم الدينية الخاضعة لسيطرتها. ولكن هذه المحاكم الدينية فقدت فاعليتها عندما فقدت الكنيسة الكاثوليكية أسباب قوتها وأخذ نفوذها يعتريه الوهن . وبنهاية القرون الوسطى وبزوغ عصر النهضة لم يعد للكنيسة الكاثوليكية سلطان على المؤلفين والكتاب المارقين . ومن ثم أصبحت محاسبة الكتابات البذيئة من شأن سلطات الملك المدنية التي تسن القوانين المنظمة لكافة أنواع المطبوعات. غير أنه من الخطأ أن نهون من شأن الدور الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية في فرض الحظر على الكتب وفي تقليص حرية التعبير والحد منها. فهذه الكنيسة حتى يومنا الراهن لاتسمح لأي من المنتمين اليها أن يقوم بتأليف أي كتاب في اللاهوت أو تاريخ الكنيسة . . أو القوانين الكنسية أو أن يخوض حتى في الأمور الأخلاقية دون الحصول على إذن مسبق من الكنيسة بذلك. ففي عام ١٩٣٨ قام الباحث الفريد نويس الذي تحول إلى الملة الكاثوليكية بتأليف كتاب عن فولتير دون استئذان الكنيسة فأمرت بسحبه واضطر مؤلفه أن يعيد نشره بعد استبعاد الفقرات التي اعترضت الكنيسة عليها .

وقد أحصى الباحثون عدد الكتب التي يضمها « فهرس الكتب الممنوعة » (التي تراجعها الكنيسة وتعيد النظر فيها من وقت لآخر) فوجدوا أن عددها في عام ١٩٤٨ وصل إلى نحو أربعة آلاف كتاب بين مؤلف ومترجم في شتى أنحاء العالم . ولاتسمح الكنيسة لأي من أتباعها بقراءة أي من هذه الكتب إلا في حالات فردية واستثنائية وبناء على تصريح خاص منها . وتدل آخر طبعة من « فهرس الكتب الممنوعة » في الخمسينات على العجب العجاب . فقد فرضت الكنيسة الكاثوليكية حظرا على حشد من عيون الأدب والفكر الغربي . وحتى عام ١٩٤٨ اشتملت قائمة الكتب الممنوعة على

« سقوط الامبراطورية الرومانية » للمؤرخ الكبير جيبون و « مبادىء الاقتصاد السياسى » للفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت ميل و « تأملات » الفيلسوف الانجليزى باسكال ، ورواية « باميلا » لصامويل ريتشارد سون، وكل مؤلفات الفيلسوف المعروف دافيد هيوم وكذلك فولتير وكل روايات بلزاك وديماس الأب وديماس الابن وأناتول فرانس وستندهال وزولا. وفى عام ١٩٥٢ أضيفت روايات البرتو مورافيا إلى قائمة الممنوعات .

والجدير بالذكر أن كثيرا من البلاد الأوربية لم تعد تكترث بالحظر الذى فرضته الكنيسة الكاثوليكية على الكتب بسبب تحولها من الكثلكة إلى البروتستانتية . وهكذا أصبح الالتزام بقائمة الكتب الممنوعة مقصوراً فقط على اتباع الكنيسة الكاثـوليكية دون البروتستانت . ولكن هذا لاينبغى أن يقلل من شأن الحظر الذى فرضه الكاثوليك على الفكر والأدب .



مؤلفات بذيئة فى القرون الوسيطة وفى عصر النهضة

كتاب اكستر

يعتبر « كتاب إكستر » أقدم كتاب بذىء ظهر فى انجلترا فى القرون الوسطى . ومنه يستمد الأدب الانجليزى كثيرا من مصادره الأصلية . ويحتوى الكتاب على مجموعة من القصائد والألغاز والفوازير توفر على تأليفها بعض النساك والرهبان .

وقد قام أول أسقف فى كاتدرائية إكستر واسمه ليوفريد باهداء مخطوط الكتاب إلى هذه الكاتدرائية منذ مايقرب من تسعمائة عام . ويتسم الكتاب بدعاباته الخشنة واشاراته الجنسية . . فالغزورة رقم ٤٤ الواردة فى هذا الكتاب تدور حول شىء صلب يختفى تحت ثياب الرجل وهو ثابت ومستقر فى مكانه وله رأس تدخل فى فتحة على مقاسه . وهى فزورة تبدو بريئة فى مظهرها لأنها تشير إلى المفتاح . ولكنها فى نفس الوقت قد تعنى قضيب الرجل .

كتاب الهزليات

ثم ظهر فى ايطاليا فى عصر النهضة فى القرن الخامس عشر كاتب وباحث بذىء من الداعين إلى اعتناق المذهب الانسانى اسمه جيان فرانسيسكو يوجيو براشيولينى الذى اشتغل لعدة سنوات كسكرتير بابوى . ألف براشيولينى كتابا جنسيا فاضحا بعنوان « الهزليات » واستمتع به الأساقفة والكرادلة بل والبابا نفسه استمتاعا عظيما . . ويروى الجزء ٤٣ من كتاب الهزليات قصة عروس ما فتئت تشكو من قِصَر وتد عريسها فى مأدبة أقيمت بمناسبة زواجها . وأحاط بها

الأصدقاء والمعارف يواسونها لحظها العاثر . وترامى إلى العريس شكوى عروسه منه فما كان منه إلا أنه كشف عن عضو ذكره وقام بوضعه على المائدة ليرى جميع الحاضرين حجمه الكبير . وبهذا أقنع الجميع أن زوجته متحاملة عليه . ومن ثم فقد أنحوا عليها بالملامة فكان ردها أنها سبق أن شاهدت وتد حمار فى الحقل فوجدته أضعاف حجم عضو الذكر عند زوجها . الأمر الذى أثار دهشتها واستغرابها .

سيدة أرستقراطية فرنسية تقلد بوكاشيو

وفى القرن السادس عشر أى بعد انقضاء قرنين من الزمان على صدور كتاب بوكاشيو ألفت السيدة الارستقراطية الفرنسية مارجريت فالوا زوجة هنرى الرابع ملك نافار كتابا جنسيا فاضحا بعنوان « الهيتاميرون » (أو « السبعة أيام ») نشر عام ١٥٥٨ أى بعد وفاتها بسنوات قلائل . ولكن هذه السيدة الأرستقراطية لم تتمكن من استكمال كتابها الذى ألفته على غرار « الديكاميرون » لبوكاشيو فكتابها يتكون من اثنين وسبعين قصة قصيرة تقوم بروايتها على مدار سبعة أيام قلة من وجهاء المجتمع من السيدات والرجال حاصرتهم الفيضانات وعزلتهم فى دير يقع فى منطقة البيرنيز . وجميع هذه القصص شأنها فى ذلك شأن الديكاميرون ـ تصور على نحو فاضح ممارسة الرهبان والراهبات للجنس . ولعل هذا أول كتاب فى تاريخ الأدب الجنسى البذىء تتوفر امرأة على تأليفه .

رابيليه والأدب المكشوف

ارتبط اسم فرانسوا رابيليه أديب فرنسا المعروف فى القرن السادس عشر بالفكاهة والهزل الجنسى الخشن . كانت الملكة ماجريت ولية

نعمته . بدأ رابيليه حياته كراهب ثم أصبح قسيسا ثم انصرف إلى دراسة الطب . وعندما نشر انتاجه الأدبى الشهير « بانتاجرويل » (١٥٣٢) و « جارانتوا » (١٥٣٤) صدم هذان العملان مشاعر الفرنسيين صدمة عنيفة لدرجة أن جامعة السوربون وضعتهما فى قائمة الكتب الممنوعة . ويرجع السبب فى حظرهما إلى تطاولهما على رجال الدين أكثر مما يرجع إلى ما يتضمنه الكتابان من بذاءات جنسية .

ولولا صداقة المؤلف المتينة بالملك فرانسوا الأول الذى كان أخا للملكة مارجريت لوقع فى مشاكل لاحصر لها ولا يمكن التكهن بعقباها . والجدير بالذكر أن الملك نفسه كان أحد المعجبين بكتاباته . وفى احدى قصصه البذيئة يقترح رابيليه تحصين أسوار مدينة باريس وتقويتها عن طريق اعادة بنائها من فروج النساء بسبب رخصها عن الحجارة . ويرى رابيليه ضرورة مراعاة التنسيق (أو السيمترية) فى بناء السور بحيث تحتل الفروج الأكبر مكان الصدارة تتلوها الأصغر فالأصغر . وفى قصة اباحية أخرى يتحدث رابيليه عن رجل يتمتع بباه له مفعول السحر وقدرة غير عادية على الجذب المغناطيسى فهو يؤثر فى كل انسان يشاء قدره الاقتراب منه . وبمحض الصدفة يدخل هذا الرجل الذى وهبته الطبيعة أحد المسارح فيصيب جنون الجنس كل الحاضرين من ممثلين ونظارة ومن ثم يتوقف العرض وينخرط جميع الموجودين فى عربدة عامة كل يمارس الجنس مع جاره .

بيترو أرتينو الأرستقراطى الايطالى الداعر

وجد أرتينو متعة فى الزعم بأنه ابن زنا ينحدر من عائلة أرستقراطية فى حين أن والده كان مجرد صانع أحذية من بلدة أريزو الايطالية ورغم أنه كان من أصفياء بابا روما فقد أثار سخط السلطات ضده مما دعاه إلى الانسحاب من روما ليعيش فى البندقية . ويرجع ازورار

المسئولين عنه إلى أنه ألف مجموعة من القصائد الداعرة تتكون من ستة عشر سوناته توضحها رسوم بريشة الفنان جيوليو رومانو تصور أوضاع المضاجعات الجنسية المختلفة.وقيل عن ملك انجلترا فى عهد عودة الملكية تشارلس الثانى أنه كان يتباهى بأن عشيقته الليدى كاسلمين كانت تعرف عددا من هذه الأوضاع يفوق مايعرفه أرتينو . وأثناء اقامته فى البندقية أصاب أرتينو نجاحا اجتماعيا هائلا وعاش فى قصر منيف تحيط به جوقة كبيرة من العاهرات اللاتى أنجبن له عددا كبيرا من الأطفال . ولكن هذا لم يمنعهن من أن يخنه مع غيره من العشاق والاحتيال عليه لتجريده من أمواله وممتلكاته . ويتضمن كتابه « زاجيونامنتى » محاورات بين عاهرتين من روما حول طرائف العشق والغرام وأفضل وسيلة لتجريد العاشق مما يملك . وفى عام ١٥٥٦ وافت أرتينو المنية ويقال إنه مات نتيجة استرساله فى قهقهة عالية متواصلة.فقد كان أحد الاصدقاء يروى حكاية جنسية فاضحة عن أخت أرتينو التى أعجب بها ايما اعجاب لدرجة أنه انفجر فى ضحك متواصل كان السبب فى سقوطه من على الكرسى المرتفع الذى يجلس عليه فيدق عنقه ويلفظ أنفاسه .

الرقابة لم تتوقف فى عهد البروتستانت

ترتبط حركة الاصلاح الدينى باسم المصلح الدينى الألمانى المعروف مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وهى ترتبط أيضا ارتباطا وثيقا بنشأة المذهب البروتستانتى فى البلاد الأوربية فى القرن السادس عشر .

والجدير بالذكر أن المذهب البروتستانتى عند نشأته عرف الغلو والتعصب والتطرف المقيت عن طريق رافد بروتستانتى متشدد وضيق الأفق معروف بالكالفينية نسبة إلى مؤسسه المصلح الدينى السويسرى جون كالفين (١٥٠٩ - ١٥٦٤) ومالبثت البروتستانتيةالتى نشأت فى ألمانيا أن انتقلت إلى انجلترا حيث شجع على اعتناقها الملك هنرى

الثامن الذى رفض عام ١٥٣٤ الامتثال لسلطة بابا روما وخاصة عندما اعترض على طلاقه من احدى زوجاته . ورغبة منه فى القضاء على نفوذ الكنيسة الكاثوليكية أصدر هنرى الثامن أوامر بحل والغاء الأديرة الموجودة على الأراضى الانجليزية . ثم جاء عهد الملك ادوارد السادس فانتشرت العقيدة البروتستانتية وتكونت الكنيسة البروتستانتية التى ترسخت أقدامها فى عهد الملكة إليزابيث (١٥٣٣ ـ ١٦٠٣) . وفى نهاية الأمر أدت حركة الاصلاح الدينى إلى أفول سلطان الكنيسة الكاثوليكية واشتداد ساعد عصر النهضة .

ومن الخطأ أن نظن أن الرقابة على الكتب والمؤلفات انتهت بأفول سلطة الكنيسة الكاثوليكية . فقد استمرت الرقابة فى فرض الحظر على المطبوعات حتى فى فترة الاصلاح الدينى وما بعدها . ففى انجلترا عَهِد الملك هنرى الثامن إلى محكمة ستار تشامبرز بالقيام بمهمة الرقابة والحظر . ثم فى يناير ١٥٥٩ أقرت الملكة اليزابيث ميثاقا ينص على منح شركة تعرف باسم شركة الأدوات الكتابية الحق فى احتكار كل أنواع الطباعة والنشر نظير تعهدها بتتبع وملاحقة الكتب غير المرغوب فيها والمخالفة للقانون ومنع نشرها . . وفى نفس الوقت أصدرت الملكة إليزابيث مرسوما ملكيا ينص على عدم جواز طبع أى كتاب إلا بعد الحصول على إذن بذلك من الديوان الملكى المختص أو من كبير أساقفة كانتربرى ويورك أو من الرقباء المعينين لهذا الغرض . غير أن هذا المرسوم اشتمل على فقرة استثنت من الحظر الكلاسيكيات والكتب المقررة فى مناهج الدراسة والجامعات .

وعندما آلت مقاليد الحكم إلى عائلة تيودور أصبحت الرقابة فى انجلترا تنصب على القضايا الدينية أكثر من غيرها من القضايا ولكن سيل الترجمات من اللغة الايطالية إلى اللغة الانجليزية التى أغرقت انجلترا فى عصر النهضة أفزع دعاة الأخلاق وأصابهم بالانزعاج

ويتضح هذا من استنكار روبرت اسكام فى كتابه « المعلم » (١٥٧٠) لحظر عمل أدبي معروف هو « موت الملك آرثر » بسبب اعتماده اعتمادا مطلقا فى تشويق القارىء على مناظر العهر والدعارة وسفك الدماء . فضلا عن أن روبرت اسكام استنكر الكتاب الذى ألفه بانتر بعنوان « قصة اللذة » بسبب ما جاء فيه من فجر ومجون . وقد شاع هذا الكتاب فى عصر شكسبير الذى استقى منه هو ومعاصروه أمثال بن جونسون بعض حبكاتهم المسرحية .

وبمجىء عائلة ستيوارت إلى سدة الحكم الانجليزى أصبحت الرقابة أكثر صرامة عن ذى قبل . فقد صدر عام ١٦٣٧ مرسوم متشدد بشأن الكتب المستوردة من خارج انجلترا . وينص هذا المرسوم على عدم جواز استيراد طرود من أجل بيعها إلا بعد عرض قائمة بهذه الكتب على أسقف كانتربرى أو أسقف لندن للحصول على موافقتهما . وإلى جانب هذا أعطى القانون هذين الأسقفين الحق فى تكليف من ينوب عنهما بالاشراف على تفريغ طرود الكتب المستوردة والاطمئنان على خلوها مما قد يسىء أو يشين .

وفى ١٦٤٠ شاهدت انجلترا فترة من السماحة والحرية لم تدم أكثر من ثلاثة أعوام . ففى العام المشار إليه أصدر البرلمان الانجليزى قرارا بالغاء محكمة ستار تشامبر لتعسفها فى تطبيق قوانين الرقابة . ولكن البرلمان الانجليزى مالبث أن عاد ليفرض الرقابة الصارمة من جديد على الكتب والمطبوعات ، وصدر القرار بعودة الرقابة عام ١٦٤٣ رغم المعارضة المجيدة والاحتجاج النبيل اللذين عبر عنهما الشاعر الانجليزى الكبير جون ميلتون فى رسالته العظيمة المدافعة عن حرية الرأى والتى يعرفها دارسو الأدب الانجليزى بالأروباجيتكا التى تهاجم بضراوة قوانين الرقابة وبالذات الرقابة على المصنفات الأدبية نظرا لما فى هذا الحظر من تناقض واستبداد وسخف . ورغم أن الرقابة

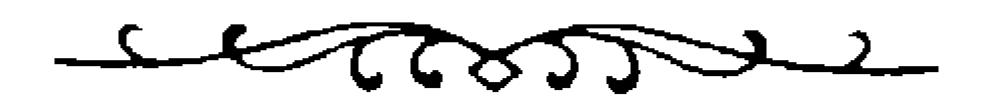
الانجليزية فى عهد الاصلاح انصبت فى العادة على الشقاق الدينى والسياسى فقد امتدت فى بعض الأحيان لتشمل الفساد والانحلال الخلقى ، الأمر الذى أثار قلق هنرى فوهان فى كتابه « سيكلس سكنتيلانز » ففى هذا الكتاب يعيب فوهان على الانجليز شدة اقبالهم على ترجمة الأدب الاباحى والماجن الذى سطره الفرنسيون والايطاليون تحت اسم « أدب الرومانس »

وفى أعقاب عصر الاصلاح الدينى صدر أيضا قانون الترخيص عام ١٦٦٢ الذى فرضت بمقتضاه الرقابة على الكتب الالحادية والخلافية من الناحية الدينية إلى جانب الكتب التى تحوى عيبا أو قذفا فى حق الآخرين . غير أن السلطة فى انجلترا آنذاك لم تظهر أى اهتمام حقيقى بحظر أدب الجنس ، الأمر الذى أتاح لهذا الأدب فرصة للازدهار كما يتجلى فى بعض أجمل الأغانى والأشعار التى عرفتها تلك البلاد فى القرن السابع عشر . وعلى أية حال استمر العمل فى انجلترا بالقانون الصادر عام ١٦٦٢ حتى عام ١٦٩٥ .

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن روبرت ستيفنس يعتبر واحدا من أشهر وأبغض الذين عهدت اليهم السلطات الانجليزية بالتبليغ عن الكتب غير اللائقة وغير المرغوب فيها . وفى عام ١٦٧٧ تم ضبط بائع فى لندن اسمه ويلز يبيع كتبا جنسية فاضحة استوردها من امستردام فى هولندا . وكان من بين هذه الكتب الفاضحة كتاب بعنوان « مدرسة البنات » ولكن على أية حال من الواضح أن عقوبة نشر الكتب البذيئة حينذاك لم تكن شديدة فقد اكتفت الحكومة باغلاق المكتبة التى يملكها ويلز لمدة بضع ساعات . وفى عام ١٦٨٣ قام ستيفنس بالتبليغ عن بائع كتب جنسية آخر وقعت عليه المحكمة غرامة قدرها أربعون شلنا بسبب طبعه ونشره ترجمة لكتاب بذىء بعنوان « بلاغة العاهرة » من تأليف الكاتب الايطالى فيرانتى بالأفسينو

ويصف هذا الكتاب حياة مومس وفنونها فى الغواية والاغراء.والجدير بالذكر أن مصير هذا المؤلف الايطالى كان أقسى من مصير ناشره الانجليزى.فقد حكم عليه بالاعدام فى فرنسا عام ١٦٤٤ أى بعد انقضاء سنتين من صدور كتابه.ولم يكن اعدامه بسبب اباحيته ولكن بسبب هجومه على رجال الاكليروس.وفى عام ١٦٨٩ والسنوات التالية رفعت قضايا كثيرة ضد كتابات روتشستر وخاصة ديوانه « أشعار فى مناسبات متنوعة » ومسرحيته الاباحية « سدومه ».وفى القرن السابع عشر صدرت فى انجلترا أوامر بتدمير عدد كبير من الكتب.فقد أوردت صحف لندن الصادرة فى ١٢ أكتوبر ١٦٩٦ خبرا مفاده أن مندوب النشر المستر ستيفنس قام فى حضرة قاضى وأحد رجال الشرطة بإحراق عربة يجرها حصان مليئة بالكتب والبطاقات البذيئة يقال إن صاحبها ايطالى يدعى برنادى .

ويهمنا أن نذكر أنه منذ عام ١٦٩٥ وهو تاريخ انتهاء العمل بقانون الرقابة الذى سبق الاشارة إليه حتى يومنا الراهن خفت قبضة الرقيب الانجليزى بشكل واضح ولم تعد الكتب والصحف تخضع لحظر الرقيب الذى آثر أن يتركها وشأنها دون تدخل من جانبه . وهكذا أصبحت حرية الصحافة والمطبوعات شيئا مستقرا وجزءا لايتجزأ من التقاليد الانجليزية المتوارثة . ونحن نرى اللورد مانسفيلد فى عام ١٧٨٤ يلخص هذه الحرية بقوله : « إن حرية الصحافة تتلخص فى قيامها بالنشر دون حصولها على ترخيص مسبق بذلك بحيث تخضع المادة المنشورة لأحكام القانون العام .



الرقابة الانجليزية فى القرن السابع عشر
وفضيحة السير تشارلس سيدلى

تعتبر قضية السير تشارلس سيدلى من أبرز القضايا التى نظرها القضاء الكنسى فى القرن السابع عشر فى انجلترا فى الفترة التى تعرف بعودة الملكية التى كان كرومويل الذى يمثل التفكير الدينى البروتستانتى المتشدد قد نجح فى الاطاحة بها واعدام الملك تشارلس الأول . وبعد اندحار ثورة كرومويل ضد النظام الملكى الانجليزى عاد الملك تشارلس الثانى إلى سدة الحكم.وكان السير تشارلس سيدلى واحدا من حاشية الملك تشارلس الثانى وألصق أصدقائه . وهو والد كاثرين عشيقة أخيه الدوق يورك الذى أصبح فيما بعد الملك جيمس الثانى الذى منح عشيقته لقب كونتيسة روتشستر .

اعتاد تشارلس سيدلى وصحبه أن يغشوا حانات لندن وخماراتها بحثا عن المتعة والفرفشة . وهى عادة مارسها شكسبير ومعاصروه ثم استمرت بعد ذلك على يد كوكبة من أدباء القرن الثامن عشر أمثال أديسون وستيل والدكتور جونسون وجولد سميث .

وبعودة الملكّية إلى انجلترا عام ١٦٦٠ انغمس البلاط الانجليزى وعلى رأسه الملك تشارلس الثانى الملقب بالملك المرح فى الملذات والمتعة . وساعد على ذلك بطبيعة الحال ما تعرضوا له من فترات النفى والإبعاد الطويلة فى فرنسا التى تركت بصماتها حتى فى الانتاج الأدبى الانجليزى فى الفترة المعروفة بفترة عودة الملكية . وتشهد على ذلك التأثير الجلى مسرحية « الزوجة الريفية » (١٦٧٥) لوليم وتشرلى ومسرحية وليم كونجريف المعروفة « الحب من أجل الحب » فكل منهما نموذج للمسرحيات الفرنسية،كما أن مثل هذه المسرحيات مهدت الطريق لظهور نوع من المسرحيات الفرنسية الحديثة يعرف بفارس حجرة النوم .

وشهدت الحانات الواقعة بالقرب من تشارنج كروس فى لندن أفعال انحلال ومجون مارسها نفر من حاشية الملك تشارلس الثانى ورفاقه . ولكن مساخرهم تجاوزت كل حدود التحشم واللياقة . يقول كاتب المذكرات صامويل بيبس المعروف أنه حدث فى شهر يونية عام ١٦٦٣ أن اجتمع فى حانة الديك الواقعة فى بوستريت فى لندن السير تشارلس سيدلى وصحبه أمثال تشارلس لورد باكهيرست (الذى أصبح فيما بعد الايرل أف اسكس) والسير أوجل . وشرب المجتمعون حتى لعبت الخمر برءوسهم فتوجهوا إلى شرفة الحانة حيث خلعوا ألبستهم الداخلية ليبولوا فى الطريق العام على الحشد الذى تجمع أسفل الشرفة . ولم يكتف سيدلى بذلك بل تجرد تماما من ملابسه وأصبح عريانا كما ولدته أمه . ويقال أنه أخذ يحث الناس فى بلاغة وطلاقة على اعتناق الهرطقة . فحدث هرج ومرج بين الحشد المجتمع أسفل الشرفة وارتفع صياحهم وأرادوا كسر الباب الخارجى على الشارع لولا وجود بعض الموانع التى منعتهم من ذلك . فما كان من الجمهور إلا أنه ألقى الطوب والحجارة على الحجرة فكسر النوافذ الأمر الذى اضطر الشلة الماجنة إلى الاحتماء بداخلها . وزاد ذلك من سورة غضب الجمهور الذى طالب بالقصاص من طغمة الفسقة والماجنين . وصعد الشعب الغاضب الأمر حتى وصل إلى المسئولين فى الحكومة ، الأمر الذى اضطر محكمة وستنمستر إلى استدعاء السير تشارلس سيدلى للمثول أمامها . وحكم عليه السير هايد رئيس القضاة بدفع غرامة قدرها خمسمائة جنيه استرلينى فاحتج على ذلك بقوله إنه أول انسان يدفع غرامة عقابا له على تبرزه علنا أمام الملأ .

وهناك روايات أخرى تروى الحادثة على نحو آخر مفادها أن المحكمة وقعت عليه غرامة قدرها ألفان من الجنيهات وأنه ظل رهن التحقيق فى السجن لمدة أسبوع وأن القاضى رفض الافراج عنه بكفالة كما ألزمه بالتعهد بحسن السير والسلوك لمدة سنة لاعترافه بالوقوف عاريا

بالشرفة وقذف الحشد المتجمهر فى كوفنت جاردن بالزجاجات . والجدير بالذكر أن الماجن العربيد تشارلس سيدلى كان يتمتع بقدر من الموهبة الأدبية فقد نظم عددا من القصائد الغنائية الغرامية التى راقت فى عين الملك تشارلس الثانى .

والجدير بالذكر أيضا ـ وهو الأهم ـ أن سلطان المحاكم الكنسية على المدنيين اضمحل شيئا فشيئا بسبب وجود تشريعات فى القانون المدنى الانجليزى تحل محل القوانين الكنسية ولكن هذه التشريعات كانت أبعد ما تكون عن الوضوح فيما يتعلق بنشر الأدب المكشوف .

وبحلول عام ١٨٧٦ أصبح سلطان المحاكم الكنسيةمقصوراًعلى رجال الكنيسة وحدهم بعد أن فقدت ولايتها على المدنيين . وحتى فى مطلع القرن الثامن عشر بدا أن هذه المحاكم الكنسية عاجزة عن معاقبة الكتابات الاباحية والماجنة . كما أن المحاكم المدنية ـ التى لم تكن تتمتع بصلاحيات كبيرة ـ كانت غير مؤهلة للتعامل مع المطبوعات الاباحية والماجنة . ويتضح لنا هذا من الملاحظات التى أبداها القاضى باول فى عام ١٧٠٨ وهو يناقش القانون أثناء نظره قضية رجل اسمه مستر ريد قام بطبع كتاب جنسى ماجن عنوانه « البكارة وأمراض الطاعون الخمسة عشرة » فقد ذهب هذا القاضى إلى أن قانون القذف والبذاءة لاينطبق على هذه الحالة . لأن القذف والبذاءة لابد أن يكونا موجهين ضد شخص بعينه أو مجموعة أشخاص بعينهم أو ضد الحكومة،فى حين أن بذاءة الكتاب المشار اليه لاتعود بالضرر على أحد بالذات . واستطرد القاضى قائلا : إن القانون المدنى يخلو من المواد التى تعاقب مثل هذه الحالة.يقول القاضى فى هذا الصدد : « لقد كنت أتمنى أن توجد القوانين التى تعاقبها . ولكنه ليس من صلاحيتنا أن نسن القوانين . صحيح أن مثل هذه المادة المنشورة تميل إلى افساد السلوك الحسن . ولكن هذا وحده ليس كافيا لإنزال العقاب بمؤلفها . ولكن الأمر مختلف فيما يتعلق بقضية السير تشارلس

سيدلى لأنها لم تكن مجرد مسألة ظهوره عاريا فى الشرفة . إن جريمة السير تشارلس سيدلى تتمثل فى اعتدائه على الناس المتجمهرين أسفل الشرفة بالقاء الزجاجات عليهم . واذا دل كلام هذا القاضى على شىء فإنما يدل على أن نصوص القانون الانجليزى حتى مطلع القرن الثامن عشر كانت أبعد ما تكون عن الوضوح فيما يتصل بتأليف أدب الجنس .

صامويل بيبس وأدب الجنس

يعتقد بعض الباحثين أن أكثر الناس ضراوة فى الهجوم على الأدب الإباحى هم فى العادة أكثرهم اقبالا عليه وتشوقا لقراءته ويتضح لنا هذا من موقف كاتب اليوميات المعروف صامويل بيبس من الكتابات الجنسية كما ورد فى مخطوط يومياته التى تحتفظ بها فى شكلها الكامل مكتبة بيبس بكامبريدج . وكثير من فقرات المخطوط محذوفة بسبب بذاءتها من النسخ المطبوعة حيث نجد نقاطا مكان الفقرات التى لايمكن طبعها . ومن هذه الفقرات المحذوفة تلك التى يتحدث فيها بيبس عن زوجته التى ضبطته يزنى مع خادمتها .

ويروى لنا بيبس ظروف حصوله على نسخة من كتاب « مدرسة البنات » (١٦٦٥) الذى ألفه ميشيل ميليلوت تحت اسم هيلوى المستعار . والكتاب عبارة عن حوار داعر بين امرأة مجربة وفتاة عذراء . وقد جاء ذكر هذا الكتاب فى مسرحية وليم ويتشرلى « الزوجة الريفية » (١٦٧٥) و « أزواج لندن القوادون » (١٦٨١) وعندما وقعت أنظار بيبس على الكتاب خطر له أن يحمله إلى زوجته كى تترجمه ولكنه اتضح له من تقليب صفحاته أنه يفوق فى عهره أى كتاب قرأه فى حياته بما فى ذلك كتاب « المومس المتجولة » الذى ظهر فى عصر النهضة والمنسوب إلى الكاتب الايطالى بيترو أرتينو . والذى

يعتقد أنه من تأليف شاعر البندقية لورنزو فينييرو . ويشتمل هذا الكتاب على حوار بين عاهرتين . فخجل من قراءة الكتاب وأسرع بمغادرة المكتبة والعودة إلى بيته.ولكن فى غضون أقل من شهر واحد دفعه حب الاستطلاع إلى العودة إلى المكتبة للحصول على نسخة من الكتاب وقراءته فى مكتبه ثم قام بحرقه بعد ذلك حتى لايكون ضمن قائمة الكتب التى يقتنيها . وحاول أن يبرر قراءته للكتاب برغبته فى معرفة شرور هذا العالم . والتهم الكتاب حتى انتهى منه فى نفس اليوم الذى اشتراه فيه . ويعترف بيبس أن عهر الكتاب استطاع أن يستثير غرائزه وأن يدفعه إلى ممارسة العادة السرية . وأخيرا قام بالتخلص منه عن طريق حرقه .

● ● ●

ولد صامويل بيبس عام ١٦٣٣ وتوفى عام ١٧٠٣ . بدأ حياته بالعمل كسكرتير لدى واحد من أقربائه الأثرياء ثم التحق بوظيفة متواضعة ككاتب فى مكتب البحرية البريطانية . واستطاع بفضل اجتهادة أن يشق طريقه ليصبح سكرتير الشئون البحرية ومالكا للضياع الواسعة .

وتتجاوز يوميات بيبس ألفى وخمسمائة صفحة مكتوبة بنوع من الاختزال سطرها المؤلف بأمانة شديدة وشجاعة أخلاقية نادرة سببت الحرج لمن تولوا نشر يومياته بعد وفاته . فلم يجرأ واحد منهم أن ينشرها كاملة مثل اللورد برايبروك الذى لعب دور الرقيب عندما استبعد بعض الفقرات غير اللائقة منها لأنه على حد تعبيره « لايمكن طبعها كما هى عليه » وهو نفس مافعله أيضا هـ . ب ويتلى . وفى عام ١٨٤٤ قال لويل وزير أمريكا لدى انجلترا بمناسبة ازاحة الستار عن شاهد أقيم من أجل تخليد ذكرى بيبس أن هذا الكاتب يتميز بأمانته الفريدة مع نفسه التى لانجد لها مثيلا إلا فى « صحيفة

النجمة » . ويستطرد لويل ليقول إن صراحة الأديب والفيلسوف جان جاك روسو تتضاءل اذا قورنت بصراحة بيبس . والذى لاشك فيه أن هذا الصدق الشديد مع النفس هو الذى جذب الكاتب الأمريكى الكبير مارك توين إليه .

ويذهب الدارسون إلى أن هناك وشائج تربط بين الكاتبين صامويل بيبس الانجليزى ومارك توين الأمريكى،فكل منهما يبدو وكأنه يقبل مواصفات وأعراف مجتمعه عن رضا وطيب خاطر،فى حين أن كلا منهما يستهزىء بهافى قرارة قلبه . فبيبس البورجوازى يسخر من مجتمعه البورجوازى فى السر وعلى صفحات يومياته التى يدونها لنفسه،كما أن مارك توين يفعل نفس الشىء ولكن فى العلن عن طريق استخدام الفكاهة الاجتماعية المسلية واللاذعة . كان بيبس يسر إلى الورق بخياناته لزوجته الشديدة الغيرة فضلا عن شعوره بالذنب . وكما يذهب المرء فى يومنا الراهن إلى المحلل النفسانى ليتخفف من وطأة شعوره بالذنب وجد بيبس فى التسجيل الأمين لحياته راحة نفسية . وملأت هذه اليوميات عليه وحدته القاتلة وساعدته على التخلص من شعوره بخوائها .

ويذكر بيبس فى يومياته عن فضيحة تشارلس سيدلى التى سبق أن أشرنا اليها أن عدد المجتمعين أسفل شرفة حانة الديك ليستمعوا إلى موعظته بلغ ألف شخص،وأن هذا الارستقراطى الداعر قال فى معرض حديثه أنه يبيع مسحوقا أو بودرة لها مفعول السحر على النساء من شأنها أن تجعل كل نساء المدينة اللاتى يستعملنها يجرين وراءه طلبا لرضائه . وما أن انتهى سيدلى من موعظته حتى أمسك بزجاجة خمر وتبول فيها أمام الملأ ثم أفرغها فى جوفه . وهو لم يكتف بذلك بل انه أتى بزجاجة خمر أخرى وفعل نفس الشىء ليشرب نخب صحة الملك .

ولايجد بيبس فى يومياته أية غضاضة فى الاعتراف بذهابه إلى الكنيسة والجلوس بجوار الشابات من أجل معاكستهن فاذا استعصت واحدة عليه لايتورع عن معاكسة الأخرى .

قد كتب بيبس يومياته بأسلوب يفتقر إلى الجمال ويخلو من الفن ولكن يعوض عن ذلك حيويته ومصداقيته من الناحيتين التاريخية والنفسية وشدة قربها من الواقع . فقد حرص كاتبها أن يسوق الكثير من التفاصيل الدقيقة . فضلا عن أنه أسرع بتدوينها فور وقوعها أو بعد وقوعها بفترة وجيزة للغاية . ومن ثم فإن مصداقية يومياته تفوق مصداقية بعض الكتب الأخرى التى تعالج الجنس بصراحة مثل ذكريات كازانوفا الغرامية،وسيرة حياة فرانك هاريس .

بيير برانتوم (١٥٤٠ - ١٦١٤)

يعتبر الكاتب الفرنسي بيير برانتوم المعاصر للكاتب الايطالى أريتنو من أبذإ أدباء العالم طرا . وهو ينحدر من منطقة بيريجورد التى اشتهرت نساؤها بلبس رموز الذكورة فى شعرهن . كانت أمه البارونة دى بوردى احدى وصيفات الملكة مارجريت ملكة نافار التى ألفت مجموعة من القصص تجمع بين الفكاهة الذكية وتوابل الجنس بعنوان:« مائة قصة مرحة وبهيجة » وساعدت نشأة برانتوم على درايته الكاملة بمراسم البلاط الملكى . وبعد أن أكمل تعليمه رفض برانتوم التعيين فى وظائف كنسية مرموقة منها رئاسة أحد الأديرة وفضل الانخراط فى الحياة العسكرية حيث التحق بخدمة الجيش الأسبانى فى افريقيا وحارب فى ميدان الوغى . ولكن حادثة وقعت له فقد سقط من فوق صهوة جواده،الأمر الذى أقعده عن الحركة وجعله طريح الفراش لمدة أربعة أعوام كتب خلالها مجموعة قصصية بعنوان « حياة السيدات الجميلات » واضطر برانتوم إلى اعتزال الحياة العامة قرب

١٥٨٩ وبعدها أمضى قرابة الخمسة والعشرين سنة الأخيرة من حياته فى كتابة المذكرات الفاسقة والماجنة عن البلاط وحياة الملوك . وفى كتابه « حياة السيدات الجميلات » يروى برانتوم حكاية الزوجةالتى تسمح لعشيقها أن يفعل بجسدها ما يشاء ولكنها تحرم عليه تقبيل فمها لأنها أقسمت لزوجها ألا تسمح لغيره بتقبيله وزرأت أن الشرف يقتضى منها الوفاء بقسمها . ولهذا اشترطت على عشيقها أن يضاجعها على الطريقة الرومانية أى أن ترقد فوقه وبهذا استطاعت هذه المرأة أن تريح ضميرها،فهى الآن يمكنها أن تقسم حتى أمام قسيس اعترافها- وتكون صادقة فيما تقول - انها لم تسمح أبدا لرجل أن يعلوها .

ورغم شيوع أدب برانتوم البذىء فى البلادالأوربية فإن الترجمات الانجليزية لكتاباته تغفل ترجمة بعض أجزائها بسبب فرط بذاءتها . غير أن كتاباته تلقى ضوءا غامرا على ثقافة المجتمع الذى عاش فيه وعلى تاريخه،إلى جانب أنها تساعد علماء النفس فى استقصاء سلوك الانساء الجنسى وخاصة عند النساء . . ويتناول برانتوم فى كتابه « اغتصاب النساء » تلذذ بعض النساء عند إكراههن على ممارسة الجنس . فهن يجدن المتعة الجنسية إذا اقترنت باستخدام الرجل للعنف والقوة .

وتدور بعض قصص برانتوم الداعرة حول الأزواج الذين يقبلون عن طيب خاطر خيانة زوجاتهن لهم . يروى برانتوم قصة سمعها أثناء اقامته فى ايطاليا عن رجل من هذا القبيل شاهد شابا ففتن به . ومن ثم سعى لدى زوجته حتى تقبله عشيقا لها . ورحبت الزوجة بهذا الاقتراح . وفى أحد الأيام جاءها الشاب ليمارس الجنس معها كالعادة وكان الزوج مختبئا فى الغرفة فظهر ليفاجىء العشيق وزوجته فى ذات الفعل . وكان القانون الايطالى آنذاك يسمح للزوج فى مثل هذه الحالة أن يسفك دم العشيق . فأشهر الزوج خنجره وهدد بقتله إلا إذا سمح له بمضاجعته . ووافق العشيق على ذلك حتى ينجو

بحياته وفى مقابل أن يسمح له الزوج باستمرار علاقته بزوجته .

وفى موضع آخر يروى لنا برانتوم قصصا تدور حول السحاق وحول حفلات الترفيه التى عرفتها فرنسا فى عصر النهضة والتى استمرت حتى مطلع القرن الثامن عشر . وهذه الحفلات كان يحضرها عدد مخصوص من الرجال والسيدات ليستمتعن بمشاهدة رجل وامرأة وهما يمارسان الجنس أمام عيونهم.ولكن انجلترا المحافظة عرفت نوعا آخر من الترفيه يتمثل فى الممارسة الجنسية بين الحيوانات وخاصة بين الحصان والمهرة .

ومن الخطأ أن نظن أن بذاءات برانتوم تتوقف عند هذا الحد فهو لا يخجل من أن يصف الممارسات الجنسية التى تشمل ثلاثة أطراف فى ذات الوقت إلى جانب وصفه لاستخدام بعض السيدات للأوتاد الصناعية .

وتلقى كتابات برانتوم الضوء ليس على إباحية حياة الملوك والبلاط فحسب بل على انتشار هذا النوع من الأدب الماجن فى البلاد الأوربية فى عصر النهضة . ومن الواضح أن انجلترا رغم أنها عرفت هذا النوع من الأدب كانت أكثر تحفظا من فرنسا وايطاليا . فالمترجم الانجليزى لأعمال برانتوم استبعد من ترجماته الكثير من بذاءاته .

وقبل أن ننتقل إلى ما كتبه مارك توين فى القرن التاسع عشر بعنوان « ١٦٠١ » أو « محادثات بجوار المدفأة » وما تتسم به كتاباته من دعابة وهزل ذكى يشيع المرح فى النفوس، يجدر بنا أن نشير إلى حرص الدارسين على التفرقة بين الأدب الجنسى الرخيص والأدب الجنسى الجاد.فالأول يكاد أن يخلو تماما من الفكاهة والدعابة باعتبار أنه يصور ما يحدث فى الواقع فى حين أن النوع الثانى من الأدب بسبب اشتماله على عنصر الفكاهة من شأنه أن يمكن الكاتب من نقد مجتمعه فى فترة تاريخية معينة مثلما نجد فى أدب مارك توين وعند كثير من كتاب الفكاهة الهزليين الذين سبق ذكرهم مثل أريتنو مؤلف كتاب « نزوات » وبوجيو مؤلف « هزليات » وبرانتوم مؤلف « حياة السيدات

الجميلات » إلى جانب كتابات رابيليه ومونتانى وقصائد كثير من الشعراء الاليزابثيين الذين تناولوا الجنس بطريقة فكاهية .

مارك توين يستعيد روح العصر الاليزابيثى

أراد الكاتب الأمريكى الفكاهى الساخر المعروف مارك توين (١٨٣٥ ـ ١٩١٠) أن يسخر من المواضعات الاجتماعية ومن تأليه الناس لعلية القوم فكتب مقالا فى قالب قصصى بعنوان « ١٦٠١ » أو « محادثة بجوار المدفأة » وفيه يتخيل أن حديثا دار فى بلاط الملكة اليزابيث فى ذلك التاريخ فكانت هذه القصة الخيالية عن مدفأة ملكة انجلترا فى القرن السادس عشر الملكة اليزابيث (١٥٣٣ ـ ١٦٠٣) وزمانها هو عام ١٦٠١ وشخصياتها علية القوم فى العصر الاليزابيثى وأعظم أدبائه مثل الفيلسوف التجريبى المعروف فرانسيس بيكون والسير والتر رالى والكاتبين المسرحيين وليم شكسبير وبن جونسون إلى جانب عدد من نبيلات البلاط مثل « الليدى مارجرى » .

أما الراوى لأحداث القصة فهو ساقى الملكة الذى يقوم على خدمتها وخدمة ضيوفها واستطاع مارك توين أن يظهر مهارة فى أن يجعل كل متحدث يتكلم بالطريقة التى تتناسب مع قدرته وموهبته اللذين عرف بهما عبر التاريخ .

وقبل أن يضطلع مارك توين بكتابة « ١٦٠١ » توفر على قراءة يوميات صامويل بيبس عدة مرات . ولا غرو فى ذلك فقد كان شديد الاعجاب والحرص على محاكاتها . واستعان مارك توين بهذه اليوميات فى رسم صورة ساخرة وفكهة لفساد حياة الملوك والنبلاء فى عهد الملكة اليزابيث .

كان دافيد جراى أول من قيض له أن يطالع قصة مارك توين

فأظهر تحمسا عظيما لنشرها . وفى عام ١٨٨٠ قرأ جون هاى هذه القصة وقام بنسخ عدة نسخ منها بسبب فرط اعجابه بها . وفى عام ١٨٨٢ رأت القصة طريقها إلى النشر فى عدد محدود من النسخ الفاخرة لا يزيد على المائة وذلك عن طريق مطبعة أكاديمية الولايات المتحدة العسكرية التى كان يديرها واحد من أصدقاء مارك توين . وقام هذا الصديق بارسال بعض النسخ إلى أهم مكتبات العالم فى برلين وروما وطوكيو وغيرها . . وأيضا إلى أهم الشخصيات العامة فى السياسة والدين،ورغم أن هذه القصة تعتبر عملا مجهولا للأديب مارك توين (الذى ألقى محاضرة مجهولة فى نادى فى باريس بعنوان « بعض الأفكار الخاصة بعلم الأونانية أو القذف خارج الرحم تجنبا للحمل) فقد أعيد طبعه فى الولايات المتحدة أربعة وأربعين مرة كان آخرها فى عام ١٩٣٩ عندما قامت جمعية أصدقاء مارك توين فى شيكاغو بطبع عدد محدود من النسخ وتمت ترجمة القصة إلى العديد من لغات العالم المختلفة لدرجة جعلت بعض النقاد يذهبون إلى أن القصة معروفة خارج أمريكا أكثر مما هى معروفة بداخلها . والجدير بالذكر أن هذه القصة يتداولها الأمريكان فى وقتنا الراهن فى السر وليس فى العلن .

يبدأ الساقى فى روايته بقوله انه حدث أثناء احتدام النقاش بين أصفياء الملكة اليزابيث أن انطلقت ضرطة غير معلومة المصدر من أحد الحاضرين . ولم تغضب الملكة لذلك أو تجد فيه حرجا بل دفعها حب الاستطلاع لمعرفة المسئول عنها . قالت وهى تعبر عن اعجابها الشديد:إنها طوال عمرها البالغ ثمانية وستين عاما لم تسمع ما سمعته اليوم . والتفتت إلى السيدات الموجودات فأنكرن علاقتهن بالصوت المنبعث . وصاحت الليدى مارجرى قائلة : « لو كنت أنا صاحبة هذه الأعجوبة لما سمحت لنفسى أن أخرجها بهذه الطريقة المفاجئة وبتلك القوة التى لا مثيل لها . . عندئذ التفتت الملكة إلى الرجال فقال

اللورد فرانسيس بيكون بأسلوبه الفلسفى المميز : « هذا الدوى الهائل لا يمكن أن يصدر عن أسعاء فى مثل ضعف أمعائى . . لا شىء يتناسب مع العظمة غير الأداء العظيم . ولسوف يتضح أن هذه المعجزة لا يمكن أن تصدر عن انسان عادى فى قدراته ومواهبه . ويجىء الدور على شكسبير فيدفع عن نفسه الشبهة بقوله فى لهجة خطابية رنانة : « انى أمثل بين يدى الله العظيمتين لأعلن بملء فمى أنى برىء » . ومضى الشاعر فى أسلوبه الخطابى ليقول:ان أبواب الجحيم هى التى أخرجت هذا الصوت فقامت مدفعية السماء بهز الأرض اكبارا واجلالا له . وأخيرا لا يرى السير والتر رالى مفرا من الاعتراف بمسئوليته عن الحادث والاعتذار إلى جلالة الملكة لا لأنه فعل ما لا يليق ولكن لأنه أخرج صوتا بهذا الضعف والوهن فى الحضرة الملكية المهيبة . . ووعد باصلاح ما ارتكبه من خطأ بأن أخرج صوتا هادرا يهز الأركان .

وبعد ذلك انتقل حديث الحاضرين إلى الجنس فقال شكسبير:ان الأديب مونتانى يذكر فى أحد كتبه أن الأرامل فى منطقة بيريجرود فى فرنسا يضعن رموزا جنسية فى شعرهن . . عندئذ ضحكت الملكة من قلبها لتقول له:ان هذه العادة ليست غريبة على الاطلاق فالأرامل الانجليزيات لا يضعن مثل هذه الأشياء على رءوسهن بل بين أفخاذهن . ثم يستطرد شكسبير قائلا:ان مونتانى حدثنا عن امبراطور ذى طاقة جنسية هائلة استطاع أن يفض بكارة عشرة عذارى فى ليلة واحدة . ولكن الامبراطورة تفوقت عليه . فقد شاركها الفراش فى نفس الليلة اثنان وعشرون فارسا من أشهر الفرسان . ورغم هذا فإن هذا العدد الكبير عجز عن اطفاء ظمأها . وتعلق الليدى جرانى على ذلك بقولها:ان الخروف يفوق الامبراطور فى قدراته إذ باستطاعته فى يوم واحد أن يعاشر مائة نعجة فإن لم يجد بعد ذلك نعجة يعاشرها نراه يمارس الاستمناء .

ويوجه مارك توين دعابته اللاذعة وسخريته من شكسبير فيقول ان زوجته كانت حاملا فى الشهر الرابع عندما عقد عليها وبعد ذلك ينتقل حديث الحاضرين إلى الأدب والفن يتلو شكسبير بعض الأجزاء من مسرحيته « هنرى الرابع » و « فينوس وأدونيس » ويرى بعض النقاد أن هناك علاقة بين « ١٦٠١ » وما توصل إليه العالم النفسى المعروف سيجموند فرويد من نتائج فى التحليل النفسى . يقول فرويد فى مبحثه « الدعابة الذكية وعلاقتها بالجنس » أن النكتة البذيئة الموجهة ضد أى انسان أشبه ما تكون برغبة المرء فى أن يرى شخصا من الجنس الآخر وقد تم تجريده من كل ملابسه . وينبهناالنقاد أيضا أننا نجد عند مارك توين مانجده عند فرويد من أن مظاهر الجنس أيام الطفولة لها أثرها الواضح على المرء فى مرحلة الرشد .

●●●

مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦)

من الغريب أن نجد أن المصلح الدينى العظيم مارتن لوثر الذى بشر بالمذهب البروتستانتى لا يتورع فى كتاباته وأحاديثه عن استخدام الاشارات الجنسية والشرجية . فهو على سبيل المثال يقول ان الشيطان « يتبرز » على الانسان . وقبل وفاته بأيام قلائل قال انه رأى الشيطان خارج النافذة وقد أولاه عجزه العارى . فضلا عن أن لوثر وجد متعة فى استخدام مثل هذه اللغة البذيئة فى الهجوم على بابا روما . وهو أمر مستغرب من رجل دين ومصلح كبير فى تاريخ الانسانية بأسرها . وعلى أية حال رد عليه رجال الكنيسة الكاثوليكية بنفس اللغة البذيئة التى استخدمهاضد كنيستهم وضد رئيسها .

●●●

وقبل أن ننتقل إلى الرقابة والأدب الجنسى فى القرن الثامن عشر يجدر بنا أن نمهد لذلك بالحديث عن كازانوفا أشهر عاشق أخرجته أوربا للعالمين .

كازانوفا

اسمه بالكامل جيوفانى جياكومو كازانوفا . وهو ثمرة زواج رجل ايطالى من ابنة صانع أحذية من مدينة البندقية كانت قد هربت معه . اشتغل كازانوفا كصحفى ورجل دينى وديبلوماسى يتمتع بموهبة فذة فى ارضاء النساء من الناحية الجنسية . وقبيل وفاته عام ١٧٩٨ كتب بالفرنسية عن نفسه يقول : « قصتى قصة رجل أعزب كرس كل حياته للاستمتاع باللذة الجنسية » ضمن كازانوفا سيرة حياته فى كتاب ألفه بالفرنسية بعنوان « ذكريات » ظهر فى اثنى عشر مجلدا خلال الفترة بين ١٨٢٦ ـ ١٨٣٨ بعد ان استبعد الناشر بعض أجزائه ولا يجرؤ ناشر حتى يومنا الراهن أن يقدم على نشر هذه الذكريات كاملة .

ورغم شدة إباحيته تجنب كازانوفا استخدام أية كلمات بذيئة فى ذكرياته فهو يعبر عن فسقه مجونه بلغة أدبية مهذبة تشيع فيها الصور والأخيلة.فنحن نراه وهو يعطى اثنتين من العذارى دروسا عملية فى الممارسة الجنسية يشير إلى قضيبه بأنه « العامل الأساسى فى حفظ الجنس البشرى » ويصف فرج المرأة بأنه « معبد الحب » وولوج الذكر فى الأنثى بالتضحية والفداء . وهو يسمى ممارسة الجنس عن طريق الفم أم الخلول .

ولعل كازانوفا أول كاتب جنسى ينصح عشيقاته باستخدام موانع الحمل . وهو يزهو بأنه استطاع عن طريق خبرة لا تقل عن خمسة عشر عاما أن يجرب أسلوبا مضمونا فى منع الحمل وذلك بأنه تضع المرأة قطعة ذهبية كروية الشكل مغموسة فى مادة قلوية فى نهاية « معبد الحب » ويبدو أن البلاد الأوربية نقلت عن المشرق وخاصة اليابان استخدام هذه الواقيات من الحمل وأن هذه الموانع انتشرت فى أوربا فى القرن الثامن عشر . وكان من عادة الداعر كازانوفا أن يقول

للفتيات والعذارى اللاتى يضاجعهن انه يهتم بالحفاظ على شرفهن وسمعتهن أكثر من اهتمامه بالاستمتاع بجمالهن ولهذا ينصحهن باستخدام الكرات الذهبية وخاصة بنات العائلات الطيبة الفقيرة . وكان بهذا يضرب عصفورين بحجر فهو من ناحية يدرأ عنهن الحمل والعواقب الوخيمة ومن ناحية أخرى يكافئهن دون أن يسبب لهن أدنى حرج بكرة الذهب الخالص التى يمكن الانتفاع بها . وعند نهاية حياة التهتك التى عاشها اعترف كازانوفا انه لم يشعر بالخجل مطلقا من كتابة ذكرياته . وهو يقول عن نفسه انه عاش كفيلسوف ويموت مؤمنا بالديانة المسيحية .

الاباحية فى جامعة اكسفورد العريقة

وقعت أول محاولة يمكن تتبعها لنشر الأدب الجنسى الفاضح فى انجلتراعام ١٦٧٤ فى كلية أول سولز **ALL Souls** بجامعة اكسفورد العريقة . فقد أقدم بعض أعضاء هيئة التدريس فى هذه الكلية على طبع سونتات الكاتب الايطالى الاباحى أرتينو مع الرسوم التوضيحية التى رسمها رومانو لأوضاع المضاجعة الجنسية وانتهز بعض الأساتذة فرصة غياب عميد كلية كرايست آنذاك وهو الدكتور جون نيل المسئول عن مطبعة الجامعة لطبع الكتاب سرا . ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان كما يقول الدكتور همفرى بريدو فقد ظهر لهم العميد فى المطبعة فجأة ليرى أن بعض أجزاء الكتاب تم طبعه . فجن جنونه وثارت ثائرته وهدد بطرد جميع المسئولين عما حدث وأمر بتدمير الأجزاء المطبوعة .





الفصل الثانى

الرقابة فى القرن الثامن عشر

الفوضى تعيش :

يتضح لنا من ظهور كتاب ريد الاباحى « البكارة وأمراض الطاعون الخمسة عشرة » أن انجلترا فى أوائل القرن الثامن عشر لم تكن تعرف أية قوانين لمعاقبة نشر كتب الجنس المكشوف.والجدير بالذكر أن مثل هذه القوانين لم توجد دفعة واحدة بل استنها المشرع الانجليزى على مراحل .

أدموندكيرل

بدأت المرحلة الأولى فى سن التشريعات الخاصة بالجنس فى انجلترا عندما ظهر كاتب أفاق اسمه أدموندكيرل كاد تاريخ الأدب أن يطويه فى صحائفه لولا أن الشاعر الكبير الكسندر بوب هجاه فى قصيدته المعروفة بعنوان « الدانسياد » (أى البلداء) . لم تكن انجلترا آنذاك تعرف حقوق التأليف أو قوانين القذف أو البذاءة الجنسية ومن ثم عاشت الفوضى وضربت أطنابها فى عالم الطباعة والنشر ـ وتفشت السرقات الأدبية والاحتيال وأصبح عالم الأدب غابة يسودها النصابون والمحتالون أمثال كيرل .

ولد النصاب الموهوب أدموند كيرل عام ١٦٧٥ ومات عام ١٧٤٧ وظل يتربح من الأدب المكشوف لمدة أربعين عاما.والذى لاشك فيه أن اباحية هذا الرجل وقدرته على الحيل والخداع واستغلاله البشع لمجهودات المأجورين من حملة القلم فاقت كل التصورات . غير أنه لاسبيل الى أنكار ما أظهره هذا الرجل من موهبة وحماس صادق للأدب واهتمام حقيقى أحيانا بالابحاث والدراسات الجادة .

وبدأ أدموند كيرل حياته بالتكسب من نشر محاكمات الزانيات والعاهرات وممارسى الشذوذ الجنسى بين الذكور . فضلا عن أنه قام بترجمة بعض الكتب الفرنسية البذيئة ومنها « عرض الخصى » (١٧١٨) . وهذا الكتاب يطرح مجموعة من الأسئلة حول حياة المخصيين الجنسية . ان هؤلاء المخصيين يشنفون آذان الناس بغنائهم الجميل فى دور الأوبرا فماهى حياة هؤلاء المساكين الجنسية ؟ ! .

وفى عام ١٧١٩ أصدر أدموند كيرل كتابا ترجمه أحد أعوانه عنوان . « الجراح فاعل الخير » أصاب نجاحا عظيما وأعيد طبعه سبع مرات وكان سببا فى وقوع كيرل فى المشاكل واحتدام الخلاف بينه وبين نفر من المؤلفين والكتاب . وكتاب «الجراح فاعل الخير» ترجمه من اللاتينية لبحث عن الأمراض التناسلية وأثر الضرب فى المصابين بها قام بتألفه بروفيسور المانى اسمه جوهان هينريخ مينوم (أوميبوميوس) أستاذ الطب باحدى الجامعات الألمانية فى القرن السابع عشر . وقام بترجمة الكتاب (الذى نشره كيرل) الى الانجليزية أحد أعوان كيرل وهو طبيب اسمه الدكتور سيويل من عائلة طبية وشاعر وكاتب مسرحى تلقى تعليمه فى أرقى معاهد العلم فى انجلترا (وهما كلية ايتون وجامعة كامبريدج) قبل تخرجه فى كلية الطب فى جامعة أدنبرة باسكوتلندا ولاشك أن فشل هذا الرجل وعدم اقبال الزبائن على عيادته دفعاه الى أن يصبح عميلا لكيرل . ولم تمضى سنوات قلائل حتى مات هذا الطبيب فى فقر مدقع ودفن فى مقابر الفقراء .

والغريب أن ترفع قضية آنذاك ضد كاتب « الجراح فاعل الخير » وليس ضد ناشره كيرل ، الأمر الذى يدل على عدم وجود أية قوانين للنشر واضحة فى مطلع القرن الثامن عشر. وقبل أن نعالج هذا الموضوع على نحو مفصل يجدر بنا أن نذكر أن كتاب « الجراح فاعل الخير » يتضمن بعض المعلومات المغلوطة والكاذبة حول الأمراض التناسلية وكيفية علاجها عن طريق بعض الوصفات والعقاقير التى كان كيرل يبيعها فى دكانه لزبائنه .

وعندما وجد أدموند كيرل أنه يتعرض بسبب « الجراح فاعل الخير» للهجوم عليه نراه يكشف النقاب عن الظروف التى دفعته الى نشر هذا الكتاب الذى استطاع أن يثبت أنه مرجع علمى وليس كتابا فى الأدب المكشوف . . وتتلخص هذه الظروف فى الموت المبكر الذى داهم رجلا يدعى بيتر مواتوه الذى توفى فى بيت دعارة فى فليت ستريت فى لندن عقب ممارسته للجنس على نحو شاذ مستمتعا

بالضرب أثناء ممارسته له . وأنكر كيرل أن هدفه من نشر الكتاب هو الجنس الفاضح . والجدير بالذكر أن مواتوه الذى توفى فى بيت الدعارة كان يتمتع بالموهبة الأدبية فإليه يرجع الفضل فى ترجمة أعمال رابيليه الى الانجليزية . والقت الشرطة القبض على صاحبة بيت الدعارة وابنتها ولكن المحكمة برأت ساحتهما بناء على دفاعهما عن نفسيهما بالقول ان الرجل مات أثر نوبة فاجأته ولكن الرأى العام الانجليزى آنذاك ساده اعتقاد أن موته جاء نتيجة ممارسة ماسوكيه خاضها بمحض ارادته تتلخص - كما أسلفنا - فى استمتاعه بالجنس المصاحب للضرب .

قصة الشاعر الكسندر بوب مع كيرل

اغتاظ الشاعر الكبير الكسندر بوب من أدموند كيرل بسبب وقاحته وسطوه على قصائد الغير وانتاج قرائحهم دون احم أو دستور فدخل فى ملاحاة عنيفة معه . ومما زاد من سخط بوب عليه أن هذا المحتال اتهمه بسرقة مجموعة أشعاره المعروفة بعنوان «قصائد البلاط» أراد بوب الوقيعة به فاحتال عليه بأن دعاه الى شرب زجاجة خمر فى احدى حانات فليت ستريت دس له فيها دواء يسبب القىء . واستمتع بوب بمنظر غريمه وهو يتلوى ويتوجع نتيجة تناوله هذا الدواء وكتب هجائية بهذه المناسبة يسخر فيها من منظر غريمه الذى اضطره القىء الى ترك الحانة والعودة الى بيته.ثم الف الشاعر الكسندر بوب كتيبا صغيرا كرر فيه الهجوم على كيرل . ولم يكتف بوب بهذا بل الف فيما بعد عنه نبذة تحمل هذا العنوان الطويل التالى : قصة غريبة ولكنها حقيقية تروى كيف أن أدموند كيرل بدافع الرغبة غير العادية فى الحصول على المال ذهب الى زفاف تشارنج وتحول عن الديانة المسيحية على أيدى بعض اليهود المرموقين وكيف جرى ختانه ودخوله الى عالم الأسرار . ورغم أن تحوله الى اليهودية ليس بالأمر اليقينى فانه من المؤكد أن هذا النصاب أصبح فى آخر أيامه من أشد المدافعين عن الكنيسة الانجليزية وأنه نذر قلمه للذود عنها باعتبار هذا وسيلة للتكسب

والمتاجرة وبطبيعة الحال لم يقف كيرل السفيه الطويل اللسان مكتوف اليدين أمام هذا الهجوم عليه فرد عليه بهجوم قاذع مسموم راج بين القراء ودر عليه الربح الوفير.

قصة الروائى دانييل ديفو مع كيرل :

وأيضا أثار كيرل حفيظة الروائى الانجليزى المعروف دانييل ديفو مؤلف رواية « روبنسون كروزو » فنشر ديفو مقالا غفلا عن الامضاء فى « المجلة الأسبوعية » وصفه فيه بأنه تعس حقير وانسان مفضوح وكريه وأن منظره ينم عن التهتك وأن صوته يعكس كل البذاءات التى يزخر بها دكانه.ويستنكر ديفو ان إدارة البريد تسمح لهذا الرجل بنشر الاعلانات عن كتبه الداعرة لقاء حفنة من الشلنات ، فضلا عن انه اتهم كيرل بأنه استطاع فى وقت قصير أن يغرق الأسواق الانجليزية بكتب فاضحة تفوق فى عددها كل ما تم نشره فى جميع أرجاء انجلترا على مدار ثلاثين عاما . وفى هجومه على كيرل استحدث ديفو تعبير « مذهب الكيرلية » لوصف نذالة هذا الوغد وانحطاطه ، وعبر ديفو عن بالغ دهشته من السماح بتداول « الكتالوج البشع » الذى ألفه كيرل فى بلد من المفروض انها تغار على دينها .

واغتنم كيرل فرصة هجوم ديفو عليه ليرد اليه الصاع صاعين فى كتاب صغير أسماه « عرض لمذهب الكيرلية » ولم يكتف كيرل بالدفاع عن نفسه وعن تصرفاته بل انتهز هذه الفرصة المواتية لعمل دعاية وقحة لترويج كتبه الأخرى التى تفوق « الكتالوج البشع » فى سوء سمعتها مثل كتابه عن طلاق اللورد اسكس الذى نشر بعنوان « حالات العجز الجنسى والطلاق » وفى صفاقة متناهية تباهى كيرل بأنه استمد مادة هذا الكتاب من التقرير الأصلى الذى قام بإعداده من باب الحرص على المصلحة العامة رجل رفيع الشأن هو الدكتور جورج أبوت كبير أساقفة كانتربرى آنذاك . وكذلك يسخر كيرل من ديفو لاعتراضه على ترجمة أحد معاونيه الدكتور جورج سيويل لكتاب ميبوميوس عن الأمراض التناسلية على أساس ان جهل ديفو بالطب

جهل مطبق ومن ثم فليس له حق فى أن يفتى فى أمور لا يفقهها. وهكذا استطاع كيرل بصفاقته أن يخرس لسان ديفو. الأمر الذى شجع مذهب الكيرلية على الانتشار لعشرات الأعوام.

كيرل يعمل جاسوسا :

استطاع كيرل بوقاحته أن يخرس ألسنة منتقديه وأن يقنع الناس ان كتاب « الجراح فاعل الخير » عمل علمى فى المقام الأول ، وأراد أن يضمن لنفسه الحماية من أعدائه وشانئيه فاشتغل بالتجسس لحساب واحد من أبرز السياسيين الليبراليين فى عصره هو السير روبرت والبول ، ودر عليه التجسس الربح الوفير. وظن ان حماية والبول له سوف تقيه من كل سوء فتمادى فى غيه وشجعه انتصاره على نشر ترجمة لكتابين فرنسيين من تأليف جان بوفون هما « فن القبل بكل أنواعها » و« خلية النحل الخاصة بكيوبيد أو لسعة الحب » ويتضمن هذا الكتاب الأخير مجموعة من القصائد الاباحية مثل « النبيل وغشاء البكارة » .

وفى عام ١٧٢٤ أقدم أدمون كيرل على ارتكاب حماقة دفع ثمنها غاليا . فقد نشر كتابا فاضحا بعنوان « الراهبة فى ثوبها الفضفاض » الذى كان السبب المباشر فى الكارثة التى حلت به .

القضاء الانجليزى عاجز :

كان كتاب « الراهبة فى ثوبها الفضفاض » ترجمة عن الفرنسية لكتاب فاضح مجهول المؤلف نشره رجل دين اسمه الأب بارين فى القرن السابع عشر بعنوان « فينوس فى الدير» أو الراهبة فى قميص نومها » وعندما باع كيرل فى متجره نسخة من هذا الكتاب المترجم الى أحد المواطنين بادر هذا المواطن بتقديم شكوى الى وزير الدولة اللورد تاونز هند ضد الكتاب وضد بعض مؤلفات كيرل الأخرى وهى « مبحث فى الضرب » و« فى مدح السكر » و« ثلاثة قصائد جديدة » و« الكشف الكامل عن أسرار الأجيال البشرية » وكعادته أسرع كيرل بالدفاع عن نفسه عن طريق نشر كتاب يحمل العنوان التالى :

« الدفاع المتواضع لأدموند كيرل بائع الكتب والأدوات المكتبية فى لندن بشأن مؤلفاته الخمسة المشكو فى حقها لوزير الدولة » ولم يكن هذا الدفاع متواضعا على حد زعم صاحبه كما انه لم يكن أقل فى صفاقته من رده على دانييل ديفو .

وفى مارس ١٧٢٥ بدأت الكوارث تتلاحق على رأس كيرل فقد ألقت السلطات القبض عليه بتهمة نشر كتابى « فينوس فى الدير أو الراهبة فى ثوبها الفضفاض » وترجمة كتاب ميبوميوس عن الأمراض التناسلية . ورفضت السلطات الافراج عنه حتى شهر يولية من العام المذكور .

وأنكر كيرل انه ناشر كتاب « فينوس فى الدير » وقال انه مجرد بائع كتب باع نسخة منه لأحد الزبائن . وفى نوفمبر من نفس هذا العام استدعته محكمة وستمنيستر للمثول أمامها ، واضطرته المحكمة للاعتراف بأنه الناشر لهذا الكتاب ولكنه بناء على نصيحة محاميه دافع عن نفسه قائلا: انه ليس هناك فى نشر « فينوس فى الدير » أى انتهاك للقانون واستشهد على ذلك بالسابقة القضائية التى برأت ريد من تهمة العمل الفاضح عندما نشر كتابه « البكارة وأمراض الطاعون الخمسة عشر » ثم دعم دفاعه بقوله انه سبق لناشر آخر يدعى هنرى رودس أن نشر عام ١٦٨٣ كتاب « فينوس فى الدير » ولم تتخذ ضده أية اجراءات قانونية ، أما عن ترجمة كتاب ميبوميوس عن الأمراض التناسلية فهو مبحث طبى وليست هناك أية مادة فى القانون تحظر ترجمة ونشر الأعمال الطبية .

ورد المدعى العام السير فيليب يورك على ذلك بقوله: انه يصر على ان أدموند كيرل انتهك القانون لأنه بنشره هذه الكتب يقوم بإفساد رعايا جلالة الملك ويخرق سلام الملك، فالسلام يشمل استتباب النظام والحكومة ، ومن الخطأ أن نظن أن استخدام العنف هو الوسيلة الوحيدة للاساءة الى السلام فمن الممكن تقويض هذا السلام فى الأحوال التالية :

١ ـ عن طريق أى عمل يوجه ضد الحكومة المدنية .
٢ ـ أو الاتيان بأى عمل ضد الدين .
٣ ـ أو الاتيان بأى عمل من شأنه أن يقوض أخلاق رعايا جلالة الملك .

ومن ثم ينبغى النظر الى مثل هذا العمل على انه جرم عام وليس خاصا . ولهذا فإن القانون المدنى يفرق بين الجرم العام ويعاقب عليه، والجرم الخاص فلا يعاقب عليه . فالفرد إذا ارتكب فاحشة الزنا لا يعاقبه القانون، فى حين انه يعاقب على فتح بيوت للدعارة .

وتأجل نظر القضية لمزيد من الدراسة ، وأفرج عن كيرل بكفالة ولكن ريمة سرعان ما عادت الى عادتها القديمة فبمجرد الافراج عنه نشر عملا فاضحا آخر بعنوان « قضية الغواية : الاجراءات الأخيرة التى اتخذت فى باريس ضد القس أبيه دى ريه لقيامه باغتصاب مائة وثلاثة وثلاثين عذراء مكتوبة بقلم القس نفسه » ولكن قبل أن نسترسل فى عرض ما حدث يجدر بنا أن نتتبع موقف القضاء الانجليزى من كتابه « فينوس فى الدير » وكتبه الداعرة الأخرى التى كانت السبب المباشر فى تقديمه الى المحاكمه . لقد اتفق القضاة باستثناء واحد منهم على ان كتابات كيرل مفسدة للأخلاق . ولكنهم اصطدموا بعُدم وجود نصوص فى القانون الانجليزى يمكن الاستناد اليها فى إدانة مؤلفها ، واستغل محامو المتهم هذا الوضع فذهبوا الى انه ليس من صلاحية المحاكم المدنية النظر فى مثل هذه المسائل حيث انها من صميم اختصاص المحاكم الكنسية .

ورغم اقتناع المحكمة ان من واجبها النظر فى قضايا المطبوعات والنشر فإن عدم وجود نص فى القانون المدنى أربكها وأوقعها فى حيص بيص ، الأمر الذى أعطى المتهم فرصة ذهبية للنجاة بجلده ، وخاصة لأنه سبق للقضاء الانجليزى أن وقف مكتوف اليدين أمام كتاب ريد الفاضح « البكارة وأمراض الطاعون الخمسة عشر » وهو الأمر الذى اضطر المحكمة للافراج عنه بكفالة كما أسلفنا وعدم اصدار أية أحكام

ضده ، ولكن هذا كان كافيا لتلقينه درسا فى حسن السير والسلوك لبعض الوقت ، وتوخى كيرل الحذر فآثر أن يتراجع وينشر اعتذارا فى الصحف وأعلن توبته وتعهد بالامتناع عن نشر ما يسىء فى المستقبل ، والعجيب فى أمر هذا التائب انه لم ينس فى بيانه عن اعتزامه اعتزال الكتابة والذى ودع فيه جمهوره من القراء أن يذكر ان له كتابين تحت الطبع يوشكان على الصدور أولهما ذلك الكتاب الذى سبق أن أشرنا اليه بعنوان « قضية الغواية » الذى قام روجر بترجمته من اللغة الفرنسية ، وثانيهما ـ وهو الأخطر والأجل شأنا ـ كتاب يحتوى على قذف سياسى بعنوان « مذكرات جون كير » واقتنصت المحكمة فرصة نشره لهذا القذف السياسى فأمرت بإعادة القبض عليه ومحاكمته وفى نوفمبر ١٩٢٧ أصدرت المحكمة هذه المرة حكما بإدانته ليس بتهمة البذاءة أو تقويض السلام التى لم تثبت عليه بسبب قصور النصوص القانونية ولكن بتهمة التشهير والقذف السياسى ، وتجنب القضاة هذه المرة الخوض فى مناقشات الجوانب القانونية حتى لا يدخلوا فى المتاهات التى سبق لهم أن دخلوا فيها وقاموا بتوقيع غرامة قدرها نحو ثلاثة وثلاثين جنيها استرلينيا بسبب كتاباته البذيئة وغرامة مالية أخرى على قذفه السياسى فضلا عن الحكم عليه بالوقوف لمدة ساعة فيما يسمى بالمشهرة أى عرض المذنب للفرجة أمام الجمهور. والمشهرة عبارة عن آلة خشبية للتعذيب توضع فيها يد المذنب ورأسه للتشهير به وتحقيره أمام الملأ .

وفى يوم ٢٣ فبراير عام ١٩٢٨ اجتمع الناس فى تشارنج كروس ليشاهدوا أدموند كيرل فى قفصه الخشبى المعروف بالمشهرة ، وكان من حق جمهور المشاهدين أن يقذفوه بالطماطم والبيض الفاسد وبكل شىء تصل اليه أياديهم فيما عدا الحجارة . وتفتق ذهن كيرل عن حيلة استطاع أن يدرأ بها اعتداء الناس عليه . كان كيرل يدرك شدة تعلق الشعب بالملكة آن التى وافاها الأجل المحتوم ، فأحضر ملاءة واسعة كتب عليها (أيها السادة ، ان جريرة الرجل الماثل أمامكم هى

اظهار حماسه المفرط لذكرى الملكة آن ملكتكم الحبيبة التى رحلت عنكم) وبهذا تمكن هذا الرجل المخادع من أن يستدر عطف الجمهور عليه الذى انطلت تلك الحيلة الماكرة عليه فقام بحمايته من أية محاولة لايذائه أو الاعتداء عليه . . وعنّ لأحد الواقفين أن يمارس حقه القانونى وقذفه ببيضة فانقض عليه الجمهور وكاد أن يسحله ويفتك به .

واختتم كيرل حياته بطريقة محترمة فقد اتفق مع بعض العلماء فى جامعة اكسفورد على اصدار سلسلة من المجلدات حول الآثار والأنتيكات الانجليزية ، غير ان ذيل الكلب لا ينعدل ولو وضعوا فيه قالبا ، ففى عام ١٧٤٥ أى قبل وفاته بسنتين نشر هذا النصاب كتابين فى أدب الجنس هما « لذة الجماع » و« التاريخ الطبيعى السرى للرجل والمرأة » .

القضاء وليس الهيئة التشريعية يسن قانون الأدب المكشوف

قلنا ان قوانين الأدب المكشوف فى انجلترا لم تصدر دفعة واحدة بل صدرت على مراحل، وعرضنا لقضية أدموند كيرل باعتبارها المرحلة الأولى فى الرحلة الطويلة لسن القوانين الخاصة بأدب الجنس ، ويتضح لنا من متابعة محاكمة هذا الرجل الذى توفى عام ١٧٤٧ ان الادعاء وجه اليه عام ١٧٢٧ (أى بعد مرور تسعة عشر عاما على قضية ريد التى وجد القضاء الانجليزى نفسه عاجزا عن الحكم فيها) تهمة الأدب المكشوف باعتبارها جنحة يعاقب عليها القانون العام . ونظرا الى ان هذه التهمة لم تصل الى درجة الجناية فلم تكن هناك حاجة الى أن يصدر البرلمان قانونا بها ، الأمر الذى سهل على القضاة أنفسهم أن يدخلوا هذا التعديل على القانون ، فضلا عن ان هذا التعديل يدل على مدى التغير الكبير الذى طرأ على القوانين الانجليزية فى القرن الثامن عشر فى غضون فترة زمنية وجيزة لا تتجاوز

العقدين .

وتدل هذه القضية أيضا على ان القضاء وجد فى القذف السياسى ما هو أخطر من الكتابات البذيئة . ومن هنا تتضح لنا العلاقة الوثيقة بين الرقابة والسياسة ، وهى علاقة ظهرت بجلاء فى فرنسا أكثر من انجلترا . أضف الى هذا ان مصطلح الأدب الجنسى المكشوف يكتنفه اللبس والغموض وليست له أية دلالات واضحة ، ومما زاد من قضية كيرل تعقيدا ان بعض كتبه تشمل جوانب جديرة بالدراسة وأبعد ما تكون عن البذاءة ، فكتاب ميبوميوس له مكانته فى تاريخ الطب كما ان كتاب « فينوس فى الدير » يتضمن مبحثا يدافع عن وجهة النظر البروتستانتية حول الخلافات الدينية المحتدمة فى فرنسا . . ويبين هذا مقدار الاضطراب والتناقض الذى أحاط بصدور قوانين الرقابة منذ البداية .

رواية « فانى هيل »

تعتبر « فانى هيل » أول رواية لها قيمة أدبية تظهر فى انجلترا فى منتصف القرن الثامن عشر تحت عنوان « مذكرات امرأة تبحث عن اللذة » ثم تغير عنوانها فيما بعد الى « مذكرات حياة فانى هيل » ولا يعرف الدارسون تاريخ نشر هذه الرواية الشهيرة لأول مرة ولكنهم عثروا على أولى طبعاتها التى يرجع تاريخها الى عام ١٨٤٧ ، ثم توالت طبعات الرواية بصور مختلفة من العسير حصرها بسبب كثرتها من ناحية وتعدد أشكالها من ناحية أخرى . فقد ظهرت طبعات استبعدت منها الأجزاء الجنسية المثيرة ، ورغم ان الرواية تعتبر من أدب الجنس فإنها تخلو تماما من أية ألفاظ بذيئة أو مبتذلة .

ولد مؤلف رواية « فانى هيل » واسمه جون كليلاند عام ١٧٠٩ من عائلة اسكتلندية وتلقى تعليمه فى مدرسة وستمنستر ثم اشتغل قنصلا لبريطانيا فى الخارج ، وبعد ذلك التحق بخدمة شركة الهند

الشرقية فى بومباى . غير انه اختلف مع المسئولين فى هذه الشركة فتركها ليتنقل بين بلدان أوربا دون أن يكون له أى سند مادى،فعانى من الضنك وشظف العيش . وانتهى الأمر بالزج به فى السجن بسبب العجز عن الوفاء بما عليه من ديون . ويبدو ان ضائقته المالية دفعته الى تأليف رواية « فانى هيل » طمعا فى أن يساعده هذا على اجتناء الربح والتخلص من ديونه . ولكنه باع حقوق النشر لصاحب مكتبة فى لندن اسمه رالف جريفث نظير مبلغ زهيد قدره عشرون جنيها ، ويقال ان الناشر ربح نحو عشرة آلاف جنيه من وراء نشر هذه الرواية . ثم جاء صاحب مكتبة آخر وقام بإعادة نشر الرواية بعد أن أدخل عليها قدرا من البذاءة فى اللغة مما اضطر السلطات الى الحكم على هذا الناشر الآخر بالوقوف فى المشهرة . . وهى آلة التعذيب التى سبق أن شرحناها آنفا ، وقام المجلس الملكى الخاص باستدعاء المؤلف ليقدم تفسيرا لإقدامه على كتابة مثل هذه الرواية النكراء ، والجدير بالذكر فى هذا الصدد والذى يدل فى نفس الوقت على طراوة القوانين الخاصة بالأدب المكشوف ان المحاكم الجنائية لم تتول التحقيق معه ، وأعلن كليلاند أمام المجلس الملكى الخاص ان ضيق ذات اليد هى دافعه من وراء تأليف الرواية . . وبدلا من انزال العقاب به قام اللورد جرانفيل وهو قريب بعيد له ، وعضو من أعضاء المجلس بمنحه معاشا قيمته مائة جنيه سنويا ، الأمر الذى مكن المؤلف الفقير من الانصراف الى كتابة عدد من المسرحيات المحترمة وكتاب عن فقه اللغة ، واستطاع كليلاند بفضل هذا المعاش أن يحيا حياة هادئة فى فرنسا تحيط به مكتبته الكبيرة ويزوره من آن لآخر أصدقاؤه الأدباء يروى لهم بأسلوبه الشائق حكاياته الممتعة ويجذبهم اليه بلطف معشرة ، وتوفى كليلاند عن عمر يناهز الثانية والثمانين ، وكان يتقن عددا كبيرا من اللغات التى تحدث بها فى طلاقة . ولكن موهبته الحقيقية تكمن فى قدرته على التأليف الروائى .

تدور رواية جون كليلاند حول امرأة تدعى فانى هيل وهذه الرواية فى قالب رسالتين طويلتين نورد فيما يلى ملخصا لأحداثها كما جاءت فى الرسالة الأولى . وفانى هيل فتاة من مدينة ليفربول تنحدر من أسرة معدمة نشأت وتربت فى ملجأ للأيتام ، وعند بلوغها الخامسة عشرة من العمر جاءت الى لندن بصحبة فتاة أكثر منها خبرة وتجربة فى الحياة . ولكن بمجرد وصول الفتاتين الى لندن اختفت رفيقتها وتركتها وحيدة تبحث عن طريق مكتب وهمى عن عمل تقتات منه ، ويلحقها هذا المكتب بالعمل كخادمة عند المسز براون التى تدير بيتها للدعارة . وهناك يتعرف شاب اسمه تشارلس عليها ويتيم بحبها وتبادله الفتاة الحب فتسلم له جسدها وبكارتها عن طيب خاطر . وينقلها هذا العاشق الولهان من بيت الدعارة الى منزل خاص لتكون محظيته وينتهى بها الأمر بأن تحمل منه سفاحا . ويصل سلوك تشارلس المعوج الى مسامع والده الثرى فيرسله خارج انجلترا للاشراف على أحد مصانعه ، ويضطر الشاب الى مغادرة البلاد فلا تجد عشيقته مفرا من الاجهاض للتخلص من ثمرة بطنها ، وتمضى الأيام وتسترد فانى صحتها فتتعرف على رجل ثرى وتصبح خليلته،غير انها تكتشف علاقته بإحدى خادماته فتقرر الانتقام لنفسها من خيانته.وذات يوم يكتشف الرجل الثرى بدوره انها تخونه مع وليم خادمه فيطردها شر طردة لتعود الى حياة التشرد وتعمل مرة أخرى مومسا فى بيت دعارة تديره امرأة اسمها المسز كول .

وتروى الرسالة الثانية حياة فانى هيل فى بيت الدعارة الذى تديره مسز كول تحت ستار انها تدير متجرا لبيع القبعات ، وتعتزل مسز كول عملها الداعر فى نهاية حياتها بعد أن تكون فانى قد تمكنت من جمع ثروة صغيرة تعينها على أن تحيا حياة هانئة فى مسكن مريح ، وتزعم فانى انها سيدة متزوجة من رجل بحار يغيب عنها لكثرة رحلاته ، ويقع فى غرامها ثرى عجوز يموت بعد فترة وجيزة ويترك لها الجانب الأعظم من ثروته . ثم يعود تشارلس عشيقها الأول من

الخارج فتروى له فانى بكل صراحة ما جرى لها فى غيابه ، ويعفو عنها تشارلس لأنه كان مقيما على حبها ويعرض عليها الزواج منه فتقبل لتقضى بقية حياتها معه كزوجة محترمة وفاضلة ، وهكذا استطاعت هذه المومس رغم ماضيها الشائن أن تعيش عيشة الهناء والرغد والاحترام بين الناس .

ومع ان الرواية ـ كما أسلفنا ـ لا تحتوى فى الأصل على أية ألفاظ أو عبارات بذيئة،فإن مؤلفها استطاع عن طريق استخدامه بعض الحيل السردية أن يجعل منها كتابا مثيرا للغرائز الجنسية ، ففيه تصوير لمناظر محاولات اغتصاب وغواية وشذوذ جنسى وضروب المضاجعة المختلفة والضرب من أجل التمتع بالجنس المعروف فى علم النفس بالسادية ـ الماسوكية (وهو مرض سوف نعرض له بشىء من التفصيل فيما بعد)،كما ان الرواية تروى الأساليب التى يمكن للرجل أن يستخدمها من أجل إثارة الغريزة الجنسية عند الفتيات البكر . وهى الأسباب التى دفعت المدعى العام فى انجلترا فى الستينات من القرن العشرين الى العمل على الحصول على أمر بتدمير ١٧١ نسخة من هذا الكتاب كانت معروضة للبيع فى احدى مكتبات لندن وهو الأمر الذى يعرف قضية فانى هيل التى سوف نعرض لها بالتفصيل ، والجدير بالذكر ان أمريكا سبقت انجلترا فى فرض الحظر على الكتاب ومعاقبة الذين يبيعونه منذ زمن طويل ، ففى شتاء عام ١٨١٩ ـ ١٨٢٠ تم ضبط اثنين من البائعين فى ولاية ماساشوستس الأمريكية وهما يحرضان المزارعين على شراء الرواية فحكم على واحد منهما بالغرامة وزج بالآخر فى السجن لمدة ستة أشهر ، وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر قام جراح ايرلندى مهاجر الى الولايات المتحدة اسمه هاينز بجمع ثروة طائلة من وراء نشر رواية « فانى هيل » وبذلك يكون هذا الجراح أول من جعل من الاتجار فى أدب الجنس تجارة رابحة ، واستطاع هذا الرجل عن طريق مكاسبه الكبيرة من الرواية أن ينشر على نفقته الخاصة ما يربو على ثلثمائة كتاب فى أدب الجنس ، ولكن

رواية فانى هيل ظلت تتصدر قائمة كتب الجنس كما ظلت ممنوعة فى أمريكا حتى وقت قريب ، فقد قامت مصلحة الجمارك والبريد الأمريكية بمصادرة آلاف النسخ من هذه الرواية حتى أصدرت احدى المحاكم فى ولاية نيويورك عام ١٩١٣ حكما بالسماح بتداولها . ولعل من المفيد أن نذكر ان الكاتب الايرلندى الساخر جورج برنارد شو اقترح على الفتيات أن يقرأن رواية « فانى هيل » قبل الزواج . كما ان البعض رأى ان هذه الرواية تفوق من الناحية الأدبية رواية د . هـ . لورانس المعروفة « عشيق الليدى تشاترلى » فى كثير من المواقع .

السماحة إزاء أدب الجنس

لعله من المفيد أن نؤكد أن القانون الانجليزى العام ظل بوجه عام يتخذ موقفا متسامحا وليبراليا من أدب الجنس حتى القرن الثامن عشر . ولكن بحلول عام ١٨٢٤ أصبح هذا الأدب جنحة يعاقب عليها القانون . ورغم جو السماحة الذى شاع فى القرن الثامن عشر فلا مناص من القول إن المسئولين الانجليز نظروا فى بعض قضايا الأدب المكشوف وعلى رأسها قضية جون ويلكس الذى وجه إليه المدعى العام فى سنة ١٧٧٠ تهمة نظم قصيدة فاضحة بعنوان « مقال عن المرأة » وهى معارضة ذكية وبذيئة لقصيدة الكسندر بوب المعروفة بعنوان « مقال عن الانسان » ويبدو أن رفع قضية على جون ويلكس لم يكن بسبب بذاءة قلمه بل بسبب تطاوله السياسى والدينى على الملك جورج الثالث وحكومته،الأمر الذى جعل اللورد ساندوتيش يقرأ فى مجلس اللوردات عام ١٧٦٣ بعض الأبيات البذيئة فى معارضة ويلكس . ومن فرط بذاءتها طالب عضو فى مجلس اللوردات ـ هو اللورد ليتلتون ـ من زميله اللورد ساندوتيش أن يكف عن قراءة بقية القصيدة،ولكن أعضاء المجلس تدخلوا وطلبوا منه أن يستمر فى

القراءة . وما أن انتهى ساندوتيش من قراءة قصيدة ويلكس حتى قرر مجلس اللوردات أنها أشد ماتكون بذاءة وبعدا عن احترام الدين وتوقيره . ويبدو أن هرطقة ويلكس أساءت اليهم أكثر مما أساءت اليهم بذاءته . وبالفعل صدر أمر بالقبض عليه ولكنه نجح فى الهرب من انجلترا إلى أوربا . وليس أدل على أن البذاءة لم تشغل بال السلطات الانجليزية فى القرن الثامن عشر من أنها سمحت لكوكبة من كبار أدباء هذا القرن أمثال دانييل ديفو وهنرى فيلدنج وسموليت وسيترن أن ينتجوا أدبا فاضحا فى كثير من المواضع دون أن يفكر أحد فى قمعه ومصادرته . وسوف نلقى هنا شيئا من الضوء على هذه الكوكبة وأدبها .

١ - دانييل ديفو : (١٦٦٠ - ١٧٣١)

اشتهر ديفو فى الأدب الانجليزى بروايته الشهيرة « روبنسون كروزو » (١٧١٩) و « مذكرات فارس » (١٧٢٠) و « صحيفة عام الطاعون » (١٧٢٢) و « مول فلاندز » (١٧٢٢) و « روكسانا » (١٧٢٢) . وقد سبق لنا الاشارة إلى هجوم هذا الكاتب الكبير على أدموند كيرل وأوضحنا كيف انتصر هذا النصاب السفيه عليه وعلى كل شانئيه ومناوئيه . ولكن من الخطأ أن نظن أن كتابات ديفو لاتشوبها شائبة، فروايته المعروفة « مول فلاندز » تدور حول امرأة ساقطة تنتقل من فراش رجل إلى فراش رجل آخر ومن علاقة آثمة إلى علاقة آثمة أخرى .

٢ - هنرى فيلدنج (١٧٠٧ - ١٧٥٤)

هنرى فيلدنج واحد من أبرز الروائيين الانجليز فى القرن الثامن عشر . ويعتبر النقاد روايته « توم جونز » (١٧٤٩) تحفة أدبية رفيعة الشأن تجمع بين الفكاهة وأسلوب الملاحم . ومن أشهر أعماله أيضا

رواية « جوزيف أندروز » (١٧٤٢) . ولاتخلو هاتان الروايتان من بعض الاشارات الجنسية الفاضحة . والجدير بالذكر أن جمارك الولايات المتحدة صادرت رواية « مول فلاندرز » عند نشرها .

٣ - لورانس ستيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨)

اتسمت روايات ستيرن بالجمع بين الهزل والاباحية ومن أهم أعماله « تريسترام شاندى » التى ظهرت بين عامى ١٧٦٠ و ١٧٦٧ ورواية « رحلة عاطفية » التى ظهرت عام ١٧٦٨ والتى تدور حول جولة بين فرنسا وايطاليا . ومن المعروف أن آخر كلمة اختتم بها المؤلف ستيرن روايته « رحلة عاطفية » هى اللفظ العامى لكلمة الفرج والتى تتجنب معظم الطبعات الحديثة طباعته مكتفية باستبداله ببعض النقاط الموحية باللفظ البذىء .

٤ - توبياس جورج سموليت : (١٧٢١ - ١٧٧١)

يقترن اسم هذا الكاتب الساخر بعدة روايات أشهرها رواية « رودريك راندوم » التى صدمت بلغتها الجنسية الخشنة كثيرا من القراء عند صدورها عام ١٧٤٨ .

● ● ●

والذى لاريب فيه أنه مما ساعد على اشاعة جوالاباحية فى انجلترا فى القرن الثامن عشر أن الذين توفروا على قراءة هذه الأعمال الأدبية كانوا ينتمون إلى الطبقات الراقية . ولكن باتساع رقعة الطبقة المتوسطة المتعلمة فى انجلترا بدأ التململ الأخلاقى يظهر وارتفعت أصوات الاستنكار لأدب الجنس . ومعنى هذا أن الاحتجاج على هذا الأدب اقترن بنشأة الطبقة البورجوازية التى تعتبر من الناحية التاريخية مسئولة عما يعرف بالبيوريتانية أو التزمت الأخلاقى،ولكن احقاقا للحق لابد من الاعتراف بأن البيوريتانيين لا يتحملون مسئولية القمع

الذى فرضته الرقابة فى انجلترا على أدب الجنس . صحيح أنهم استنوا القوانين المتزمتة التى تعاقب على الزنا ولكنهم بوجه عام كانوا فى صف السماحة الفكرية وحرية التعبير، فكتاب الأرجوبتيكا الذى ألفه الشاعر البيوريتانى الكبير جون ميلتون هو أروع وأمجد دفاع فى تاريخ الأدب الانجليزى عن السماحة والحرية، الأمر الذى يجعلنا ننظر بشىء من التحفظ إلى المقولة الذاهبة إلى اقتران البيوريتانية الانجليزية بفرض الرقابة على الأدب . ومعنى هذا أن المقولة قد تكون صحيحة ولكنها صحيحة إلى حد ما .

السادية والماسوكية

السادية والماسوكية مرضان يرتبطان بالممارسة الجنسية معروفان فى علم النفس وهما وجهان لعملة واحدة . والسادية باختصار معناها التلذذ الجنسى بتعذيب شريك الفراش، فى حين تعنى الماسوكية العكس إذ أن معناها التلذذ الجنسى الذى يشعر به شريك الفراش من جراء الضرب والتعذيب .

والسادية ترتبط باسم أول من اشتهر بممارستها فى التاريخ وهو ارستقراطى فرنسى يدعى الماركيز دى ساد واسمه الأصلى دوناتيين ألفونس فرانسوا المولود عام ١٧٤٠ والمتوفى عام ١٨١٤، ولكن ظاهرة السادية موغلة فى القدم. فقد عرفها الرومان والعصر الوسيط، كما أنها انتشرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر لدرجة أن الأوربيين كانوا يطلقون عليها اسم الرذيلة الانجليزية .

تزوج الماركيز دى ساد من امرأة أخلصت له ولكنه فضل عليها أختها التى عاش معها وألف عنها رواية بعنوان « جولييت »، وبعد وفاتها عاش دى ساد عيشة ملؤها الفسق والعربدة . دخل دى ساد السجن عدة مرات واحدى هذه المرات كانت بسبب اعتدائه الشاذ بالضرب على امرأة فى السادسة والثلاثين من عمرها اسمها روزا كيلر

توجهت اليه لتشحذ منه . فأغراها باصطحابه إلى بيته حيث قام بتقييدها إلى السرير ثم أوسعها ضربا وغرز السكين فى عدة مواضع فى جسدها وصب الشمع المنصهر على جروحها الثخينة،وفيما بعد دخل دى ساد السجن مرة أخرى لاشتراكه فى مدينة مارسيليا فى حفلة ضرب وعربدة ضمت مجموعة كبيرة من المومسات أعطاهن جرعة غير عادية من منشط جنسى شديد المفعول كان السبب فى مرضهن جميعا . الأمر الذى دفعهن لتقديم شكوى ضده إلى القاضى المحلى . يقول الماركيز دى ساد فى هذا الشأن : « إن كل رجل يريد أن يكون طاغية وهو يضاجع امرأة » وفى السجن انصرف دى ساد إلى كتابة مجموعة من المؤلفات التى تصور الانحرافات الجنسية مثل « جيستين » (١٧٨١) و « مائة وعشرون يوما فى سادوما » (١٧٨٥) « وألين وفالكور » (١٧٨٨) و « الفيلسوف فى حجرة السيدات » (١٧٩٥) و « جولييت » (١٧٩٦) و « جرائم الحب » (١٨٠٠) .

أما الماسوكية ومعناها التلذذ الجنسى بالتعرض للضرب والتعذيب أثناء المضاجعة فترتبط باسم رجل نمساوى يدعى ليوبولد فون ساكر - ماسوك . ولد ماسوك عام ١٨٣٦ من عائلة نبيلة المحتد . فأبوه الذى كان رئيسا للشرطة ينحدر من عائلة أسبانية أرستقراطية استقرت فى براغ فى القرن السادس عشر . أما أمه واسمها قبل الزواج فون ماسوك فتنحدر من جذور ألمانية وروسية مختلطة . وفى طفولته وجد ليوبولد متعة فى رؤية مناظر القسوة واستعذب بوجه خاص مشاهد الاعدام . وتخيل الطفل فى أحلامه أن امرأة قاسية تضعه فى الاغلال وتقوم بتعذيبه .

وفى طفولته تعرض ليوبولد لحادثة تركت فى نفسه أثرا لايمحى . فقد كان فى زيارة كونتيسة من أقاربه . وأثناء لعبه (الاستغماية) مع أقرانه من الأطفال دخل الطفل ليوبولد غرفة الكونتيسة ليختبىء فيها وراء شماعات ملابسها . ثم دخل عشيق الكونتيسة ليمارس الجنس معها على الأريكة . وبعد وقت وجيز شاهد الطفل الكونت بصحبته

اثنان من أصدقائه يدخل الغرفة باندفاع على زوجته . فما كان منها إلا أنها نهضت لتسدد له فى وجهه لكمة قوية أفقدته توازنه . ثم أمسكت بسوط طردت به المتطفلين الثلاثة . وانتهز عشيقها هذه الفرصة السانحة ليهرب . وفى أثناء الهرج والمرج سقطت شماعات الملابس ليظهر وجه الطفل المفزوع من ورائها . فانهالت عليه الكونتيسه بلا رحمة أو هوادة ضربا بالسوط . ورغم أن ضربها له كان مبرحا فقد استشعر فيه نوعا غريبا من اللذة . ثم رأى الطفل زوج الكونتيسة يعود ليجثو على ركبتيه أمام زوجته ويطلب منها الصفح والغفران . ولاحظ الطفل أثناء هربه أن الزوجة تركل زوجها بالأقدام . فأغراه هذا المشهد بالعودة إلى الغرفة . غير أن بابها كان قد أغلق فلم ير شيئا مما يدور فيها غير أنه سمع صوت السوط وقد هوت به الزوجة على جسد زوجها وهو يئن .

وتمر الأيام ويكبر ساكر ـ ماسوك ليتخرج فى الجامعة ويصبح محاضرا فى التاريخ . ولكنه آثر أن يهجر التدريس وينصرف إلى التأليف فكتب عددا من الروايات التى تتناول الماسوكية وأهمها « فينوس ترتدى الفراء » .

تزوج ساكر ـ ماسوك مرتين وأنجب أطفالا من كل من زوجتيه . وقد رفضت زوجته الأولى أن تلبى طلبه بأن تقوم بجلده بالسوط وأوكلت هذه المهمة إلى خادمتها . ويقال إنه استطاع بعد طرد هذه الخادمة أن يقنع زوجته بأن تجلده بسوط من صنعه وضع فيه المسامير . ويقال أيضا إن هذا التعذيب فجر فيه طاقة الخلق والابداع الأدبى . وعبثا حاول هذا الرجل المريض نفسيا أن يحث زوجته على خيانته . فقد نشر اعلانا فى الصحف المحلية عن امرأة تبحث عن شاب يتسم بالحيوية والنشاط . ولكنها رفضت أن تستجيب لشذوذه وآثرت الانفصال عنه . وبعد ذلك تزوج ساكر ـ ماسوك من سكرتيرته التى يقال إنه عاش معها فى تبات ونبات وأنه كان رجلا بارا بأولاده لا يدخن التبغ أو يحتسى الخمر . كما انه كان يتمتع ببنية قوية

وبالإقدام ،فقدحارب فى صفوف الجيش النمساوى فى حرب الاستقلال الايطالية ومنح وساما تقديرا لشجاعته فى حومة الوغى . وعند موته عام ١٨٩٥ كان العالم النفسانى كرافت ـ انج قد استحدث مصطلح الماسوكية ليصف بها حالته ومسلكه الشاذ .

وتتضمن روايته « فينوس ترتدى الفراء » سيرته الذاتية وهى تدور حول زوجة قاسية تضرب زوجها بالسياط . وينتهى الكاتب فى هذه الرواية إلى رأى مفاده أن المرأة لاتعرف الحلول الوسط فهى إما طاغية متجبرة وإما ذليلة أمام الرجل.ويذهب ساكر ـ ماسوك إلى أن حاله لايسر،وأن الرجل الذى يقبل الضرب يستحق ذلك .

على أية حال لم يكن ساكر ـ ماسوك أول من سجل تجاربه الماسوكية فى قالب أدبى،فقد سبقه إلى ذلك بعدة عقود الأديب والفيلسوف المعروف جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) الذى ذكر لنا فى اعترافاته أنه فى طفولته كان يستمتع بضرب مربيته له بالسوط واجدا فى ذلك نوعا من التلذذ الجنسى . وحين لاحظت مربيته أثر الضرب اللذيذ فيه أقلعت عن عقابه عن طريق الضرب . ويعترف روسو أن هذه الانطباعات الطفولية الباكرة تركت فى نفسه أعمق الأثر ولم يمنعه غير الخجل من أن يطلب من فتياته أن يلهبن جسده بالعصى .

وفى انجلترا شاعت عادة استخدام العصا فى المنازل والمدارس وبيوت الدعارة وكعقاب ينص عليه القانون بل وفى الخدمة العسكرية والبحرية . وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر كتب الشاعر المسرحى الانجليزى توماس شادويل فى عام ١٦٧٦ مسرحية بعنوان « الذواقة للفن » . وفيها نرى عجوزا داعرا اسمه سنارل يطلب من احدى المومسات أن تقوم بضربه فتقول له المومس بامتعاض : الذى تطلبه يرضيك كثيرا ولكنه يرضينى قليلا » فيجيب بقوله :إنها عادة تأصلت فيه منذ أيام التلمذة فى مدرسة وستمنستر ولا يستطيع الفكاك منها أبدا . وليس أدل على انتشار العبْط أو الضرب بالعصا فى الحياة الانجليزية من أن كوكبة كبيرة من كبار الشعراء والكتاب الانجليز

تعرضوا له فى أيام التلمذة مثل الشعراء توماس جراى وصامويل تيلور كولريدج والجيرنول تشارلس سوينبرن والأديبين تشارلس لام ولى هنت . ولعل أكثر شاعر تأثر بالضرب هو سوينبرن،فالضرب لم يترك فيه أثرا مدمرا فحسب ولكن ترك فيه نزعة واضحة نحو الماسوكية . ومعظم ما سطره سوينبرن فى موضوع الضرب لم ير طريقه إلى النشر فى حياته،كما أن بعضه لم ير طريقه إلى النشر حتى بعد وفاته . ورغم ذلك فقد أسهم سوينبرن فى حياته ببعض الكتابات فى مجلد منشور بعنوان « من أوراق الضرب بالعصا » أشرف على جمعها رجل خبير بموضوع الضرب اسمه سانت جورج ستوق مؤلف كتاب ظهر فى أواخر الثمانينات فى القرن التاسع عشر تحت عنوان « رومانسية التأديب » والجدير بالذكر أن سوينبرن ألف رواية تتضمن سيرة حياته بعنوان « السحاق » كان قد بدأها عام ١٨٦٤ وظهرت فى العقد التالى على تأليفها وانتشرت سرا بين معارفه وأصدقائه فى السبعينات من القرن التاسع عشر .

انتشرت عادة الضرب بالعصا والسوط فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصورة وبائية لدرجة أن تكونت فى لندن هيئات ومؤسسات لممارسة الضرب كان الارستقراط وعلية القوم يلتحقون بها . ومن بينها مؤسسة كوليت للضرب التى يقال إن الملك جورج الرابع زارها مرة واحدة على أقل تقدير . . أما أشهر مؤسسات الضرب فى لندن فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فهى مؤسسة تيريزا باركلى التى أتقنت فن الضرب وبرعت فى ارضاء زبائنها من المضروبين بل انها اخترعت مقعدا أسمته باسمها وأطلقت عليه « حصان باركلى » وعليه يجلس المضروب بحيث يسهل على الضارب الوصول إلى أية زاوية فى جسده يمتعه أن يقع الضرب عليها . وهناك وصف لهذه المدرسة فى رواية منشورة عام ١٨١٠ بعنوان « فينوس أو رياضة العصى » .

ومن الخطأ أن نظن أن الضرب فى حد ذاته مدعاة للذة . فالمهم هو

أسلوب الضرب وطرائقه ومواضعه وأيضا القائم على ممارسته من السيدات الأنيقات . وكما أسلفنا تتضمن رواية « فانى هيل » التى ألفها كليلاند، وكذلك قصيدة شادويل « الذواقة للفن » وصفا لممارسات الضرب . ولعل أوسع كتب الضرب انتشارا فى العصر الفكتورى فى القرن التاسع عشر هو كتاب « رومانسية التأديب بالضرب » الذى سبق لنا الاشارة إليه. ولم يكن الضرب مقصوراً بحال من الأحوال على المدارس بل امتد إلى البيوت كما نشاهد ذلك فى الكتب التالية : « المزغزع الجديد للسيدات » « ومغامرات الليدى لفسبورت وهارى الجرىء » . وكان موضوع الضرب بالعصا للتربية والتهذيب والاصلاح (وهو فى واقع الأمر تعلة تختفى وراءها أسوأ النوازع فى كثير من الأحيان) تحتل مكان الصدارة فى أكثر الصحف والمجلات احتراما فى القرن التاسع عشر . وكثيرا ما كانت هذه الصحف والمجلات تفتح باب المناقشة كى يدلى قراؤها بآرائهم فى هذه الموضوع الحيوى والهام .

الأدب الانجليزى فى نهاية القرن الثامن عشر يتجه فجأة إلى التزمت

ظل الأدب الانجليزى ردحا كبيرا من الزمن يتمتع بقدر هائل من الحرية منذ عهد الشاعر تشوسر (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) حتى وفاة الروائى سموليت (١٧٢١ ـ ١٧٧١) . ولكنه فى نهاية القرن الثامن عشر اصابه تغير مفاجىء،فبعد الاباحة التى عرفها فى شئون الجنس أخذ يراعى خفر العذارى . ويسجل الروائى المعروف السير والترسكوت هذا التغير عن طريق حكاية يرويها لنا فى خطاباته . يقول سكوت إنه كان لوالده عمة عجوز اسمها كيث رافلستون عاشت حتى نهاية عمرها المديد متقدة الذهن تقرأ وتستمتع استمتاعا عظيما بما تقرأ . وفى أحد الأيام فاجأته عمة والده بسؤال عما إذا كان بامكانه أن

يقرضها روايات مسز إفرا بيهين التى تخوض فى شئون الجنس بحرية وصراحة . ورد عليها سكوت قائلا:إنه يعتقد ان لغة هذه الروايات ومسلك شخصياتها القريبين من لغة ومسلك المجتمع الانجليزى فى عهد الملك تشارلس الثانى لن يروقا لها.فأجابته قائلة:إنها كانت فى حياتها الباكرة أشد ماتكون اعجابا بهذه الروايات المشوقة مما يجعلها ترغب فى اعادة قراءتها . فامتثل سكوت لطلبها وأحضر لها بالفعل ربطة كتب مغلقة مكتوب عليها « خاص وسرى » وسلمها لعمة والده . غير أنها قامت فى وقت لاحق بارجاع اللفافة إليه وهى تقول له إنها وجدت أنه من المستحيل عليها أن تعيد قراءة أى من رواياتها ثم أردفت بقولها : « أليس غريبا وأنا امرأة عجوز فى الثمانين من العمر أو أكثر أن أشعر بالخجل من قراءة كتاب كان منذ ستين عاما يقرأ بصوت مرتفع على دائرة واسعة من أرقى الناس فى لندن.وتعكس هذه الحكاية التغير المفاجىء الذى طرأ على الذوق الأدبى فى انجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر . والشعب الانجليزى إبان هذا القرن كان أميا لايعرف القراءة والكتابة تتحكم فيه طبقة أرستقراطية رفيعة المستوى فى تعليمها وثقافتها . ولكنها فى أمور الجنس تسير على حل شعرها . ونظرا للململة جموع الناس من تحكم هذه الطبقة فيهم وجورهم عليهم كان من الطبيعى أن يشعر هؤلاء الناس بالاستياء من انحلال هذه الطبقة وأن ينتشر فيهم التزمت الأخلاقى وهو كما نعلم تزمت يرتبط بنشأة البيوريتانية والملة البروتستانتية ، ويرى الدارسون أن هذا التحول من الاباحة الجنسية فى الأدب إلى التشدد الأخلاقى ازاء الأدب الجنسى يتمثل فى الفرق بين فريقين مختلفين من الأدباء والكتاب ينتميان إلى أصول اجتماعية متباينة تفسر السبب فى تباين موقفهما من الجنس . ففريق الأدباء الذى يضم صامويل ريتشاردسون وأوليفر جولد سميث وصامويل جونسون يتسم فى إنتاجه الأدبى بالتحشم وعدم خدش الحياء،فى حين أن الفريق الآخر من الأدباء والكتاب الذى يضم هنرى فيلدنج وستيرن وجيبون لايرى

أدنى غضاضة فى أن يولى ظهره للحياء والاحتشام.والمثل الأعلى عند صامويل ريتشارد سون من الفريق الأول هو تلك الخادمة التى أراد سيدها أن يراودها عن نفسه فقاومته،الأمر الذى جعله يتزوجها تقديرا لعفافها وشرفها.وعلى النقيض من ذلك نرى أن المؤرخ جيبون لايرى فى الاباحة الجنسية مايعيب فهو يقول : « هل أخجل من ترجمة ما لم يخجل أسقف من تأليفه . » وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض الكتب الاباحية التى سطرها بعض الرهبان ورجال الدين المسيحى .

وهكذا يتضح لنا مما تقدم أن الارستقراطية الانجليزية لم تجد أدنى غضاضة فى الخوض فى أمور الجنس فيما أنتجته من أدب فى حين أن الطبقات المتوسطة التى قويت واشتد ساعدها فى أعقاب الثورة الصناعية هى التى اتجهت إلى التزمت الأخلاقى وأصرت على أن يتسم الأدب بالحياء والاحتشام،وارتبط هذا الاتجاه نحو التزمت الجنسى كما أوضحنا بنشأة الطوائف البروتستانتية المتطرفة مثل جماعة الميثوديست التى أسسها الزعيم الدينى جون ويسلى ومثل جماعة الانجيليين . فهذه الطوائف اتخذت موقفا عدائيا من الأدب الارستقراطى الاباحى . وحتى نتبين مقدار التغير الذى أصاب المجتمع الانجليزى فى أواخر القرن الثامن عشر نقول:إن الطوائف البروستانتية المتشددة كثيرا ما كونت جمعيات تطوعية تدعو إلى النهى عن المنكر والاستمساك بمحامد الأخلاق . والجدير بالذكر أن الملك جورج الثالث قاد بنفسه هذه الدعوة الأخلاقية المتشددة،فقد أصدر عام ١٧٨٧ مرسوما يحرض فيه شعبه على « قمع كل المطبوعات والكتب الاباحية التى تسمم عقول الشباب والناس غير الحذرين ومعاقبة ناشريها وبائعيها على حد سواء . » فضلا عن أن الداعية الانجيلى وعضو مجلس العموم وليم ولبرفورس أنشأ جمعية بهدف وضع هذا المرسوم الملكى موضع التنفيذ . وكان من بين أهداف هذه الجمعية محاربة نشر الأدب البذىء . وبعد مضى سنوات قلائل تكونت عام ١٨٠٢ جمعية أخرى تدعو للقضاء على الرذيلة امتد

نشاطها من لندن إلى كثير من المدن الأخرى ، وكان من بين أهم أهداف هذه الجمعية الدعوة إلى استنان القوانين التى تجرم نشر الكتب والمطبوعات البذيئة . يقول سكرتير هذه الجمعية فى الشهادة التى أدلى بها عام ١٨١٧ أمام لجنة الشرطة فى مجلس العموم بأن الجمعية بدأت فى عام ١٨٠٢ فى التحقيق فى تجارة المطبوعات البذيئة . واستطاعت الجمعية خلال الخمسة عشر سنة الأولى من انشائها أن تحرض على رفع نحو ثلاثين أو أربعين دعوى ضد نشر المطبوعات البذيئة وتمكنت أن تستصدر من القضاة أحكاما بالادانة . ويضيف سكرتير الجمعية أن معظم تجار المطبوعات البذيئة ليسوا من الانجليز بل من الايطاليين والأجانب .

وليس أدل على رواج تجارة الكتب والمطبوعات البذيئة من أن هذه الجمعية ذكرت فى تقريرها أنها وجدت بحوزة رجل بمفرده ألفا ومائتى مطبوع بذىء تمت مصادرتها،وأن طلبة جامعتى اكسفورد وكامبردج يقبلون على مثل هذه المطبوعات والصور البذيئة . فضلا عن اقبال بنات المدارس الداخلية عليها.وكما أسلفنا لعب ظهور الطبقة المتوسطة الجديدة دورا أساسيا وبارزا فى محاربة الأدب المكشوف والحد من نشاطه . واستطاعت الجمعية الحصول على مؤازرة كثير من القضاة وتعاطفهم مع قضيتها كما استطاعت احراز قدر ملحوظ من النجاح فى حملتها ضد الرذيلة وذلك بحلول عام ١٨١١ عندما هنأت مجلة « الأوبزرفر المسيحية » أعضاء الجمعية على تحمسهم ونجاحهم فى وضع حد لكثير من المطبوعات الفاسدة.وبالرغم من كل ما أصابته الجمعية من نجاح فقد لقيت معارضة شديدة من جانب كثير من رجالات المجتمع أمثال سيدنى سميث الذى وصفها ساخرا بأنها « جمعية تهدف إلى القضاء على رذائل الطبقة التى لايتجاوز دخل أفرادها خمسمائة جنيه فى السنة ».

وبعد أن وضعت حروب نابليون أوزارها اجتاح انجلترا سيل عارم من الأدب البذىء الذى جاءها من القارة الأوربية . الأمر الذى حفز

جمعية مكافحة الرذيلة إلى مضاعفة جهودها . ففى الفترة بين ١٨١٧ و ١٨٢٥ أقامت الجمعية عشرين دعوى فى المحاكم ضد الأدب المكشوف . وفى عام ١٨٢٤ نجحت هذه الجمعية فى ادخال بند على قانون صدر باسم قانون التشرد فى نفس العام من شأنه أن يخولها رفع قضية مستعجلة فى المحاكم ضد كل من تسول له نفسه عرض أية مطبوعات أو مواد بذيئة فى الأماكن العامة . ويقضى القانون بتغريم المذنب وحبسه لفترة لاتزيد على سنتين مع الأشغال الشاقة . وفى ١٨٣٨ أدخل تعديل آخر على القانون بحيث شملت العقوبة المشار إليها عروض فاترينات المحال . ورغم أن القانون سمح للقضاة بمصادرة المطبوعات البذيئة فانه لم يخولهم الحق فى تدميرها إلا فيما بعد فى عام ١٨٥٧ وأدى التشدد مع المطبوعات البذيئة إلى بيعها فى السر بدلا من العلانية . ولم يمنع هذا الجمعية من مواصلة نشاطها فقد أقامت فى الفترة بين ١٨٠٢ و ١٨٥٧ نحو ١٥٩ دعوى قضائية على المطبوعات البذيئة أى بواقع ثلاث دعاوى فى المتوسط كل عام . وركزت الجمعية كل اهتمامها على حظر الأدب البذىء أو المكشوف ولكنها فى عام ١٨٢٢ فشلت فى حظر رواية أدبية جنسية تولى ترويجها بائع كتب يدعى بنبو . فقد قدم هذا الرجل للمحاكمة بتهمة بيع كتب الغرام المصورة واصدار رواية فرنسية فاضحة ولكن الدفاع أثبت أن الرواية لاغبار عليها وأن ترجمتها إلى اللغة الانجليزية قد تمت منذ ثلاثين عاما وأنه يمكن الحصول على نسخة من هذه الرواية فى المكتبات العامة الأمر الذى دفع القضاة الى الحكم ببراءة المتهم .

ورغم الجهود المضنية التى بذلتها جمعية مكافحة الرذيلة فقد استشرى الأدب المكشوف فى لندن . ففى عام ١٨٤٥ وجد بحوزة تاجر واحد ١٢٣٤٦ مطبوعا بذيئا و ٣٩٣ كتابا و ٣٥١ لوحة نحاسية بالاضافة إلى كثير من المواد البذيئة الأخرى . ونحو عام ١٨١٥ كان جورج كانون أهم ناشر فى انجلترا للأدب المكشوف . وقد حكم

عليه بغرامة قدرها عشرون جنيها لنشره كتابا عام ١٨٢٨ بعنوان « مهرجان العواطف المتأججة : أو متنوعات شهوانية » . وبعد موته خلفته أرملته فى تجارة الأدب المكشوف ومن بعدها برز اسما وليم دادجنيل وجون هوتين كأهم ناشرين لهذا الأدب . وبالرغم من ادانة وليم دادجنيل والحكم عليه بالسجن فى بعض القضايا فقد دافع عنه محاموه بقولهم إنه ليس هناك دليل يمكن اقامته على أن دادجنيل كان ينوى الاتجار فى المطبوعات البذيئة التى ضبطت فى حوزته . وهى نقطة قانونية هامة كان يتعين على الادعاء التثبت منها قبل الحكم بادانة المتهم .

وقد ورد اسم الناشر جون كامبدن هوتين فى قاموس الشخصيات القومية بسبب ما أظهره من شجاعة فى نشر أول طبعة من قصائد سوينبرن المعروفة بعنوان « الأغانى والبالاد » (١٨٦٦) فى الوقت الذى تخلى ناشر سوينبرن الأصلى عنه خوفا من اتهامه بنشر الأدب البذىء . فضلا عن أنه قام لأول مرة بنشر أعمال بعض الأدباء الأمريكان أمثال ج . ر . لويل فى انجلترا . ويعتبر كتاب « تاريخ العصا » الذى ألفه القس و . م . كوبر والمنشور عام ١٨٧٠ من أهم كتب أدب الجنس المنشور على الأطلاق . كما أنه أعاد نشر قصيدة جون ويلكس « مقال عن المرأة » وكتاب « عبادة إله الجنس » الذى ألفه بين نايت إلى جانب ست نبذات عن التلذذ الجنسى عن طريق الضرب . ومن الجدير بالذكر أن نعرف أن مصير هوتين كان أسعد حالا من مصير زميله دادجيل فقد استطاع أن يهرب بجلده من رفع أية قضايا ضده رغم استنان القوانين الصارمة الخاصة بنشر أدب الجنس وخاصة قانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٨٥٧ .

والجدير بالذكر أن النصوص القانونية التى أقرها البرلمان الانجليزى للتصدى للأدب البذىء جاءت متأخرة عن القانون العام الذى تطور على يد القضاة أثناء نظرهم للقضايا . اتسم القانون البريطانى بحركته البطيئة فى مواكبة التغيرات التى طرأت على الذوق

والرأى العام.فالتغيرات الثقافية التى ظلت تتراكم فى الحياة الانجليزية فى أوائل القرن التاسع عشر لم تواكبها أية تعديلات فى القانون إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر . لقد أعطى تعديل القانون الخاص بالقذف والتشهير الصادر عام ١٨٨٨ الصحافة الانجليزية الحرية الكاملة فى نقل القضايا المنظورة أمام المحاكم بحذافيرها باستثناء قضايا الجنس البذئ والهرطقة ، ولكن القانون حرصا منه على توفير نوع من الأمان للصحافة نص على ضرورة الحصول على موافقة القاضى على رفع قضية ضد أية صحيفة بتهمة القذف والتشهير . وكانت نتيجة حجب تفاصيل قضايا المطبوعات الجنسية عن الصحافة أنه حتى الجمهور الذى يحضر محاكمات الأدب المكشوف كان يجهل الأسباب التى تحدو بالقضاة إلى توجيه تهمة البذاءة لهذا العمل أو ذاك . فلم يكن المحلفون والقضاة يتلون على الحضور الفقرات الواردة فى الكتابات موضع الاتهام . وكان السبب فى احجامهم عن تلاوة هذه الفقرات اقتناعهم أن مثل هذه التلاوة من شأنها أن تنشر البذاءة وتوسع دائرتها فى حين أن الهدف من القوانين هو العمل على الحد منها .

وحتى منتصف القرن التاسع عشر نجد أن أحدا لم يفكر فى استخدام القانون لقمع أدب الجنس الجاد،وبذلك ظلت أخلاقيات الأغنياء بمنأى عن تدخل القانون،وهذا ما قصده سيدنى سميث عندما قال ساخرا:ان جمعية مكافحة الرذيلة انشئت من أجل استئصال رذائل الأشخاص الذين لايتجاوز دخلهم خمسمائة جنيه فى العام . وبتولى الملكة فكتوريا سدة الحكم نلاحظ تغيرا واضحا فى أخلاقيات الطبقة الحاكمة.ففى حين كانت الطبقة الحاكمة فى القرن الثامن عشر لاتخجل من الانغماس فى ملذات الجنس وأطاييب الحياة، نرى أن الطبقة الحاكمة فى عهد الملكة فكتوريا تجنح نحو التشدد والتزمت الأخلاقى ، وهو الأمر الذى أثر فى تحديد المعايير التى يقاس بها الأدب . وقد لخص الكاتب الروائى الفيكتورى وليم ثاكيرى فى

عام ١٨٥٠ هذا الموقف بمناسبة نشر روايته « تاريخ بندنيس » مسلسلة فقد تعالت صيحات البعض معترضة على بذاءة بعض فقراتها،الأمر الذى دفع ثاكيرى إلى أن يكتب فى تصديره لهذه الرواية قائلا :

« بعد أن وورى مؤلف توم جونز (فيلدنج) الثرى لم يعد مسموحا لأى روائى من بيننا من بعده بتصوير الانسان على قدر مايستطيع . فقد أصبح لزاما علينا أن نكسو جسده العارى بالثياب وأن نصوره وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة متكلفة . ان المجتمع لم يعد يسمح بتصوير ماهو طبيعى فى الفن . فالكثير من السيدات يقرعننى كما أن كثيرا من المشتركين فى الجريدة التى تنشر روايتى على حلقات تركونى لأننى فى معرض قصتى وضعت شابا يقاوم الاغراء ويتعرض لأثر الاغراء فيه . وكان هدفى أن أقول أن هذا الشاب كان يملك بين جوارحه العواطف المتأججة ولكنه يملك فى نفس الوقت الرجولة والنبالة اللتين يمكننانه من السيطرة على مشاعره . انكم ترفضون ـ رغم أن هذا فى صالحكم ـ ان تعرفوا مايجرى فى عالم الواقع وكذلك ما يحدث فى المجتمع والنوادى والكليات ودور الصحف،كما أنكم ترفضون الاستماع إلى نبض الحياة وإلى الأحاديث التى تتردد على ألسنة أبنائكم . لقد حاولت فى هذه الرواية تصوير قدر من الصدق أكبر قليلا مما اعتدنا عليه . وأملى ألا يكون سوء النية والقصد دافعى إلى ذلك،وألا تكون لصراحتى أى عواقب ضارة بقرائى ».

وفى هذا الجو الواضح المحافظة ظهر اثنان من كبار رجال القانون هما كامبل وكوكبيرن لعبا دورا بارزا فى استنان القوانين المغالية والمتعسفة الخاصة بالنشر . وهى قوانين لم تعق مسيرة الأدب المكشوف وحده بل وضعت العوائق فى طريق أدب الجنس الجاد الذى يقدم مفاهيم انسانية جديدة . .



الفصل الثالث

الرقابة فى القرن التاسع عشر

بالرغم من كل ما اتسم به العصر الفيكتورى فى انجلترا إبان القرن التاسع عشر من مغالاة أخلاقية وتشدد فى أمور الجنس فإن هذا لم يمنع الأدب المكشوف من الذيوع والانتشار فى الخفاء كما أنه لم يمنع دون انتشار الدعارة سرا . ويصور مايكل سادلير مدى هذا الانتشارالواسع فى روايتيه « فانى على مقربة من ضوء الغاز » و « شروق الشمس البائس » فى تلك الحقبة الفكتورية أقبل الطلبة فى جامعتى اكسفورد وكامبردج على اقتناء أدب الجنس وقراءته . ولقيت روايات بول دى كوك ـ وهو روائى فرنسى مصاب بالشذوذ الجنسى ـ رواجا عظيماامتد الى ايطاليا والى البابا جريجورى السادس عشر الذى عبر عن اعجابه به . وفى عام ١٨٣٥ قام مارستون وكوى بانتقاء افضل اعمال كوك الروائية واصدار طبعة من ترجماتها الى الانجليزية بعد استبعاد كل البذاءات منها . والجدير بالذكر ان الانجليز ظلوا ينظرون الى الأدب الفرنسى بتشكك ويتخوفون من بذاءاته . ورغم الجهود المضنية التى بذلتها جمعيات مكافحة الرذيلة فى انجلترا فقد ظل القانون الانجليزى عاجزا عن القضاء على ظاهرة انتشار الأدب الجنسى وحتى اذا نجح القانون فى معاقبة أحد الناشرين لنشره مثل هذا الأدب فإن أرملته كانت فى كثير من الأحيان تسير على نفس الدرب .

اللورد كامبل وكوكبرن وقانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٨٥٧

كان مجلس اللوردات الانجليزى يناقش مشروع قانون لوضع القيود على بيع السموم . وتصادف فى نفس الوقت أن كان رئيس المجلس الملكى اللورد كامبل ينظر احدى قضايا الأدب الاباحى فاغتنم هذه الفرصة ليحمل حملة شعواء عليه وذهب كامبل الى أن السم الأخلاقى ـ ويعنى به الأدب المكشوف ـ أشد فتكا من الحديد

والزرنيخ وغيره من السموم . ومن ثم دعا الى ضرورة حظر تداوله وفرض رقابة صارمة عليه . وتقدم اللورد كامبل الى البرلمان الانجليزى بمجلسيه اللوردات والعموم بمشروع قانون من شأنه أن يعطى القاضى الحق فى سرعة تدمير الكتب والمطبوعات البذيئة . ولقى هذا المشروع الجديد معارضة شديدة فى البرلمان الانجليزى . وقال كامبل ليطمئن البرلمان ان القانون الجديد لن يمس بسوء أيا من الأعمال الجنسية ذات القيمة الفنية والأدبية . وحتى يقنع اعضاء مجلس اللوردات بحسن نواياه أمسك بنسخة من رواية « غادة الكاميليا » المعروفة ولوح بها قائلا انه رغم مايتضمنه هذا الأدب من افساد للأخلاق فانه لن يتخذ اى اجراء نحو حظره وانه سوف يترك أمر مقاطعته للرأى العام وترقية أذواق الناس . وذكر كامبل ان هدفه من وراء القانون الجديد هو التصدى لسيل الكتب الجنسية الداعرة التى تملأ بها فرنسا الأسواق الانجليزية .

واعترض اللورد ليند هرست على القانون المقترح وسخر منه بقوله: ان الصورة التى رسمها الفنان كوريجيو باسم « جوبتر وأنتيوب » والموجود أصلها فى متحف اللوفر تعتبر من وجهة نظر رئيس المجلس الملكى اللورد كامبل منافية للاخلاق لأنها تصور امرأة راقدة وهى عارية تماما وقد وقف بجوارها أحد آلهة الاغريق الصغار وفى عينيه نظرة اشتهاء واضحة . وخاصة لأنها فى متحف اللوفر معروضة امام أريكة تجلس عليها سيدات المجتمع الراقى اللاتى يجئن من كل انحاء أوربا لدراسة مقتنياته الفنية . وعلق جون روباك وهو عضو فى مجلس العموم بقوله الساخر ان رئيس المجلس الملكى يريد ان يغرس الفضيلة فى نفوس الناس بأوامر البرلمان ونصوص القانون.واضاف انه ليست هناك قوة على الأرض يمكنها ان تمنع رجلا يتلهف على المطبوعات البذيئة من الحصول عليها.والجدير بالذكر ان أدب الشاعر الرومانى أوفيد والمسرح المكتوب فى عهد عودة الملكية الى انجلترا لايخلو مطلقا من الكلمات النابية او البذيئة .

وعند عرض مشروع اللورد كامبل على مجلس العموم قام هذا المجلس باجراء بعض التعديلات عليه بهدف صيانة الحريات العامة ومن بينها ضرورة التثبت من وجود دليل على أن المطبوعات البذيئة معروضة للاتجار والبيع بالفعل قبل أن يكون للقاضى الحق فى أن يصدر أمرا قضائيا بتدميرها . وكان اسلوب التثبت المتبع ان يتخفى شرطى فى ملابس مدنية ويذهب الى المكتبة بزعم شراء نسخة من الكتاب المزمع مصادرته . وفى بعض الأحيان كان رجل البوليس يضايق أصحاب المكتبات دون وجه حق . فقد ظل واحد من رجال الشرطة المتنكرين يتردد ست مرات على مكتبة وهو يلح على البائع فيها ان يبيعه نسخة من أحد الكتب البذيئة التى لم تكن المكتبة تتعامل فيها أصلا . والعجيب أن المشرع الانجليزى أسقط شرط التثبت من البيع بعد مرور قرن من القانون الانجليزى عند استبداله مؤخرا بقانون آخر للرقابة فى عام ١٩٥٩ .

وابتهج اللورد كامبل ابتهاجا شديدا عندما أقر البرلمان الانجليزى مشروع قانونه الذى ظن أنه قمين بتطهير العاصمة البريطانية لندن من بؤر الفساد حيث تروج تجارة المطبوعات البذيئة . ولكن قوانين كامبل رغم تشددها لم تنجح فى استئصال الفساد .

والجدير بالذكر ان عيبا خطيرا شاب قانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٨٥٧ فقد نصب هذا القانون من أى قاض عادى حكمابيده أن يجيز أو يحظر الأعمال الفنية والأدبية وبامكانه وحده أن يقرر إذا كان المطبوع بذيئا أم لا . وظل السؤال التالى يلح على ذوى الفكر وأولى الألباب . ماهو المعيار الذى يستخدمه القاضى للحكم على بذاءة أو نظافة المطبوعات ؟

وأراد كامبل ان يهدأ من روع المتشككين والمتخوفين فى البرلمان من مشروع قانونه فتعهد بتطبيق نصوص القانون العام للحكم على بذاءة أو عدم بذاءة المطبوعات وانه لن يلجأ الى استخدام مواد القانون الجديد الا فى حالة واحدة فقط هى نشر المطبوعات التى لاهدف لها

سوى افساد اخلاق الشباب .

وذهب رئيس المجلس الملكى القديم بنواياه الطيبة ليخلفه رئيس جديد هو اللورد كوكبرن الذى تولى النظر فى عام ١٨٦٨ فى قضية مشهورة تعرف بقضية هيكلين .

واخذ كوكبرن يفسر قانون ١٨٥٧ تفسيرا ضيقا يقيد الحرية اكثر مما انتوى كامبل . فقد أضاف كوكبرن الى قانون ١٨٥٧ فقرة تفيد أنه يكفى للحكم على أن المادةالمطبوعة تفسد الاخلاق اذا لوثت عقل اية تلميذة عادية . وهو تفسير ضيق الأفق ينذر بالشر المستطير . يقول اللورد كوكبرن فى هذا الشأن « أظن أن معيار البذاءة يتمثل فى جنوح المادة المتهمة بالبذاءة الى تلويث وافساد العقول القابلة لاستقبال ماتتركه من آثار غير أخلاقية فى الذين قد تقع مثل هذه المادة فى متناول أيديهم » .

وثمة عيب خطير آخر شاب قانون ١٨٥٧ يتمثل فى الاكتفاء للحكم على بذاءة أى مطبوع بما يرد فى بعض فقراته من بذاءة دون النظر الى العمل كوحدة واحدة أو ككل متكامل .

قضية هيكلين والكونت مونتوك

قضية هيكلين التى سبق الاشارة اليها شىء منفصل تماما عن قضية الكونت مونتوك . سميت القضية الأولى باسم بنيامين هيكلين القاضى التى نظرها فى المحاكم . لم تكن هذه القضية خاصة بالأدب المكشوف على الاطلاق . بل كانت خاصة بالدفاع عن المذهب البروتستانتى . فقد طالب القاضى هيكلين استنادا الى القانون الذى استنه اللورد كامبل بتدمير كتيب اصدرته جمعية بروتستانتية متحمسة بعنوان « كشف النقاب عن سر الاعتراف واظهار انحلال الكهنوت الرومانى وشرور الاعتراف والأسئلة التى تطرح على النساء أثناء الاعتراف » ويسوق مؤلف هذا الكتيب ـ وهو رجل مجهول ـ فقرات

من الكتابات الخاصة بالكنيسة الكاثوليكية تشير الى حق كاهن الاعتراف أن يسأل المرأة التائبة أسئلة دقيقة وحساسة من شأنها أن تستثير فيه أحط الغرائز . والكنيسة الكاثوليكية لاتجد أية غضاضة فى ذلك طالما ان كاهن الاعتراف لايرضى عما تثيره اسئلته واجابات المرأة التائبة من رغبات الجسد. ولم يكن دافع تاجر الكتب الذى يبيع هذا الكتيب الدينى واسمه هنرى سكوت هو الربح بل الدفاع الحار عن المذهب البروتستانتى فى مجابهة المذهب الكاثوليكى . ورغم هذا فقد اعتبر القاضى هيكلين هذا الكتيب بذيئا وأمر بتدمير النسخ المضبوطة وعددها مئتان وخمسون نسخة . ولكن هنرى سكوت استأنف ضد الحكم الصادر وأصدر قاضى الاستئناف حكما مغايرا يستند الى أن هدف سكوت من وراء توزيع الكتاب لم يكن افساد الأخلاق العامة بل توضيح عيوب الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد . فقد استؤنف الحكم مرة أخرى لينظر رئيس المجلس الملكى كوكبرن فى القضية ويصدر حكمه الشهير بأن مادة الكتيب بذيئة ومن الجائز أن تؤثر أثرا سيئا ومفسدا على اخلاق القراء ، بغض النظر عن النوايا الحسنة لدى المؤلف أو الناشر أو الموزع .

وظل تفسير كوكبرن المتشدد سائدا فى المحاكم الأمريكية والبريطانية حتى عام ١٩٥٩ عندما صدر قانون جديد للمطبوعات البذيئة نص على النظر الى أثر الكتاب موضع الاتهام ككل وليس إلى بعض اجزائه أو فقراته البذيئة . وهذا ما سوف نعالجه فيما بعد بالتفصيل . ونكتفى هنا بالقول انه أصبح من حق الدفاع فى انجلترا ان يدافع عن أى كتاب متهم بالبذاءة على أساس ان له قيمة فنية وأدبية واستدعاء الخبراء ليدلوا بشهادتهم فى هذا الشأن . وقد جرت تعديلات مماثلة فى القانون الأمريكى كان لها أثرها الواضح عند النظر فى قضية « يولسيس » التى ألفها جيمس جويس وفى عقد الثلاثينات من القرن العشرين أى قبل تغيير قانون البذاءة بنحو عشرين عاما قام احد القضاة بتطبيق المبدأ القانونى المتزمت الذى التزم به رئيس

المجلس الملكى كوكبرن على شاعر غريب الأطوار سمى نفسه الكونت أف مونتوك واسمه بالكامل جيوفرى فلاديسلاس بوتوكى . كان بوتوكى يلبس صندلا مصنوعا من الجلد ويترك شعر رأسه يطول حتى يصل الى كتفيه . وحدث ان كان هذا الشاعر ذات يوم يسير برفقة صديق له امام محكمة الأولدبيلى الشهيرة فى لندن ووجد شرطيا قريبامنه فاستفسر منه عن عنوان مطبعة يمكنها أن تطبع له عددا محدودا من النسخ من بعض القصائد الملتهبة أو « المشعوطة » على حد تعبيره . وكان ذلك الشرطى مغرما بالمزاح العملى فأعطاه عنوان مطبعة دينية تتولى طباعة مجلة طائفة الميثوديست البروتستانتية . وبطبيعة الحال رفضت هذه المطبعة ان تطبع له قصائده الخمس التى تتكون من ترجمات رابيليه وفيرلين وبعض المعارضات الشعرية لما تضمنته بعض ألفاظها من فحش وبذاءة . واخيرا اهتدى (الكونت) الشاذ الى مطبعة ظن أنها سوف تستجيب لطلبه . ولكن رجاءه خاب. فقد قام صاحب المطبعة بتسليم المخطوط الى البوليس الذى بادر بالقاء القبض على مؤلفه والزج به فى سجن بركستون.ورغم ان عملية النشر لم تتم فقد قدم الكونت الى المحكمة فى فبراير ١٩٣٢ فحكمت عليه بالسجن لمدة ستة أشهر . وقال القاضى وهو السير ارنست وايلد فى حكمه:انه يتعين على الكونت المذكور أن يحترم القانون شأنه فى ذلك شأن غيره من المواطنين العاديين وأن كونه شاعرا لايعطيه الحق فى أن يكون بذيئا . ثم جاء الاستئناف فأيد هذا الحكم،الأمر الذى أثار سخط وحنق الشاعر الايرلندى الكبير دبليو . ب . ييتس الذى استنكر الحكم ووصفه بأنه « قاس على نحو اجرامى » ولم تقف مشاكل الكونت الشاعر عند هذا الحد . ففى أثناء قضاء مدة عقوبته فى السجن قام صديق له ـ دون استئذانه ـ بنشر بعض شواهد القبور التى تكونت من ابيات شعرية وتضمنت الفاظا بذيئة بعنوان « هنا يرقد يوحنا الوتد » وخشى الكونت الغريب الأطوار من تقديمه للمحاكمة للمرة الثانية بتهمة الهرطقة الى جانب تهمة البذاءة فسارع

بالرحيل من انجلترا الى أوربا فور اطلاق سراحه من السجن .

الشاعر سوينبرن

سبق أن أشرنا كيف أصاب الذعر ناشرمؤلفات الشاعرالانجليزى سوينبرن من جراء تفسير كوكبرن المتشدد لقانون البذاءة . . ففى عام ١٨٦٦ كاد هذا الناشر أن ينتهى من طباعة ديوان سوينبرن المعروف بعنوان « القصائد والبالاد » ولكن الخوف والفرق مالبثا ان أن أثنياه عن استكمال طباعة الكتاب وطرحه فى الأسواق . والذى حدا به الى الفزع أن الناقد جون مورلى هاجم الديوان واستنكره كما اعتقد البعض أن جريدة التيمز فى سبيلها الى رفع قضية ضد المؤلف والناشر معا . ولولا جرأة ناشر اخر هو جون هوتون على نشر الديوان لظل مجهولا لفترة من الزمان .

معاقبة برادلاف وشريكيه لنشر « ثمار الفلسفة »

كان لتفسير كوكبرن المتزمت أثره السيىء فى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى . ويتضح لنا هذا من موقف القضاء من كتاب علمى الفه طبيب امريكى ذو سمعة طيبة بعنوان « ثمار الفلسفة : مقال عن المشكلةالسكانية »وهو كتاب لايمت للاثارة الجنسية بصلةوسبق طرحه فى الأسواق الانجليزية منذ مايقرب من اربعين عاما . ويتناول الكتاب بلغة علمية مبسطة فسيولوجيا الجنس او علم وظائف الاعضاء الخاصة به . وكان لتشارلس برادلاف ناشر الكتاب شريك له اسمه تشارلس واتس .

وعندما تعرض الكتاب للمسا'لة القانونية اقنع براد لاف شريكه واتس بالتوجه الى بريستول للاعتراف بمسئوليته عن نشر الكتاب . وما أن فعل واتس ذلك حتى تم القبض عليه وتقديمه يوم ١٢ يناير

١٨٧٧ الى المحاكمة . وفى بادىء الأمر اعلن واتس انه غير مذنب لكنه عاد وغير موقفه واعترف بذنبه فحكمت المحكمة بتغريمه خمسمائة جنيه واعتبرت المحكمة ان خوض الكتاب فى تفاصيل جنسية دقيقة عمل يخالف القانون .

ثم انفصل براد لاف عن شريكه واتس ولكنه قام بالاشتراك مع شريكته الجديدة انى بيسانت باعادة كتاب « ثمار الفلسفة » فتم القبض عليهما واقتيدا فى الشوارع وقام البوليس بتفتيشهما قبل الافراج عنهما بكفالة . وقدم براد لاف طلبا كى يفصل فى هذه القضية مجلس الملكة الخاص وان تتم محاكمته أمام قاض ومجموعة خاصة من المحلفين فووفق على طلبه الذى علق عليه كوكبرن بقوله : لقد نظرنا فى امر الكتاب موضوع الاتهام ونحن نظن أنه فى واقع الأمر يثير التساؤل اذا كان كتابا علميا له اهدافه المشروعة . وعند نظر القضية قامت مصلحة البريد بممارسة سلطاتها التى يخولها لها قانون المطبوعات البذيئة وصادرت جميع النسخ المرسلة عن طريقها . اذ ان قانون مصلحة البريد (المتمثل فى البند الثانى والصادر عام ١٨٥٣) ينص على اعتبار ارسال أية مطبوعات بذيئة بالبريد (حتى ولو كانت مغطاة) مخالفة يعاقب عليها القانون . واذا ساورت مصلحة البريد أى شكوك فى اية طرود فان من حقها فتحها فى وجود صاحبها للتأكد من خلوها من اية مواد بذيئة . ويحق للمصلحة فتحها على وجه السرعة وبدون وجود صاحبها بعد الحصول على امر من وزير الدولة بذلك .

ثم تمت محاكمة براد لاف وانى بسانت يوم ١٨ يونية ١٨٧٧ واصدر المحلفون الحكم التالى : « نرى بإجماع الآراء ان الكتاب المنظور أمامنا يهدف الى افساد الاخلاق العامة . ولكننا فى نفس الوقت نبرىء المتهمين من اية دوافع فاسدة فى نشره .

وبناء عليه وقع رئيس المجلس الملكى غرامة على كل منهما قدرها مائتان جنيه وأخذ عليهما تعهدا بأن يدفع كل منهما خمسمائة جنيه على

مدى عامين . وأردف رئيس المجلس الملكى قائلا : انه كان على استعداد لإطلاق سراحهما بعد اخذ تعهد عليهما بحسن السير والسلوك لو انهما امتثلا لحكم المحلفين . ثم تم الافراج عنهما بكفالة لحين تقديمهما استشكالا على اساس الأمر الخطأ . وفى فبراير عام ١٨٧٨ سمح للمتهمين بالاستشكال الذى نظره ثلاثة قضاة هم : براموبل وبريت وكوتون . ولكن الاستشكال تناول الجوانب القانونية والفنية البحتة فى هذه القضية دون مضمونها . وفيما بعد عالج التعديل فى قانون القذف الذى اجرى عام ١٨٨٨ الثغرات التى أثار هذا الاستشكال بعضا منها . وينص التعديل المشار اليه على ضرورة ان تودع المحكمة نسخة من الكتاب موضوع القضية مع قرار الاتهام مع ذكر التفصيلات الداعية للشكوى على وجه التحديد . وهو ماتداركه قانون الاتهام الصادر عام ١٩١٥ ورغم الافراج اللاحق عن المتهمين فإن الفضيحة التى تفجرت حولهما أدت الى تمكين زوج انى بسانت من حرمان زوجته من حضانة ابنتهما لمدة عشرة اعوام . وبعد انقضاء عشر سنوات على المحاكمة الف واحد من دعاة العقلانية من زملاء براد لاف كتابا عن براد لاف جاء فيه:ان رئيس المجلس الملكى السير الكسندر كوكبرن أظهر رحمة بالمتهمين ورغبة فى ارضائهما معللا ذلك بأن هذا القاضى كان فى صدر شبابه يتصف بالانفلات الأخلاقى وعدم التمسك بأهداب الفضيلة ويتضح من الكتاب ان تحرر آراء براد لاف فى امور الجنس لم يغضب المتدينين فحسب بل اغضب ايضا كثيرا من دعاة العقلانية فى القرن التاسع عشر . لقد سار براد لاف على نفس الدرب الذى سار عليه من قبل الرواد العقلانيون من اصحاب الفكر الحر امثال وليم جودوين ومارى وولستو نكرافت والشاعر شيلى . هؤلاء الرواد اعملوا العقل فى كل شىء غير ان خلفاءهم من العقلانيين فى القرن التاسع عشر آثروا الالتزام بالمحافظة فى مسائل الجنس والاخلاق . ومن ثم فقد سببت عقلانية براد لاف فى الجنس شقاقا فى صفوف العقلانيين واصحاب

الرأى الحر الذين لا يجدون اية غضاضة فى انكار وجود الله والمناداة بالمساواة بين الطبقات ولكنهم وجدوا غضاضة فى تحرر براد لاف فى شئون الجنس .

الناشر ادوارد ترولاف

ثم أقيمت دعوى أخرى ضد صاحب مكتبة فى لندن اسمه ادوارد ترولاف أحد مريدى الكاتب روبرت دال أوين فقد أغار ممثلو جمعية مكافحة الرذيلة على مكتبة ترولاف حيث ضبطوا نسخا من كتابى أوين « الفسيولوجيا الأخلاقية » و « عائلات الأفراد والفقر القومى » وقامت الجمعية المذكورة برفع قضية ضد بائع الكتب المضبوطة . فقدم صاحب المكتبة ترولاف إلى المحاكمة مرتين ، وبرأ المحلفون ساحته فى المحاكمة الأولى ولكنهم أدانوه فى المحاكمة الثانية وحكموا بحبسه لمدة أربعة شهور ووقعوا عليه غرامة قدرها خمسون جنيها استرلينيا . ورغم أن ادوارد ترولاف كان يناهز السبعين من عمره فقد زج به فى السجن مع المجرمين العاديين ونام على تخشيبة السجن .

السير جيمس ستيفن يتنبه إلى خطر الرقابة :

كان المحلف السير جيمس ستيفن أول من تنبه إلى الخطر الداهم على الحريات الذى تمثل فى تعريف كوكبرن للبذاءة . ففى كتابه « استيعاب القانون الجنائى » المنشور عام ١٨٧٧ يذهب هذا المحلف إلى عدم وجود سند قانونى لاعتبار نشر المطبوعات المنافية للأخلاق بالمعنى الواسع جريمة يعاقب عليها القانون . فأى انسان من حقه أن يرى ما يراه فى أمور الجنس ومسائل الزواج طالما حسنت نواياه وطالما أنه يتجنب استخدام اللغة الفاحشة للتعبير عما يراه . ويقول جيمس ستيفن إن قضية ترولاف سابقة تهدد الحرية الفكرية والليبرالية الثقافية لأنها تمنح المحلفين سلطات الرقباء على المطبوعات الخاصة بالجنس بل إن جيمس ستيفن يرى انه من حق الانسان الذى خلصت نواياه أن

يستخدم بعض الألفاظ البذيئة إذا لم يكن هناك محيص عن استخدامها لتوضيح وجهة نظره . ولهذا ينصح ستيفن المحلفين بالحيطة وتوخى الحذر الشديد عند الحكم فى مثل هذه القضايا .

الناشر هنرى فيزيتللى

يتضح لنا من عرض قضيتى برادلاف وترولاف ان تعريف كوكبرن للبذاءة صار سيفا مسلطا على رقاب الناشرين وسلاحا يشهره دعاة التخلف والظلام للقضاء على حرية الفكر والابداع فى معالجة الجنس . والناشر هنرى فيزيتللى أحد ضحايا تفسير كوكبرن المتزمت للقانون . أغرم فيزيتللى بأدب المدرسة الفرنسية الواقعية وسعى إلى نشر أعمال الأديب الانجليزى لونجفيلو على أوسع نطاق ممكن . وأصدر فيزيتللى ترجمات روايات الروائى الفرنسى المعروف اميل زولا إلى الانجليزية بعد استبعاد البذاءات منها . ورغم تطهيرها فقد أثارت هذه الروايات المترجمة عاصفة من السخط والاستياء فى دوائر الأدب الانجليزى التى دأبت على التشكك فى الآداب الأجنبية بوجه عام والأدب الفرنسى بوجه خاص . ولم تتخذ الحكومة البريطانية أى اجراء ضد هذا الناشر غير أن احدى الجمعيات التى تكافح الرذيلة واسمها « جمعية اليقظة القومية » التى أسسها البروتستانتى المتعصب جون كنزيت منذ سنوات قلائل رفعت قضية عام ١٨٨٨ ضد الناشر المذكور بسبب نشره ترجمة لرواية « الأرض » لزولا . وتناولت جريدة التيمز فى افتتاحيتها هذا الموضوع فأنحت باللوم على هذا الناشر ليس فقط لنشره أعمال زولا بل أيضا لنشره روايات جابو ريوه ودى بواجوبى . وفى تصريح له هدد النائب العام بالويل والثبور كل ناشر قد تسول له نفسه اصدار كتب من هذا القبيل وتوعد بأن يكون عقابه أشد وأنكى من فيزتيللى الذى هرب فى يسر من العقاب الذى يستحقه . ولكن فيزتيللى لم يرتدع أو يرعَوِ رغم أنه كان فى السبعين

من عمره فلم يمض أكثر من عام حتى قام بتكرار الاساءة ونشر أعمال أخرى منافية للأخلاق . الأمر الذى أدى إلى الحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر ومات فيه عام ١٨٩٤ وهو رجل محطم .

بذاءات شرقية

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لعب الكاتب الرحالة ادوارد وليم لين والسير تشارلس بيرتون دورا بارزا فى اثارة اهتمام المثقفين الانجليز بعادات الشرق وآدابه . وبالنظر إلى الاحتشام الذى اتسمت به الحياة الانجليزية فى عهد الملكة فيكتوريا نجد أن الكتاب الانجليز عالجوا كتب أدب الجنس بتحفظ واضح . فعندما نشر ريتشارد بيرتون ترجمته لكتاب « ألف ليلة وليلة » المشهور فى الفترة بين عامى ١٨٨٥ و ١٨٨٦ اقتصر توزيعه على مجموعة محدودة العدد من المشتركين فيه . ورغم توالى طبعات هذا الكتاب الذى استطاع بيرتون أن يتغلغل فى روحه ـ فانه لم يصل فى شكله الكامل إلى يدى القارىء الانجليزى العادى .

وهناك أيضا كتاب شرقى آخر نعرفه فى مصر بعنوان « رجوع الشيخ إلى صباه » لم يصل إلى يدى القارىء الانجليزى العادى . وقد تمت ترجمته إلى الانجليزية عن طريق الفرنسية فى عام ١٨٨٦ بعنوان « الروض العطر » وقد ترك السير ريتشارد بيرتون قبل وفاته مسودة لترجمة هذا الكتاب ولكن أرملته قامت بتدميرها بعد موته . هذا الكتاب من تأليف شيخ تونسى اسمه محمود النفزاوى وعنوانه الأصلى « الروض العطر فى نزهة الخطر » . ولم يجرؤ المترجمون الانجليز على تقديمه إلى بنى جلدتهم فى صورته الكاملة . والكتاب يحتوى على كم هائل من المعلومات الجنسية بعضها صحيح وبعضها خاطىء منها معلومات عن أوضاع المضاجعات الجنسية المختلفة . ويذكر الكتاب أن أحد هذه الأوضاع الشائعة يتسبب فى الاصابة بعرق النسا ، وهو

أمر على قدر من الأهمية من الناحية الطبية يقول الشيخ التونسى فى مقدمة كتابه: ان كبير الوزراء سأله إذا كان كمؤلف للكتاب يشعر بالخجل. فارتج عليه القول فطمأنه الوزير ممتدحا الكتاب لأنه ضرورى ويحتوى على معلومات مفيدة لاينكرها سوى جاهل أو عدو للعلم .

كتاب الكاما سوترا الهندى

يعتبر كتاب الكاما سوترا ـ الذى ألفه رجل الدين الهندوكى فاتسيانا ـ من أهم وأقدم أدب الجنس فى العالم . والكتاب مكتوب بلغة السانكريت وقد اشترك فى ترجمته إلى اللغة الانجليزية كل من السير ريتشارد بيرتون و ف . ف . أربوثنوت اللذين نشراه عام ١٨٧٥ تحت عنوان: «كاما شاسترا أو فن الحب الهندى» . ويرجع تاريخ الكتاب إلى القرن الرابع الميلادى . وهو متوافر فى الأسواق الهندية وفى متناول يد أى انسان نظير ثمن زهيد .

ويشتمل الكتاب على دراسة دقيقة ومفصلة للكاما وتعنى اللذة الجنسية التى يعتبرها فاتسيانا أحد أهم ثلاثة أهداف فى حياة البشر . . أما الهدفان الآخران فهما الدين والمال . ولايرى المؤلف أدنى تعارض بين تحقيق الانسان لهذه الأهداف الثلاثة فهى مكملة لبعضها البعض . ويوصى كتاب «الكاما سوترا» بضرورة قيام الزواج على أساس الحب، كما أنه يلقن المرأة دروسا فى الممارسات الجنسية التى تستطيع بها الاستحواذ على قلب الرجل . ولهذا يبدو الكتاب حديثا فى معالجة المسائل الجنسية رغم مرور مايقرب من ستة عشر قرنا على تأليفه . ويمكن للرجل المتعلم فى نظر فاتسيانا أن يكتفى بزوجة واحدة ولكن من حقه أن يحتفظ بأى عدد من الجوارى والعشيقات . غير أن واجبه يحتم عليه ارضاء المرأة التى يعاشرها . يقول فاتسيانا: إن هناك أربعة وستين طريقة تساعد على الاثارة الجنسية منها العض والحك بالأظافر. والجدير بالذكر أن الكتاب عند نشره فى انجلترا كان مقصوراً

فى توزيعه على عدد ضئيل من القراء وأن أمريكا ظلت إلى وقت قريب تحظر تداوله . علما بأن تاريخ تأليف الكتاب غير مؤكد، فالبعض يذهب إلى أن صاحبه وضعه فى القرن الثالث قبل الميلاد .

هنرى هافيلوك إليس (١٨٥٩ - ١٩٣٩)

عندما قارب القرن التاسع عشر على الانتهاء صار وضع أدب الجنس أكثر سوءا عما كان ذى قبل وخاصة بعد تقديم الأديب الكبير أوسكار وايلد إلى المحاكمة عام ١٨٩٥ بسبب ممارسته للشذوذ الجنسى . وأصبح الناشرون الانجليز يتوجسون خيفه من نشر أدب الجنس . فعندما أصدر ادوارد كاربنتر كتبا بعنوان « الحب لنفس الجنس » ارتعدت فرائص ناشره ورفض تنفيذ عقد يلزمه بنشر كتاب آخر لكاربنتر بعنوان « الاتجاه نحو الديموقراطية » . والجدير بالذكر أن كتابه « الحب يصل إلى سن الرشد » (١٨٩٦) يتضمن مفاهيم ليبرالية وانسانية عن الجنس ساعدت على تنوير عقول عامة القراء فى مشارف القرن العشرين .

وقبل انبلاج فجر القرن العشرين تعرض كتاب علمى بالغ الأهمية عن الجنس ألفه هافيلوك إليس بعنوان « دراسة فى علم النفس الجنسى » للحظر دون أن يشفع للكتاب انه مرجع علمى له وزنه أو لصاحبه انحداره من عائلة كريمة ، الأمر الذى يلقى ظلالا كثيفة على القوانين والتشريعات والقضاء القائم آنذاك .

عاش هافيلوك إليس منذ نعومة أظافره حياة مترفة رغدة فقد أخذه أبوه عام ١٨٦٦ وعمره لايتجاوز السابعة فى رحلة حول العالم على نفس السفينة التى يعمل قبطانا بها وكانت والدته من طائفة الانجيليين المتشددين . فارتياد المسرح واحتساء الخمر فى نظرها حرام . ولكن تزمت الأم لم يمنع الأب من احتساء الشمبانيا احتفاء بمجىء هافيلوك عندما علم بمولده أثناء رحلته إلى سنغافورة .

التحق هافيلوك فى طفولته بمدرسة صغيرة تعلم فيها الرقص الذى رأى أنه هام فى حياة الانسان . وتجلت طبيعته الهادئة الوديعة المسالمة منذ طفولته.فقد عاد فى يوم من الأيام إلى أمه و.رقبته جرح غائر ألحقه به أحد أقرانه وتساءلت أمه المنزعجة إذا كان قد كال لقرينه الصاع صاعين فرد عليها بالنفى قائلا إنه لو فعل ذلك لكان لايقل سوءا عن زميله . وبعد ذلك التحق الصبى بمدرسة لغات حيث تعلم الفرنسية والألمانية وظل فيها حتى الثانية عشرة من عمره . وكان اتقانه الباكر للغات الأجنبية سببا فى نجاحه واتقانه لعمله فى حياته اللاحقة . فعندما شرع فى دراسة الجنس على أسس علمية لم تكن المراجع الخاصة بهذا الموضوع متوافرة باللغة الانجليزية . ولم يترجم إلى هذه اللغة سوى القليل منها . غير أن هذه الترجمات كانت فى العادة تفتقر إلى الدقة والسلامة .

وفى الثانية عشرةمن عمره تلقى هافيلوك تعليمه فى مدرسة داخلية بقى فيها حتى السادسة عشرة حيث أظهر استعدادا وميلا للعلم وعزوفا عن ممارسة الرياضة . وبسبب تربيته الدينية المحافظة أظهر فى شبابه ايمانا بالواجب والدين والله . وعند بلوغه السادسة عشرة من عمره بدأ حب استطلاعه للجنس يتفتح . غير أنه لم تربطه أية علاقات بالبنات كما أن الفساد الذى يسود المدارس الداخلية لم يتطرق إليه . أضف إلى ذلك أن قراءاته فى تلك الفترة من حياته كانت تقليدية .

حياته فى استراليا

وعندما ألمت به فى شبابه أزمة صحية سافر مرة أخرى على ظهر سفينة والده المتجهة إلى استراليا . وانصرف فى خلال هذه الرحلة الطويلة إلى القراءة بنهم شديد . وفقد ايمانه بالدين تحت تأثير اعجابه بالشاعر الملحد شيلى . ثم توفر على قراءة الشاعر سوينبرن ولكن روح

سوينبرن الثائرة لم تحرك فيه ساكنا أو تترك فيه أثرا . وتأثر هافيلوك بقراءة رابيليه الذى علمه عدم التقيد باللغة اللائقة والتعبير المحتشم . وأثناء رحلته إلى استراليا صادفته أهوال تشيب لها الولدان . ولكنه تغلب عليها بشجاعته وهدوء أعصابه . فقد هبت عاصفة عاتية على السفينة دمرت بعض معداتها وأثاثها واقتحمت أمواج البحر الكبائن فغمرتها . ولو أن هافيلوك وأبوه كانا آنذاك داخل كابينتهما لماتا غرقا . ولم يعلق الشاب على هذا الخطر الداهم بأكثر من قوله : « هل يحدث هذا كثيرا يا أبي ؟ » وعندما وصلت السفينة إلى مدينة سيدنى باستراليا لم تكن صحته المعتلة تسمح له بالسفر إلى كلكتا فتركه أبوه فى استراليا لحين العودة إليه من الهند،ولكن هذه العودة تأخرت كثيرا فبقى الشاب فى استراليا أربعة أعوام . الأمر الذى اضطره إلى كسب رزقه بالعمل فى التدريس . وفى بلاد الغربة عاش الشاب وحيدا بلا أهل أو خلان . وفى استراليا بدأت الهواجس الجنسية تؤرقه بعد أن قرأ كتاب برانتوم السالف الذكر « حياة السيدات النبيلات » وفى عام ١٨٧٥ كان الشاب هافيلوك يستظل بشجرة مزروعة فى فناء المدرسة التى يقوم بالتدريس فيها عندما اتخذ أخطر قرار فى حياته وهو أن يكرس حياته لدراسة موضوع الجنس الذى أرقه وحير قلبه حتى يجنب الأجيال القادمة من الشباب أن تعانى ما عاناه . ولكنه لم يتمكن من الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه إلا بعد انقضاء خمسين سنة وذلك عندما نشر المجلد السابع الثقة من كتابه « دراسات فى علم النفس الجنسى » . وفى سيدنى باستراليا كان من حظه أنه عثر على نسخة من كتاب هام فى الجنس ألفه جورج درايزدال ونشره لأول مرة بعنوان « الدين الفيزيقى والجنس الطبيعى » عام ١٨٥٤ . ورغم ما لقيه صاحب هذا الكتاب من تجاهل واهمال فقد تكرر نشره فى طبعات متعاقبة كما أنه ترجم من اللغة الانجليزية إلى معظم اللغات الأوربية . فضلا عن أن تغيرا طرأ على عنوانه الأصلى فأصبح « عناصر علم الاجتماع » وترجع أهمية هذا الكتاب

إلى أنه أول كتاب علمى وصادق فى أمور الجنس لايقلل من أهميته أن بعض الهنات والأخطاء تشوبه .

ولكن الجنس فى تلك الفترة من حياته لم يكن شغل هافيلوك إليس الوحيد فقد اتسعت قراءاته لتشمل أعظم الروايات التى ألفها المؤلفون الأوربيون مثل رواية جوته « ويلهلم ميستر » التى أدخلت قراءتها فى قلبه العزاء والسلوى . وبعد أن تخرج هافيلوك من جامعة سيدنى باستراليا انصرف إلى تأليف بعض الكتب العادية وغير المتميزة لفترة عشرة أعوام كما بدأ نظم الشعر الذى استمر فى قرضه حتى عام ١٨٨٥ إلى جانب انصرافه إلى استقصاء الجنس على نحو علمى ، والجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٢٥ نشر كثيرا من سونتاته وترجمته البديعة للفولكلور الاسبانى . ثم أعاد نشر بعض سونتاته عام ١٩٣٧ . وشعره ينم عن شدة احساسه بالجمال وتقديره للشكل ورغبته فى ارساء الحرية والنظام فى موضوع الجنس الذى تسوده الفوضى والخزعبلات .

وفى غربته خارج انجلترا تأثر هافيلوك إليس بأدب طبيب فيلسوف هو جيمس هنتون . ومن فرط اعجابه بهنتون نراه يقرر الانصراف إلى دارسة الطب . فضلا عن تأثره الشديد بالشاعر الانجليزى الرومانسى المعروف وليم بليك الذى لايخجل من الجنس حديثا وممارسة على حد سواء . ولكن تأثره بهؤلاء لايعنى أن أفكاره الجوهرية فى الحياة والكون التى كونها وهو فى التاسعة عشرة من عمره قد تغيرت . وانتهت فترة غربته فى عام ١٨٧٩ فعاد بعدها إلى انجلترا ليطالع القراء عام ١٩٢٢ برواية قصيرة بعنوان كانجاكريك التى يصف فيها بطريقة شاعرية حياته فى استراليا .

عودته إلى انجلترا

كان هافيلوك إليس فى العشرين من عمره عندما عاد من استراليا إلى انجلترا حيث استقبلته والدته وأخواته الأربع بفرحة عارمة .

وكان الشاب قد ادخر من المال ما يكفيه لدراسة الطب . وفى مستشفى سانت توماس بلندن عرف هافيلوك بؤس الفقراء والمعدمين الأمر الذى جعله شديد الاقتناع بجدوى تحديد النسل . كان عقد الثمانينات يمور بنشاط الاشتراكيين والتقدميين فانخرط فى صفوفهم وانتظم فى حضور اجتماعاتهم . واشترك فى تأسيس جماعة « زمالة الحياة الجديدة » التى أتاحت له فرصة التعرف على زوجته فى المستقبل اديث ليز .

وكان جورج برنارد شو عضوا فى هذه الجماعة غير أنه آثر الانفصال عنها لتكوين الجمعية الفابية الداعية إلى تطبيق النظام الاشتراكى بالتدريج .

وأثناء اقامته فى استراليا تعرف على عبقرية روائية واعدة من جنوب افريقيا . وهى مربية من أصل ألمانى اسمها أوليف سكرينر التى استطاعت التغلب على وحدتها وحياتها الموحشة عن طريق تأليف الروايات . واستطاعت هذه المرأة أن تدخر بعض المال من عملها كممرضة مكنها عام ١٨٨١ من السفر إلى انجلترا . وفى عام ١٨٨٤ أصدرت أوليف رواية بعنوان « قصة مزرعة افريقية » تدل على الموهبة وقرأ هافيلوك هذه الرواية باعجاب شديد فسعى من جانبه إلى التعرف بالمؤلفة فتوطدت صلة الصداقة والمودة بينهما . وبعد أن عادت أوليف عام ١٨٨٩ إلى جنوب افريقيا تبادل الاثنان ارسال الخطابات التى ألهمت قريحة كل منهما واعتبر هافيلوك خطابات صديقته عملا أدبيا لاينبغى التفريط فيه . ولكن جذوة الابداع الأدبى عند أوليف مالبثت أن خبت . وانتهى الأمر بنبذها للأدب واستقرت عام ١٨٩٤ بعد ان تزوجت من مزارع ومربى للأغنام قوى البنية مفتول العضلات فى جنوب افريقيا لايهتم بالثقافة أو يحتفل بالفكر . وفى عام ١٩١٧ شعر هافيلوك بالحزن والأسى عندما طلبت منه أوليف أن يرد اليها خطاباتها التى كان يود الاحتفاظ بها . وأمام تصميمها لم يجد مفرا من حرق خطاباتها .

وفى تلك الفترة اكتشف هافيلوك الشاعر الأمريكى والت ويتمان وقرأ كتاب ادوارد كاربنتر « فى اتجاه الديموقراطية » ونشأت علاقة حميمة بين الرجلين لم تنفصل عراها حتى وفاة كاربنتر عام ١٩٢٩ .

وفى عام ١٨٨٦ رحب هافيلوك إليس بتكليف الناشر هنرى فيزيتللى بالاشراف على اصدار سلسلة من المسرحيات الانجليزية القديمة كاملة غير منقوصة ودون استبعاد أى جزء منها . وتحمل هذه السلسلة التى صدر أول جزء منها عام ١٨٨٧ إسم سلسلة جنيات البحر . وتضمنت هذه السلسلة مسرحيات كريستوفر مارلو التى قدم لها جون أدنجتون سيموندز . واختتم إليس مسرحيات مارلو بملحق يتكون من مخطوط محفوظ فى المتحف البريطانى يحتوى على معلومات عن مارلو أدلى بها أحد المخبرين أمام المجلس الملكى أثناء التحقيق فى اعوجاج مارلو وسوء سلوكه . واتهامه بالتفوه بعبارات فاضحة وداعرة والتعبير عن اراء الحادية ومهرطقة . ويرجع الفضل إلى إليس فى نشر هذه الوثيقة التى درج النقاد على تجاهلها عند دراستهم لأعمال مارلو . وذكر إليس فى كلمة له ان طلبة العلم ودارسى الكتاب المقدس فى يومنا الراهن يرددون نفس الآراء المنسوبة إلى مارلو ولكن بشكل أقل فجاجة وأكثر نضجا وعلما . وصدم رأى إليس مشاعر الشاعر سوينبرن نفسه كما أن الناقد ج . م . سيموندز عبر عن عدم موافقته عليه . واعترضت امرأة بشدة على نشر الملحق الأمر الذى اضطر الناشر فيزتيللى إلى الانحناء أمام العاصفة فقام دون علم المشرف على السلسلة هافيلوك إليس أو أخذ رأيه باعادة طبع الكتاب بعد أن استبعد منه بعض العبارات والألفاظ المثيرة للجدل .

وبعد كريستوفر مارلو نشر إليس أعمال الكاتب المسرحى الانجليزى ماسينجر ولكنه استعان هذه المرة بخبرة محرر متمرس هو آرثر سيمونز الذى توثقت علاقته به واشترك الاثنان فى العديد من الأسفار فزارا أسبانيا التى أغرم بها إليس وكذلك روسيا وباريس حيث قابل الشاعر الفرنسى فيرلين والفنان رودين .

وبعد أن أصدرت دار النشر التى يمتلكها فيزيتللى ما يقرب من خمسة عشرة مجلدا فى « سلسلة جنيات البحر » آل أمرها إلى الخراب فقد رفعت ضدها قضية عام ١٨٨٨ بسبب نشرها ترجمات روايات الأديب الفرنسى الكبير اميل زولا . وقام ناشر آخر بشراء دار النشر واستغنى عن خدمات اليس واتبع سياسة مأمونة الجانب . غير أن معظم الكتب التى صدرت فى عهد اليس لقيت قدرا من الرواج الأمر الذى در عليه دخلا متواضعا يقتات منه .

آل هافيلوك اليس على نفسه ألا يقوم بنشر أى كتاب من تأليفه قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره . وفى عام ١٨٩٠ صدر أول أعماله وهو كتاب بعنوان « الروح الجديدة » يحتوى على دراسات عن ديديرو وهاينى وويتمان وابسن وتولستوى . وقوبل هذا الكتاب بهجوم عنيف من جانب مجلة الاسبكتاتور عليه . ثم تلاه فى نفس العام بكتاب آخر بعنوان « المجرم » .

وفى عام ١٨٩١ تزوج هافيلوك إليس من اديث ليز وكان زواجهما من نوع غريب. فقد اتفق الزوجان فيما بينهما على ألا يعيشا معا طيلة الوقت تحت سقف واحد . ولم تمانع اديث من أن يتركها زوجها من وقت لآخر كى يعيش مع صديقه سيمونز . وفى عام ١٨٩٧ أصدر إليس كتابا بعنوان « تأكيدات » تناول فيه بالدراسة كلا من زولا ونيتشه وكازانوفا والقديس فرانسيس الأسيسى .

هافيلوك إليس يواجه المشكلات

تعتبر الدراسات التى قام بها إليس بعنوان « دراسات فى علم النفس الجنسى » أهم انجاز علمى حققه فى حياته . وفى عام ١٨٩٤ نشر مجلدا يمهد لظهور هذه الدراسات بعنوان « الرجل والمرأة » والذى شجعه على تأليف « دراسات فى علم النفس الجنسى » أن جون أدنجتون سيموندز اقترح عليه أن يشتركا معا فى دراسة موضوع

اللواط . ومات سيموندز بعد بضعة شهور من الانتهاء من كتابة الجزء الخاص به فى الكتاب المشترك عن اللواط . وجعلت محاكمة أوسكار وايلد بتهمة ممارسة اللواط من العسير على المجتمع الانجليزى أن يقبل مناقشة هذا الموضوع الحساس بهدوء وموضوعية . وفشل إليس فى إقناع الناشرين الانجليز بنشره فأعطاه إلى ناشر ألمانى تولى نشر ترجمة ألمانية له عام ١٨٩٦ فى ليبزج . وترجع أهمية الكتاب إلى اشتماله على وصف مفصل للممارسات اللواطية عبر التاريخ خارج السجون ومستشفيات الأمراض العقلية حيث تنتشر مثل هذه الممارسات الشاذة .

وعندما عن لهافيلوك إليس ان ينشر كتابه عن اللواط فى انجلترا اصطدم بعقبات لم يتوقعها أو تدخل فى حسبانه . فقد اعترض على نشر الكتاب الوكيل الأدبى لشريكه الراحل سيموندز وطلب هذا الوكيل رفع اسم موكله من الكتاب الأمر الذى اضطر إليس إلى سحبه واعادة نشر الجزء الذى قام وحده بتأليفه . غير أن الكارثة الحقيقية أحاقت بالكتاب وصاحبه إليس بسبب ارتباطها بجمعية تعرف باسم « جمعية الاعتراف بشرعية الأطفال غير الشرعيين » وكان سكرتير الجمعية واسمه جورج بدبورو محررا لمجلة شهرية تصدر باسم الراشد . وبطبيعة الحال قوبلت مبادىء الجمعية ومعتقداتها باستهجان كثير من الناس وخاصة بعد أن أصدر طبيبان شهادة تثبت جنون سيدة تدين بمبادىء هذه الجمعية . وانبرت الجمعية للدفاع عن هذه السيدة وقدمت التماسا إلى أعضاء لجنة تقصى الخبل العقلى التى اجتمعت لتصدر قرارا بتبرئة ساحة السيدة المتهمة بالجنون . ولكن نجاح الجمعية فى وجه مناوئيها زاد من حنق الطبقات المحترمة عليها . ومن ثم طالب المعارضون لها بضرورة تدخل الحكومة لقمع نشاط هذه الجمعية . وكان من بين هؤلاء المعارضين السير ثيودور مارتن مؤلف كتاب « الملكة فيكتوريا كما عرفتها » الذى نشر فى ٢٠ ديسمبر ١٨٩٧

خطابا جاء فيه أن يد القانون يجب أن تتدخل بقوة وحزم من أجل استئصال أفكار هذه الجمعية التى من شأنها أن تحول عضواتها إلى جوقة من المومسات .

وهكذا التفتت الأنظار إلى نشاط هذه الجمعية وأخذ المخبرون يحضرون الاجتماعات التى كان بدبورو يعقدها فى شقته على أمل أن ينجحوا فى ضبط أفرادها وهم يمارسون الشذوذ الجنسى . ورغم أن هافيلوك إليس لم يكن عضوا بالجمعية فقد لحق به رذاذها لأن الناشر الذى نشر له كتابه عن اللواط كان نفس ناشر مجلة الرشاد التى تولى رئيس الجمعية برادبورو تحريرها . وأصاب إليس الرذاذ المتطاير لأن هذه الجمعية المشبوهة عرضت بعض نسخ كتابه للبيع . فضلا عن أن شكوك البوليس حامت حول قيام هذا الناشر بأعمال النصب والاحتيال .

وفى يوم ٢٧ مايو ١٨٩٨ قام أحد المخبرين بشراء نسخة من كتاب إليس عن اللواط من بيدبورو رئيس الجمعية المنادية بالدفاع عن شرعية الأطفال غير الشرعيين . ثم ألقى البوليس القبض على بيدبورو فيما بعد بتهمة نشر قذف بذىء . ووجهت تهمة البذاءة أيضا إلى مجلة « الراشد » كما نسبت نفس التهمة إلى محاضرة مطبوعة سبق أن ألقاها بيدبورو فى أحد اجتماعات الجمعية . وكما أسلفنا لم تكن لهافيلوك إليس أية علاقة بالجمعية أو برئيسها فضلا عن أنه لم يشترك مطلقا فى نشر أى مقال من مجلة « الراشد » . .

وآثار تقديم مؤلف كتاب « اللواط » ورئيس الجمعية إلى المحاكمة ثائرة عدد كبير من الأدباء والمفكرين المناصرين لحرية الرأى أمثال روبرت بوكانان وجورج برنارد شو و . ج . م روبرتسون وجورج مور وادوارد كاربنتر الذين كونوا فيما بينهم لجنة للدفاع عن كل من المتهمين . وقامت هذه اللجنة بتوزيع منشور فى جميع أرجاء البلاد

يشرح وجهة نظرها وتولت هذه اللجنة جمع المال اللازم وكلفت بعض المحامين بالدفاع عن المتهمين . وتقرر نظر القضية أمام المحكمة فى ٣٠ أكتوبر ١٨٩٨ . واستعد أنصار بيدبورو للقيام بدفاع قوى وواسع النطاق عن الحرية . ولكن بيدبورو الذى تم الافراج عنه بكفالة خانته شجاعته وتخاذل فى الساعات الأخيرة ، الأمر الذى جعله من تلقاء نفسه يذهب إلى البوليس ليعقد صلحا معه دون الرجوع إلى اللجنة الواقفة بجانبه أو استشارة المحامين المكلفين بالدفاع عنه ، وفى مقابل هذا وعده سكوتلانديارد بتوفير الحماية الكاملة له وتبرئة ساحته لو أنه اعترف بأنه مذنب فيما يتعلق بالاتهامات الخاصة بكتاب إليس عن اللواط ومجلة « الرأشد » وبالفعل ظهر هذا الرجل فى يوم المحاكمة ليعترف بذنبه واستنادا إلى تطوعه بالاعتراف بذنبه وبالمساعدات التى قدمها إلى البوليس لتسهيل مهمته وتحرياته ذكرت المحكمة أنها مقتنعة بأن الدور الذى لعبه بيدبورو فى قضية المطبوعات موضع الاتهام دور ثانوى للغاية . وقرر المتهم بأن يقطع كل صلة تربطه بمثل هذه المطبوعات أو بجمعية الدفاع عن الأطفال غير الشرعيين . ثم وجه قاضى لندن حديثه إلى المتهم فأثنى عليه لحكمته فى التصرف فقد كان يستحيل عليه أن يقنع الآخرين بخلو الكتاب والمحاضرة والمجلة موضوع الاتهام من البذاءة-واستطرد قاضى لندن قائلا: انه على استعداد لأن يصدق أن البعض خدع بيدبورو وأدخل فى روعه أن الكتابات المنشورة كتابات علمية فى حين أنها أبعد ما تكون عن العلم ومن ثم فانه كان حسن النية عندما قام ببيعها .

أما المخبر الذى أبلغ عن بيدبورو واسمه جون سوينى فقد كتب فى مجلة « سكوتلانديارد » يقول فى زهو : انه يشعر ان له شيئا من الفضل فى القضاء المبرم على جمعية الدفاع عن شرعية الأطفال غير الشرعيين وانه لو قيض لهذه الجمعية أن تنتصر على أعدائها لانتهى الأمر بنسف قوانين البلاد الأمر الذى قد يؤدى إلى زيادة الاحتجاج الشعبى على

حرية التعبير عن الرأى والمطالبة بضرورة تدخل الدولة لفرض القيود عليها .

وفى اليوم التالى للمحاكمة خرجت جريدة الديلى كرونيكل لتصف نوايا هافيلوك اليس بأنها علمية ولكنها أيدت فى نفس الوقت الحكم الذى أصدره قاضى لندن . يقول اليس فى سيرة حياته فى هذا الشأن ان كتابه عن الجنس الذى اعتبره رجال القانون والصحافة قذرا وعديم القيمة ومريضا ترجم إلى معظم اللغات الحية فى كل أنحاء العالم ليقرأه أناس لا يعرفون عن قاضى لندن أوجريدة الديلى كرونيكل شيئا وان قراءه فى جميع الأقطار يرسلون اليه رسائلهم التى تنم عن التقدير والاجلال والاعتراف بالجميل.ولم يمض وقت يذكر حتى أمرت السلطات بضبط المجلد الثانى من « دراسات فى علم النفس الجنسى » وأمرت بحرقه . ويبدو أن جهاز الشرطة وزع نسخا من هذا الكتاب على ضباط البوليس لدراسته بهدف التصدى له ولأمثاله من الكتب.وسارع بعض رجال الدين للتعبير عن سخطهم على الكتاب وصاحبه . فقد عبر رئيس القساوسة انج فى جريدة الايفننج ستاندرد عن زهوه لأنه كان أول من اشترى نسخة من المجلدين الأول والثانى وقام بحرقهما . أما الناشر واسمه رولاند دى فيلبيه فقد مات فى الحبس ويقول المحقق ان وفاته جاءت نتيجة سكتة مخيخية، غير أن المرجح أنه انتحر بالسم .

وانتقلت عدوى الحظر إلى كتب أخرى كان من المسموح تداولها . مثل كتاب « فصول فى الحب » الذى ألفه والترم . جالتيشان عام ١٨٩٨ تحت اسم جوفرى تيمور المستعار . فبعد ادانة كتاب هافيلوك اليس قام البوليس بضبط « فصول فى الحب » وأمر القضاة بتدميره رغم انه يتسم بالتحفظ والتحشم . ونتيجة لذلك زاد الطلب على هذا الكتاب وأصبح يباع سرا بأضعاف ثمنه الأصلى وفى نفس الوقت أصدر القضاء الانجليزى أمرا بحظر تداول كتاب آخر هو

الترجمة الانجليزية لكتاب تشارلس فير « باثولوجيا العواطف » .
وبسبب القضية المرفوعة ضد المجلدين الأول والثانى من « دراسات فى علم النفس الجنسى » استحال نشر بقية المجلدات فى انجلترا ولكن من حسن حظ المؤلف أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعترض على نشر بقية المجلدات.وهكذا ذاعت هذه الدراسات فى كل مكان بما فى ذلك انجلترا نفسها.وفى عام ١٩١٠ نشر اليس المجلد السادس والأخير من مرجعه العلمى عن الجنس ، ورغم ما تعرض له هذا المرجع من قمع من جانب السلطات البريطانية فانه لم يشعر بالمرارة نحو وطنه . كما أن القمع لم يجعله يتزحزح عن موقفه قيد أنملة أو يغير حرفا واحدا مما كتب،ولولا تغير القوانين فى البلاد المختلفة لاستحال عليه نشر عمله خارج انجلترا ـويدلنا اضطهاد اليس أن الجنس فى العصر الفيكتورى ظل منطقة ممنوعة يحظر على الباحث اختراقها أو الولوج فيها .

ويبدو أن تأليف المجلدات الست فى عنم النفس الجنسى الذى استغرق عقدين من الزمان أنهك قواه فقد شعر بعدها انه قد أصبح رجلا طاعنا فى السن يعيش خريف العمر ، وخاصة بعد أن تدهورت صحة زوجته ووافاها الأجل المحتوم عام ١٩١٦ ، ورغم أنه أكمل رسالته العلمية والتنويرية التى عاش من أجلها فانه لم يتوقف قط عن الكتابة والتأليف. فأصدر عام ١٩٢٦ مجلدا سابعا يعتبر ملحقا لدراساته فى علم النفس الجنسى ، وفى عام ١٩٢٢ ألف كتابا مبسطا عن الجنس بعنوان « مقالات صغيرة فى الحب والفضيلة » لتوعية الشبان والشابات . وفى عام ١٩٢٨ أصدر كتابا بعنوان « رقصة الحياة » يتضمن تلخيصا لفلسفته فى الجنس والحياة .
واستطاع اليس فى أخريات أيامه أن ينتزع اعتراف الأوساط العلمية الدولية به فقد أثنت على جهده الكلية الملكية البريطانية للأطباء التى اختارته ليكون واحدا من أعضائها.وفى عام ١٩٣٨ داهمه

مرض خطير ، ورغم شفائه منه فقد شعر بدنو أجله . وكان تدهور صحته سببا فى اعتزاله الناس وابتعاده عنهم حتى وفاته يوم ٨ يوليه ١٩٣٩ .

لقد عبر هافيلوك اليس فى آخر أيامه عن عجزه عن فهم المذهب السوريالى. ويجدر بنا أن نذكر أنه كتب مقدمة للرواية السحاقية المعروفة « بئر الوحشة » التى صادرتها الرقابة الانجليزية لفترة تفوق فترة مصادرة أمريكا لها والرأى عنده اننا نخطىء إن ظننا أن اتباع المذهب البروتستانتى المتشدد المعروفين باسم البيوريتانيين يتحملون مسئولية القمع الذى فرضته الرقابة الانجليزية على الكلمة المطبوعة التى تتناول الجنس بصراحة وحرية. فالبيوريتانية فى نظره قوة داعية لحرية الفكر والرأى والتعبير . يقول أليس فى هذا الشأن إن كتاب « الأريوباجيتيكا » الذى ألفه الشاعر البيوريتانى العظيم جون ميلتون هو أمجد وانبل دفاع عن الحرية عرفته انجلترا فى مختلف العصور. ويذهب اليس فى دراساته فى علم النفس الجنسى ان قصيدة أوفيد الشهيرة « فن الحب » يشوبها عيب خطير هو تجاهلها الكامل للزواج كنظام اجتماعى وحرصها على ابراز رغبة الفرد الجنسية ومن ثم فقد

الرقابة والجمارك

فشلت القصيدة فى أن تصبح مرشدا وهاديا للانسانية إذ استقر فى أذهان الناس أنها مجرد قصيدة داعرة تدعو إلى الفسق والتهتك ويرجع السبب فى هذا إلى أن الشاعر الرومانى اهتم بتصوير حالات الزنا ولم يهتم بتصوير المتعة الجنسية فى اطار نظام اجتماعى أعم وأشمل هو نظام الزواج .

لعبت الجمارك الانجليزية فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر دورا هاما فى منع أعمال مرموقة فى أدب الجنس . وترجع سلطة الجمارك الانجليزية على المطبوعات البذيئة إلى عام ١٨٥٣ . وبعد

ذلك بنحو عقدين صدر قانون تعزيز الجمارك عام ١٨٧٦ الذى يؤكد سلطة هذه الجمارك على الكتابات الجنسية،كما تعززت هذه السلطة بمقتضى قانون الجمارك والخراج الصادر عام ١٩٥٢ وكافة هذه القوانين تحظر استيراد أية مطبوعات جنسية بذيئة وهى تخول رجال الجمارك الحق فى ضبط هذه المطبوعات ، وإذا ضبطت هذه المطبوعات مع شخص غير ناشرها أو مؤلفها فان واجب سلطات الجمارك أن تحيط منتجها علما بضبطها إذا كان يعيش فى الأراضى الانجليزية . فإذا كان لديه اعتراض على ضبطها فمن حقه الالتجاء إلى القضاء . وهذه القوانين لا تنطبق على الاتجار فى الكتب فحسب بل أيضا على حيازة نسخ منها فى حقائب المسافرين وكثيرا ما تدخلت الجمارك لمصادرة مطبوعات لها قيمة أدبية ودراسية،الأمر الذى ضايق الطبقات الميسورة وآثار امتعاضها،وزاد منع الجمارك لبعض هذه الكتب من الطلب عليها ووجدت الطبقات الميسورة البريطانية ضالتها المنشودة فى فرنسا.ويعتبر ايزودور ليسيه واحدا من أهم الناشرين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الذين نشروا ترجمات للأدب البذىء باللغة الانجليزية . ورغم ذلك فقد اهتم هذا الناشر الفرنسى بنشر بعض الأعمال العلمية والتاريخية ذات القيمة الكبيرة وكان معظم زبائنه من البريطانيين والأمريكان . وكان هذا الناشر شوكة تقف فى حلق الجمارك الانجليزية . ثم حل محله ناشر آخر اسمه تشارلس كارنجتون لعب دورا بارزا فى القرن التاسع عشر فى تهريب الكتب الجنسية إلى الأراضى الانجليزية.بدأ كاربجتون حياته كصبى مراسلة ثم كعامل تنظيف المراحيض وفى سن السادسة عشرة كان يبيع الكتب على عربة يد فى سوق فاربجدون وأصيب بمرض الزهرى الذى أصابه بالعمى . ثم أصابه الجنون فى نهاية حياته فأودع فى مستشفى للأمراض العقلية حيث مات فى الخامسة والستين من عمره.وبالمقارنة تعتبر نهاية ايزودور ليسيه أسعد حالا فقد مات عن عمر طويل دون أن تعترضه الفواجع والنكبات .



الفصل الرابع

الرقابة فى انجلترا فى القرن العشرين

الرقابة فى مطلع القرن العشرين

فى بداية القرن العشرين انهارت واجهة العصر الفيكتورى القائمة على مظاهر اللياقة والاحتشام وذلك تحت معاول الأفكار الجديدة التى نشرها كوكبة من كبار الأدباء أمثال الكاتب النرويجى هنريك إبسن وعالم النفس المعروف سيجموند فرويد . ناهيك عن الأفكار المتحررة التى تضمنتها روايات هـ . ج . ويلز ومسرحيات جورج برنارد شو ، فضلا عما تميزت به كتابات إلينور جلين وفكتوريا كروس ومارى كوريللى من صراحة لم يعهدها عصر الملكة فكتوريا ، ورغم إيمان هؤلاء المفكرين والأدباء بالراديكالية السياسية وتشككهم فى سلامة الدين فقد تجنب عدد غفير من دعاة الليبرالية أمثال ويلز وشو الخوض فى الجوانب الجنسية من الاصلاح الاجتماعى المنشود . وكانت نتيجة ذلك ان الجيل الذى نشأ وترعرع فى انجلترا فى مطلع القرن العشرين ركز كل اهتمامه فى ضرورة اجراء الاصلاحات السياسية والاقتصادية دون أن يعير الاصلاحات الجنسية أى اعتبار . ومن ثم توارت عن الأنظار مشاكل جوهرية مثل المشكلة السكانية وتحسين النسل وتحديده ونظام الزواج والتربية الجنسية .

ويعطينا رأى الناقد الأدبى أوجستين بيريل فى أدب جوناثان سويفت كما جاء فى مقاله « مقالات عن الرجال والنساء والكتب » (١٨٩٤) فكرة عن هذا الموقف المتحفظ فى شئون الجنس الذى ساد الفكر الانجليزى فى مطلع القرن العشرين . يقول أوجستين بيريل: اننا لن نجد قلما يفوق فى بذاءته قلم سويفت. فلغته الخشنة فظيعة من أولها الى آخرها ، ولشدة ما تنضح به كتاباته من بذاءات فإن بيريل يرى انها أعجوبة أن تخلو عظات سويفت الدينية من هذه البذاءات .

ان الروايات الملتهبة والمتوهجة التى كتبتها اليانور جلين لم تتعرض لتدخل القانون الانجليزى فى شئونها ، ولكن الشعبية الكاسحة التى حظيت

بها روايتها « ثلاثة أسابيع » (١٩٠٧) كانت سببا فى التفات القانون المدنى اليها والتدخل فى مجراها وفى استنان المواد الخاصة بشأن الأدب البذىء ، وقد دعا الى اهتمام القانون بها ان الرواية راقت فى عيون طبقات المجتمع الراقى كما ان كثيرا من الأدباء قاموا بمحاكاتها ومعارضتها بل ان بعض السينمائيين قاموا فى عام ١٩١٥ بإخراج فيلم مبنى على أحداثها بهدف التعريض بها والتفكه عليها ، ودفع هذا المؤلفة الى الالتجاء الى القضاء لحماية حقوقها عن التأليف ، ولكن القاضى أصدر حكما يعتبر سابقة خطيرة فى مجال حقوق التأليف المتصلة بالأدب المكشوف ، فقد ذهب هذا القاضى الى عدم أحقية الشاكية فى الحصول على أية ترضية أو تعويض لأن ذلك الجزء من روايتها التى تزعم ان السينمائيين سطوا عليه لا يعدو من حيث الجوهر والمعالجة والميل أن يكون مؤامرة للزنا والشهوانية ومن ثم يسقط حقها فى المطالبة بأية تعويضات .

وفى عام ١٩٠٨ تعرضت اللجنة المختارة المشتركة الخاصة باليانصيب والاعلانات البذيئة لموضوع الأدب المكشوف وتشمل محاضر هذه اللجنة الكثير من الأدلة على رواج تجارة الأدب البذىء آنذاك ومن بينها تفاصيل دقيقة عن أنشطة الناشر رولاند دى فيلييز والناشر تشارلس كارنجتون اللذين سبق الاشارة اليهما ، وفى التقرير الذى أعدته هذه اللجنة نراها توصى بإجراء تغيير فى فقرات القوانين المتصلة بالبذاءة بحيث تتحول الى مجموعة قوانين يقرها البرلمان وتطبق بوجه السرعة على كل المخالفات التى ترتكب فى هذا الشأن . ولكن اللجنة أوصت بإضافة مادة فى القانون المقترح تستثنى الأعمال الفنية والأدبية الأصيلة من تطبيق القانون عليها .

ولكن مثل هذا الاستثناء ظل نسيا منسيا واستمرت جمعيات القمع والمصادرة فى ممارسة نشاطها ففى عام ١٩٠٨ أوحت الحكومة البريطانية الى جمعية اليقظة القومية بمقاضاة الناشر جون لونج لنشره رواية من تأليف هيوبرت ويلز بعنوان « ربقة العبودية » تدور أحداثها حول امرأة تعشق ابن خطيبها

الذى وافته المنية ، وحتى يتجنب هذا الناشر المشاكل مع الشرطة وفى المحاكم تعهد بالامتناع عن نشر الكتاب وتدمير ما تم طبعه .

وهناك فى مطلع القرن العشرين بعض الحوادث الرقابية الأخرى ، ففى عام ١٩١٠ قام مخبر فى سكوتلانديارد باستدعاء الناشر جون لين لنشره ترجمة لرواية من تأليف هيرمان سودرمان الألمانى تدور أحداثها حول امرأة ساقطة لم تعد حياة العهر عليها بأى ضرر . ووافق الناشر على سحب الكتاب ، وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) قامت السلطات بالهجوم على أى ناشر يرفض الامتثال لأوامرها . ففى عام ١٩١٥ زار ضابط من سكوتلانديارد الناشر ستانلى أنوين الذى اشترى دار النشر التى يمتلكها إدوارد كاربنتر بعد أن وقع فى متاعب مع النيابة ، وتأبط الضابط نسخة من كتاب قديم بعنوان « الجنس الوسيط » مضى على نشره سبعة أعوام ، وكانت فى الكتاب علامات على بعض الفقرات ذكر الضابط انها فقرات تعترض عليها الرقابة ، وطلب الضابط من الناشر أن يقوم بسحب الكتاب ، ولكن الناشر احتج على ذلك منوها بالمؤلف قائلا انه تسلم منذ وقت قريب للغاية خطابات من أهم المشتغلين بالأدب فى انجلترا تشيد بموهبته الأدبية وذلك بمناسبة عيد ميلاده . وعبر الناشر عن دهشته بوجه خاص لأنه شاهد خطين موضوعين تحت احدى الفقرات . وعندما قابل الناشر الموظف المسئول فى سكوتلانديارد اتضح له ان هذا الموظف فشل تماما فى فهمها ، واعترف هذا الموظف انه بالنظر الى أن طبيعة عمله تحتم عليه قراءة المطبوعات « الشريرة » فإنه يميل الى تصور وجود الشر فى المواضع التى تخلو منه ، ولولا جسارة الناشر السير ستانلى أنوين لارتعدت فرائصه ورضخ لطلبات سكوتلانديارد . يقول هذا الناشر معلقا ان السلطات تأخذ الشكاوى المجهولة بجدية أكثر من اللازم لدرجة ان كثيرا من الناشرين يصيبهم الفزع فيسحبون مطبوعاتهم فى صمت ودون جلبة أو ضجيج ، وهو الأمر الذى يضر أبلغ الضرر بمصالح المؤلفين الذين يتطلعون الى أن يقرأهم العالم ويشعرون ان من حقهم أن يلتفت هذا العالم اليهم .

الرقابة فى العشرينات

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) أوزارها لم تقتصر الرقابة فى انجلترا على جيمس جويس ود . هـ . لورانس ، ففى تلك الفترة انتشرت آراء سيجموند فرويد فى الجنس وبدأ الناس فى مناقشة أمراض الشذوذ الجنسى دون أدنى حرج ، غير ان موقف السلطات من المطبوعات الجنسية ظل جامدا لا يلين ، ففى عام ١٩٢١ قامت السلطات الانجليزية بفرض الحظر على دراسة نفسية جادة أصدرها مؤلف مجهول بعنوان « سيرة حياة طفل » وتطبيق قانون المطبوعات البذيئة لعام ١٨٥٧ عليها .

أرشيبالد بودكين : رجل القانون المتشدد

كان السير أرشيبالد بودكين الذى شغل وظيفة مدير النيابة العامة فى انجلترا فى عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٣٠ رجلا متشددا يتسم بالجمود والتحجر . ففى عام ١٩٢١ قامت دار جورج ألين وأنوين للنشر بنشر الترجمة الانجليزية لكتاب بعنوان « يوميات فتاة شابة » كان العالم النفسانى المعروف سيجموند فرويد قد أشاد بفائدته. وفى مقابلة أجريت مع السير ستانلى أنوين حول هذا الكتاب يذكر أنوين ان بودكين ينعته بالقذارة ويعترض بوجه خاص على وصف جاء فيه لمشهد جنسى مثير شهدته كاتبة اليوميات من خلال نافذة تقع مواجهة لها ، وهى حادثة تركت أعمق الأثر فى موقف الرواية من الجنس ، ومن ثم أهميتها البالغة بالنسبة لليوميات ككل ، ووافق بودكين على عدم رفع قضية على هذا الكتاب بشرط أن يقصر أصحاب المكتبات بيعه على رجال القانون والطب والتربية والتبليغ عن أسماء وعناوين ووظائف الزبائن الذين يقومون بشرائه .

وفى عام ١٩٢٣ أقيم مؤتمر دولى لمنع المطبوعات البذيئة فى مدينة جنيف

بسويسرا تحت رعاية عصبة الأمم ، ومثل السير أرشيبالد بلاده انجلترا فى هذا المؤتمر ، وطالب مندوب اليونان المجتمعين فى المؤتمر أن يحددوا معنى كلمة البذاءة حتى يمكن وضع الأمور فى نصابها الصحيح ، فانبرى السير أرشيبالد بودكين للتصدى له والاعتراض عليه وتباهى بأنه ليس هناك فى القانون الانجليزى تعريف لهذه الكلمة، بل انه يستحيل الوصول لأى تعريف لها ، وفى تباهيه باتساع تفسير القانون الانجليزى ذكر بودكين للحاضرين فى زهو انه زج برجلين فى السجن لمجرد انهما تبادلا فيما بينهما بعض الكتب والصور البذيئة .

فرانك هاريس يتعرض للمصادرة

كان فرانك هاريس (١٨٥٦ - ١٩٣١) صحفيا بريطانيا لامعا يتهالك على ملذات الجنس ويتباهى بها دون حياء أو خجل نشر هاريس فى باريس عام ١٩٢٢ سيرة حياته بعنوان « حياتى وغرامياتى » التى روى فيها بكل الزهو انتصاراته وغزواته فى مجال الجنس . ورغم انه نشر الفصول الجنسية منفصلة عن سائر الكتاب وبترقيم مستقل فى الصفحات فإن هذا لم يخفف من وقع الصدمة على قرائه . وفى السابعة والعشرين عين هاريس محررا مسئولا عن صحيفة لندنية معروفة هى « ايفننج نيوز » بسبب نجاحه فى غواية زوجة صاحب الصحيفة ، واستطاع فى فترة رئاسته لتحريرها أن يرفع معدلات توزيعها وعندما سأله صديق له عن السر فى نجاحه فى ذلك أجاب بقوله انه ركز اهتمام الصحيفة على موضوعين يشغلان بال الناس : الحرب والممارسة الجنسية ، ويعطينا هاريس فى سيرة حياته الانطباع بأن مغامراته العاطفية ليست إلا معارك شنها على النساء وحاصرهن فى ميدان الوغى حتى رفعن الراية البيضاء أمامه ، الأمر الذى جعله يبدو وكأنه قائد عسكرى يحرز الانتصار على أعدائه ، ويحدثنا أوسكار وايلد عن فترة مجده الصحفى فى التسعينات من القرن التاسع عشر فيقول:انه رجل بدون مشاعر،وان هذا هو السبب فى نجاحه.ويضيف ان اقتناع هاريس بخلو الآخرين من المشاعر كان

السبب فى الفشل الذى منى به فى حياته اللاحقة .

كتب فرانك هاريس « حياتى وغرامياتى » فى أربعة أجزاء بعد أن أنهكته الشيخوخة ونضبت موارده المالية وتدهورت حالته الصحية . وانتهى من الجزء الأول من سيرة حياته أثناء اقامته فى أمريكا ثم نشره فى ألمانيا . وبعد الحرب العالمية الأولى سافر الى باريس حيث استقر به المقام وسطر الثلاثة مجلدات الباقية ، ولم يدر الكتاب على مؤلفه ما كان يتوقع من ربح وفير بسبب قرصنة ناشرى الأدب المكشوف فى أوربا وأمريكا الذين وجدوا فى مادة الكتاب ما يغريهم بنهبه والسطو عليه . فضلا عن ان السلطات الفرنسية سعت الى مصادرة نسخ المجلد الثانى من الكتاب الذى كان المؤلف يحتفظ بها فى شقته فى مدينة نيس ، كما سعت الى رفع قضية ضده تتهمه فيها بإفساد الأخلاق العامة ولكن الحكومة الفرنسية اضطرت الى سحب القضية تحت ضغط عدد من الكتاب الفرنسيين من بينهم هنرى باربوس ، غير ان القلق الذى عاش فيه هاريس نتيجة لذلك عجل بوفاته . وبعد أن تصفح الكاتب الأمريكى أبتون سينكلير المجلد الأول من سيرة حياة فرانك هاريس قال له بكل صراحة : « هذا أسوأ كتاب وقعت عليه عيناى ، أعتقد انه كتاب سام وليس هناك أدنى عذر مطلقا لتأليفه » والجدير بالذكر ان المؤلف يروى سيرة حياته حتى بلوغه الخامسة والأربعين من عمره وهى نهاية تلك الفترة الخصبة والخلاقة من حياته عاش بعدها ثلاثين عاما يعانى من الحاجة وقد جفت ينابيع الخلق فيه ، ولم تكف مصلحة الجمارك ومصلحة البريد فى بريطانيا عن مصادرة كتابه « حياتى وغرامياتى » منذ نشره فى فرنسا . ويخبرنا هاريس فى كتابه عن « برنارد شو » ان زوجة شو ضايقها أن ترى نسخة من الكتاب ملقاة فى البيت يقرأها كل من هب ودب من الخدم فقامت بإحراقها ، ولم يتحرج شو من أن يخبر هاريس بذلك،الأمر الذى سبب له غضبا شديدا وألما ممضا . والجدير بالذكر ان شو اعترض على فرض أى رقابة على المسرح غير ان نزعاته البيوريتانية جعلته لا يستسيغ رواية « يوليسيس » لجيمس جويس .

وزير داخلية متشدد : السير هيكس

عمل السير وليم جوينسون هيكس الذى اشتهر بنزعاته البيوريتانية المتزمتة وزيرا للداخلية فى بريطانيا فى الفترة من ١٩٢٤ حتى ١٩٢٩ الأمر الذى شجع الناس على رفع القضايا على كثير من الكتب بزعم انها تسىء الى الأخلاق العامة ، وفى فترة توليه وزارة الداخلية قام الناشرون تشاتو ووبندوس عام ١٩٢٦ بنشر رواية بعنوان « كانتاب أو من جامعة كامبردج » كتكملة لرواية ألفها شين ليسلى عام ١٩٢٢ بعنوان « الأوبيدان أو فى خارج كلية إيتون » واستقبل أساقفة الكنيسة الرومانية رواية « الكانتاب » بالملامة والتقريع فقام مؤلفها الكاثوليكى المخلص لدينه بسحبها ولكن هذا لم يمنع من رفع قضية عليها واستصدار أمر بتدمير نسخها واستند اعتراض رجال الدين عليها الى ورود فقرتين فيها تصف احداهما عملية اغتصاب مقززة وتصف الأخرى سيدة تضع جوهرة ثمينة للغاية فى سرتها ، وأمام هذا الهجوم عليه قام المؤلف بإعداد نسخة معدلة من الرواية نشرها عام ١٩٢٩ بعد اجراء تغييرات شاملة عليها ، ومن المفارقة ان مؤلف الرواية شين ليسلى سبق له الهجوم على رواية « يوليسيس » على أساس انها منافية للدين والأخلاق .

وعلى أية حال اقترن اسم السير وليم جوينسون هيكس برواية « بئر الوحشة » التى نشرتها الكاتبة البريطانية رادكليف هول عام ١٩٢٨ .

مصادرة رواية « بئر الوحشة »

فى صيف ١٩٢٨ قامت دار جوناثان كيب البريطانية للنشر بنشر رواية « بئر الوحشة » التى تتناول موضوع السحاق أو الشذوذ الجنسى بين النساء وتدافع عنه على نحو معتدل . وأثارت الرواية ثائرة رجل

اسمه جيمس دجلاس فقام بنشر مقال هستيرى وعنيف ضدها فى صحيفة « السنداى اكسبريس » الصادرة يوم ١٩ أغسطس ١٩٢٩ جاء فيه انه يفضل أن يضع مية النار فى يدى فتاة أو فتى صحى وسليم من أن يضع فى أيديهما هذه الرواية . وطالب جيمس دجلاس بسرعة سحبها من منافذ البيع والتوزيع . وكانت نتيجة هذا الهجوم المسعور عليها أن ازداد اقبال قراء الأدب المكشوف عليها بصورة هائلة ، فضلا عن قيام مدير النيابة العامة برفع دعوى ضدها ، وفى وقت لاحق قامت مصلحة الجمارك بمصادرة شحنة من الرواية ارسلتها من باريس دار بيجاسوس للنشر ، واستدعت النيابة الناشرين بمقتضى قانون المطبوعات البذيئة الذى استنه اللورد كامبل وطلبت منهم تدمير الرواية لبذاءتها .

وتم عرض القضية فى محكمة بوستريت يوم ٩ نوفمبر ١٩٢٨ أمام القاضى السير تشارلس بيرون ، وعبثا حاول محامى الدفاع نورمان بيركيت (الذى أصبح فيما بعد اللورد بيركيت) أن يبين للمحكمة انها أمام كتاب مفيد للمجتمع ينعم باحترام كبار النقاد وثنائهم عليه بسبب وقار المعالجة وجديتها وبعدها عن الاثارة.ورد القاضى بأنه يسلم بأن الكتاب لا يخلو من المزايا الأدبية ولكن المزايا الأدبية لأى كتاب ليست مبررا أو عذرا لبذاءته . ولا تعفيه من اللوم ، وأردف يقول :ان مزايا الكتاب الأدبية وجودة أسلوبه من شأنها أن تغرى قطاعا كبيرا من الناس بقراءته ، واقترح الدفاع عن الناشرين المتهمين استدعاء مجموعة كبيرة من الخبراء يتقدمها الناقد الأدبى البارز آنذاك ديزموند ماكارتى وتضم ما يقرب من أربعين أديبا ورجل دين واخصائيا اجتماعيا وقاضيا وأديبا للادلاء بشهادتهم بشأن قيمة الكتاب ، ولكن القاضى رفض هذا الطلب وكان ذلك قبل ادخال التعديلات فى قانون المطبوعات البذيئة الصادرة عام ١٩٠٩ والتى استفاد منها الدفاع عن رواية لورانس « عشيق الليدى تشاترلى » وهنا اعترض محامى الدفاع على القاضى واتهمه بأنه ينصب نفسه رقيبا على

الأدب ، وقال القاضى ان سماحه بمثول هؤلاء الخبراء المدافعين عن « بئر الوحشة » سوف يجعل المعارضين لها يفعلون نفس الشىء ويقيمون جبهة مضادة تشهد ضد الكتاب . ونظرا لموقفه الأخلاقى المتزمت اقترح وزير الداخلية السير وليم جوينسون هيكس على كوزمو لانج أسقف كانتربرى المعين حديثا أن يوعز معاونه هينسلى هنسون أسقف دارام بأن يدلى بشهادة ضد الكتاب . غير أن أسقف دارام رفض أن يفعل ذلك . وبالفعل قام القاضى السير تشارلس بيرون بإدانة الكتاب وأصدر أمرا بتدمير نسخه على أساس انه بذىء ، واستأنف الناشرون ضد الحكم ولكن استئنافهم ذهب أدراج الرياح وفشل الدفاع فى تبرئة الرواية من تهمة البذاءة بالرجوع الى نعتها النظيفة تماما والتى تخلو خلوا كاملا من كل أثر للبذاءة ، وتحركت جريدة المانشيستر جارديان فقامت فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٨ بنشر خطاب احتجاج على المصادرة وقع عليه عدد غفير من صفوة المثقفين والأدباء أمثال برنارد شو وروز ماكولى وجون بوتشان وأرنولد بينيت وليتون ستراتشى ولورانس بنيون .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية لقيت الرواية نفس المصير الذى لقيته فى انجلترا ، فقد تقدم جون س . سمر الرئيس الجديد لجمعية مكافحة الرذيلة هناك برفع قضية ضدها فى أوائل عام ١٩٢٩ . وفى أمريكا تكرر نشر هذه الرواية ست مرات قبل فرض الحظر عليها . ورغم ان العالم النفسى الكبير هافيلوك إليس كتب مقدمة للطبعة الأمريكية يشيد فيها بأهمية الكتاب فإن تقريظه له كان عديم الجدوى . واستقبلته المحكمة بنفس الأزورار الذى استقبلت به تقريظ كبار المثقفين والأدباء الانجليز له .

والغريب ان حكم القاضى الأمريكى جاء مشابها لحكم القاضى الانجليزى رغم اتساع شقة البعد بينهما وانهما يعيشان فى قارتين مختلفتين فقد جاء فى كل من الحكمين ان المؤلفة بتصويرها الجذاب

للشخصيات الروائية المنحرفة وتعاطفها معها تساعد على نشر الفساد الأخلاقى .

الهلع يصيب الناشرين والمؤلفين

كانت النتيجة الطبيعية لهذه السياسة القضائية المتزمتة والمتشددة ازاء أدب الجنس أن ارتعدت فرائص الكتاب والناشرين على حد سواء . فقد بادر أحد الكتاب المكلفين بعرض الكتب فى المجلات والصحف بإرسال نسخته الخاصة من رواية ألفتها نورا س . جيمس بعنوان « مراسلة بدون أكمام » الى وزير الداخلية البريطانى الذى أمر بسرعة ضبط النسخ الموجودة فى مخازن الناشر ، وتم استدعاء الناشر ليقدم تفسيرا لتصرفه . ولم يشفع للرواية لدى المحاكم اجماع الصحافة الأدبية على تحبيذ نشرها أو دفاع المحامين المجيد عنها ، والغريب ان الرواية لم تسلم من تهمة البذاءة رغم ان المحكمة لم تجد فى طول الرواية وعرضها غير ثلاث كلمات اعترضت عليها ، وهى كلمات لا تعد بذيئة فى يومنا الراهن، الأمر الذى أدى الى وأد الكتاب فى انجلترا وعدم محاولة إعادة نشره ، أما فى أمريكا فقد أقدم الناشرون على نشره بعد استبعاد الكلمات الثلاث المعترض عليها .

ولعل ريتشارد ألدنجتون نموذج على مدى تأثر الكتاب الانجليز بهذا التشدد . وتلقى المقدمة التى كتبها ألدنجتون لروايته المعروفة « موت بطل » (١٩٢٩) التى تعالج مأساة الحرب العالمية الأولى ضوءا على الخوف الذى استولى على قلوب المؤلفين والناشرين معا ، يقول ألدنجتون فى هذه المقدمة :

« ان روايتى المطبوعة تختلف فى بعض التفصيلات عن المخطوط ، لقد أبلغنى الناشر لدهشتى ان بعض الألفاظ والعبارات والجمل المعينة بل حتى بعض الفقرات تعد فى يومنا الراهن محرمة فى انجلترا . انى

لم أكتب شيئا لم أستمده من واقع الحياة الانسانية ولم أقل شيئا لا أعتقد فى صدقه ، كما انه ليس لدى أدنى نية لاثارة غرائز وشهوات أى انسان ، ولو أنى أردت ذلك لاخترت موضوعا أقل مأساوية من موضوع روايتى . ومع هذا فإنى أجد نفسى مضطرا الى التسليم بوجهة نظر من يعرفون مشاعر الجماهير أكثر منى . ولهذا فقد طلبت من ناشرى أن يقوم باستبعاد ما يعتبره محلا للمؤاخذة . فإذا تبقى بعد ذلك شىء يستحق المؤاخذة فالمسئولية تقع بطبيعة الحال على كاهلى . والرأى عندى انه من الأفضل أن يخرج الكتاب فى صورة ممسوخة وشائهة من أن أقول غير ما أؤمن به »

ويقول ريتشارد ألدنجتون فى أحد خطاباته: انه يعذر الناشرين لقيامهم بمسخ وتشويه مؤلفاته حتى لا يقعوا تحت طائلة قانون غامض يطبق بطريقة عشوائية . ويضيف: ان أمريكا مؤخرا أظهرت قدرا من الحرية أكبر مما أظهرته انجلترا ، ولهذا فإنه سوف يقوم بنشر النصوص الكاملة لأعماله فى أمريكا ويدع بنى جلدته الانجليز ينشرون أعماله مبتورة ، وفقا لتحيزاتهم السخيفة والمضحكة .

عودة إلى قضية مونتوك

أشرنا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب إلى قضية الكونت جوفرى مونتوك عند الحديث عن قوانين المطبوعات البذيئة الصادرة فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . ومن الواضح أن قضية الكونت مونتوك تنتمى إلى القرن العشرين . ومن ثم ضرورة العودة إليها فى هذا المجال .

ولد الكونت الغريب الأطوار فى نيوزيلاندا من أب مهندس وكان جده لأبيه أستاذا من أصل بولندى . درس مونتوك القانون ولكنه هجره ليزعم أنه شاعر ملهم بعثته العناية الالهية إلى العالمين وأنه الوريث الشرعى الوحيد لعرش بولندا . وأعلن هذا الرجل العجيب

أنه يؤمن بالوثنية وأصدر مجلة بعنوان « مجلة اليمين » دافع على صفحاتها عن النظام الملكى وشن هجوما ضاريا على النظام الديموقراطى . والجدير بالذكر أنه أثناء مثول مونتوك أمام المحكمة لم يتورع بعض الانتهازيين من السطو على ديوانه المقدم إلى المحاكمة والاتجار فيه . والجدير بالذكر أيضا أن كثيرا من الأشعار التى أوردها الكونت فى ديوانه المصادر ليست جديدة بالمرة ولكنها قصائد وأشعار نادرة يصعب على المرء العثور على مصادرها . وعلى أية حال سبق لأوركيو هارت أن ترجم إلى انجليزية القرن السابع عشر قصيدة ماجنة ومازحة لرابيليه بعنوان « أغنية فتحة السروال » ويمكن الحصول فى وقتنا الراهن على هذه الترجمة من المكتبات .

ولعل الجديد الذى استحدثه مونتوك فى هذه القصيدة أنه وفق فى تحسين ترجمتها والاحتفاظ بنفس بحر وقافية القصيدة الأصلية . ويتضمن الديوان المصادر أيضا قصيدة بعنوان « أسلوب بول فيرلين شاعر الكنيسة الرومانية » وفيها يعارض مونتوك قصيدة مجهولة لفيرلن بعنوان « الحياة الرعوية الراقية » التى عجز القاضى اللورد اكتون عن تتبع مصدرها الذى تعمد الكونت الشاذ أن يخفيه عنه . . ويتضح لنا مما تقدم أن عددا كبيرا من الأشعار التى أوردها مونتوك فى ديوانه ليس محظورا بالمعنى القانونى رغم أنه قد يكون قميئا ومقززا فى نظر بعض الناس . فضلا عن أن مونتوك لم تكن لديه أى نية لنشر ديوانه على جمهور القراء ولكنه كان يبغى طباعة عدد محدود من النسخ لتوزيعه على أصدقائه ومعارفه ممن يشاركونه فى ذوقه الأدبى العجيب .

وفى يوم ٨ فبراير ١٩٣٢ مثل الكونت فى محكمة الأولد بايلى أمام السير ارنست وايلد رئيس قضاة لندن الذى تصور أنه شاعر مطبوع وحامى حمى الأدب. فقد أصدر وهو فى التاسعة والخمسين من عمره ديوان شعر شديد المراهقة بعنوان « مصباح القدر » . ويبدو أن القاضى كان يميل منذ البداية إلى إدانة المتهم فقد ذهب هذا القاضى

إلى أن مستوى الأخلاق تحسن فلم يعد من المسموح أن يستخدم الأدباء البذاءات التى درج أدباء وروائيو القرن الثامن عشر على استخدامها . ثم قال إنه لا يصح أن يسمى الانسان نفسه شاعرا ويكون قذرا . فعليه أن يطيع القانون مثل أى مواطن عادى لأن هذا قمين بتحسين أخلاق الأمة . وبدأ على المحلفين شىء من التردد فى إدانة الكونت . ولكن رئيس القضاة تدخل ليحمل ممثلهم على القول بأنه مذنب . وحكمت المحكمة بحبس الكونت ستة شهور الأمر الذى أثار غضب الشاعر الكبير يتس مثلما أسلفنا . وبلغ الغضب بالكونت مبلغا جعله يرفض أن يطلب من المحكمة تخفيف الحكم أو استخدام الرأفة معه .

ولم يسكت أدباء انجلترا على قسوة الحكم فأخذوا يجمعون الأموال اللازمة للاستئناف ضد الحكم.وقادت الحملة المدافعة عن الكونت الشاذ صفوة المثقفين والأدباء الانجليز وعلى رأسهم الدوس هكسلى وهـ . ج. ويلز وج. ب. بريستلى وولتردى لامار ولورانس هاوسمان ولورد إشر وت. س. إليوت يو والبول . ونظرت المحكمة فى قضية الاستئناف بجلستها المنعقدة فى ٧ مارس ١٩٣٢ . ولكن الحملة باءت بالفشل الذريع وخاصة لأن أداء المتهم فى المحكمة كان غاية فى السوء . وإذا كانت هذه الحملة قد نجحت فى شىء ففى أنها نبهت رجال القانون إلى ضرورة إصلاح قوانين المطبوعات البذيئة الصادرة فى القرن التاسع عشر . وعلى أية حال مهد لهذا الاصلاح ذلك التعديل الذى أدخل على قانون الاتهام الصادر عام ١٩١٥ . غير أن التعديل فى قانون الاتهام لم يكن تعديلا فى المضمون بل مجرد تعديل فى لغة الاتهام الخاص بالبذاءة وطريقة صياغته . فقد استبدل تعديل قانون الاتهام لعام ١٩١٥ الصيغة الخطابية والبلاغية القديمة التى تبالغ فى إظهار جرم المتهم بعبارات متزنة ومعتدلة تكتفى بتوجيه « تهمة القذف البذىء » لكل من ينشر مطبوعات نابية .

إنجلترا فى الثلاثينات

فى العام التالى لقضية الكونت مونتوك (أى فى ١٩٣٣) نشر شاب قصيدة طويلة اتبع فيها نظام المقاطع الشعرية التى ابتدعها الشاعر ادموند سبنسر (١٥٥٢ ـ ١٥٩٩) . بعنوان « جيلنو والفتيات » . وقام الشاب بطبع قصيدته سرا والدعاية لها عن طريق إرسال منشورات بالبريد . وتدور القصيدة حول المغامرات الغرامية وتسخر على طريقة تشوسر من القساوسة والمحامين. وبوجه عام لقيت القصيدة تشجيعا من الصحافة الانجليزية . وفى عام ١٩٣٤ توسع الشاعر فى قصيدته ليهجو اللورد هاليفاكس ويتهمه بالهوس الدينى . وعندئذ تدخلت السلطات لمصادرة القصيدة متهمة إياها بالقذف البذىء ووقعت على المؤلف غرامة قدرها خمسمائة جنيه .

وفى نفس العام (١٩٣٤) قام البوليس الانجليزى بمداهمة مقر شركة فورتيون بريس للنشر فى لندن . وكانت هذه الشركة تنشر أعمال الشباب الواعد ، إلى جانب نشر كثير من ترجمات الأعمال الكلاسيكية ذات الأهمية الأدبية والتاريخية . وتعلل البوليس فى مداهمتها بأن قائمة المطبوعات الصادرة عن هذه الدار تدل على إفراطها فى الاهتمام بالجنس . ورفعت النيابة العامة قضايا بالجملة فى محكمة بوليس وستمنستر ضد عدد من مطبوعات الدار قام بالنظر فيها قاضى متزمت اسمه ا. رونالد باول الذى انتهى إلى أن أهمية الكتاب من الناحية الأدبية أو من أى ناحية لا تعفيه من توجيه تهمة البذاءة إليه . ورفض القاضى مبدأ استدعاء الخبراء فى المحكمة للتدليل على أهمية المؤلفين الذين تقدم مؤلفاتهم إلى المحاكمة . وكانت النتيجة أن أصدر القاضى أحكاما بالجملة ضد كثير من الكتب متجاهلا ما لها من قيمة .

وفى هذا الجوالخانق للحريات تعرضت أربعة روايات تهاجم ما يشوب النظام الاجتماعى والتعليم فى إنجلترا من عيوب . وإحدى هذه الروايات رواية بعنوان « ضحايا صغار » ألفها رجل كاثوليكى اسمه ريتشارد رامهولد حرمته أكسفورد من المناولة لتأليفه هذا الكتاب . ولكن المؤلف الذى تشبث برأيه رفض أن يسحب كتابه بناء على طلب القساوسة ورجال الدين .

ومن الكتب المحظورة والمكتوبة أصلا باللغة الانجليزية « كتاب الحياة الجنسية السليمة » من تأليف هـ. دابليو لونج وكتاب آخر بعنوان « دون ليون » يحتوى على قصيدتين منشورتين فى القرن التاسع عشر ومنسوبتين زورا إلى الشاعر المعروف اللورد بيرون . ومن المحتمل أن تكون القصيدتان من تأليف جورج كولمان والجدير بالذكر أن الباحث الشكسبيرى المعروف ويلسون نايت توفر على دراسة هاتين القصيدتين بهدف إزالة الغموض الذى أحاط بعلاقة اللورد بيرون بزوجته. وتعرضت أيضا للحظر ترجمات أربع روايات فرنسية ثلاث منها من تأليف بيتر لوز والرابعة من تأليف ج. ك. هويزمانز . إلى جانب عدد آخر من الكتب المترجمة مثل كتاب « حياة النساء النبيلات » الذى سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن مؤلفه الكاتب الاباحى برانتوم . وقامت السلطات كذلك بمصادرة ترجمتين لكتابين قام بهما مونتاجيو سمارز عن السحر والشعوذة . . أولهما بعنوان « مملكة الشياطين » الذى ألفه فى القرن السابع عشر رجل دين إيطالى اسمه لودوفيكو ماريا سينستريارى والآخر بعنوان « تاريخ ماجدالين بافنت » المنشور فى باريس عام ١٦٥٢ ولم تشفع للمترجم شهادة الشهود بأنه خبير فى موضوع السحر وأن ترجماته لها قيمتها الأنثروبولوجية . فضلا عن مصادرة نسخة نظيفة من كتاب « رجوع الشيخ إلى صباه » .

ومن الروايات التى تعرضت للمسخ والتشويه ثم المصادرة رواية

بعنوان « الصبى » تأليف جيمس هانلى . وهى تدور حول صبى فى الثالثة عشرة من عمره من الطبقة العاملة يهرب من أهله إلى حياة السفن والبحار فيلاقى الأهوال ويتعرض لاعتداء البحارة الجنسى عليه فوق ظهر إحدى السفن ويعرفه بعض زملائه البحارة ببيوت الدعارة الموجودة فى ميناء الاسكندرية . وتنتهى الرواية بأن يقوم قبطان السفينة بقتله بعد إصابته بمرض الزهرى . وفى البداية قام ناشر هذه الرواية بإصدار عدد محدود من النسخ فى طبعة غالية . وفى عام ١٩٣١ صدرت طبعة عادية من الرواية أسقط منها بعض العبارات والألفاظ الخارجة التى استبدلت بكلمات ملطفة لا تخدش الحياء . وفى عام ١٩٣٤ أعيد نشر هذه النسخة المبتورة فى طبعة رخيصة الثمن . ولكن البوليس فى نوفمبر ١٩٣٤ قام بمداهمة مكتبة عامة فى مدينة مانشيستر ووجه إلى أمين هذه المكتبة تهمة المساعدة على نشر البذاءة . وبعد ذلك اقتصر توجيه الاتهام إلى مديرى الدار المسئولة عن النشر . واعترفت دار النشر بذنبها وفرضت المحكمة عليها غرامة قدرها أربعمائة جنيه . وفى مبحث بعنوان « الحرب فى إنجلترا » ألقاه الكاتب المعروف ا. م. فورستر فى مؤتمر المؤلفين المنعقد فى باريس فى يونيه ١٩٣٥ نراه يعرب عن استنكاره لتدخل القانون لقمع الكتاب الذى أثنى عليه ووصفه بأنه « رواية لها مزايا أدبية كثيرة ».

ومن الكتب الانجليزية المحظورة أيضا رواية ألفها والاس سميث بعنوان « بيسى كوتر » ونشرتها دار هاينمان فى يناير عام ١٩٣٥ . وبعد طرح هذه الرواية فى الأسواق وبيع ستة آلاف نسخة منها أقيمت فى شهر ابريل فى نفس العام دعوى ضد الناشر تتهمه بالبذاءة . ورغم التشابه الموجود بين روايتى « الصبى » و« بيسى كوتر » فإن الرواية الثانية تخلو من القتامة التى تشيع فى الرواية الأولى . ورواية « بيسى كوتر » تتوخى الصدق والواقعية وتدور حول مومس تعيش على ما يبدو فى مدينة شيكاغو فى أوائل القرن العشرين . والصورة التى ترسمها الرواية لحياة المومس بيسى صورة غير تقليدية بالمرة

للعاهرات . فلا هى بالفتاة البائسة التى تدفعها ظروفها القاسية إلى احتراف البغاء،ولا هى بالانسانة السيئة الخلق . بل هى امرأة لطيفة المعشر لا تحب حياة العهر . ولكنها بكل بساطة تفضل أن تحصل على خمسة وعشرين دولارا فى الليلة الواحدة فى بيت الدعارة التى تديره مسز ميريل من أن تحصل على عشرة دولارات فى الأسبوع من المصنع الذى كانت تشتغل فيه . وباستثناء صفحة واحدة من لغة الخدم .. والفراشين .. الخشنة فإن الرواية تخلو من قذارة اللغة . ولكن هذا لم يمنع النائب العام من توجيه تهمة إشباع الشهوات الجنسية إلى الرواية التى حكمت المحكمة على ناشرها بغرامة قدرها مائة جنيه .

وبعد أن اكتشف المسئولون عن تطبيق قانون البذاءة فى إنجلترا أنهم ارتكبوا خطأ فى حق عالم الجنس المعروف هافيلوك إليس (والتى سبق أن تناولنا أعماله) اتبع رجال القانون فى بريطانيا سياسة غض النظر عن أية دراسة علمية عن الجنس والزواج باعتبار أنها فى العادة كتب علمية محدودة الانتشار وغالية الثمن . ولكن هذا لم يحل دون وقوع رجال القانون من آن لآخر فى أخطاء مماثلة . ففى عام ١٩٣٥ وجه الادعاء تهمة البذاءة ضد مبحث علمى أصدره ادوارد تشارلس بعنوان « الدافع الجنسى » ونشره نفس الناشر الذى سبق له نشر رواية « الصبى » لجيمس هانلى . والجدير بالذكر أنه تم عرض هذا المبحث على طائفة من الأطباء ورجال العلم المرموقين مثل عالم البيولوجيا جوليان هكسلى والدكتور جينين مدير مستشفى وستمنستر والدكتور فوج بجامعة ادنبره فأشادوا جميعا بقيمة الكتاب من الناحية العلمية .

ولم تشفع شهادة العلماء بقيمة هذا الكتاب أو أن معظم أجزائه يتناول أفكارا فلسفية وحقائق فى الكيمياء العضوية . واستند الادعاء فى توجيه تهمة البذاءة ضد هذا الكتاب إلى أن جزءا منه يعرض لتكنيك الجماع كما يمارس الشخص العادى بتفصيل دقيق . وفى بداية

المحاكمة سمحت المحكمة للدفاع أن يستدعى عددا من الشهود العلماء لابداء رأيهم فى قيمة الكتاب من الناحيتين العلمية والتربوية يضم صفوة أهل العلم : جوليان هكسيلى - مود رويدن - ج. ب. س. هولدين - جانيت تشانس مؤلفة كتاب « تكاليف الأخلاق الانجليزية » - روبرت بريفولت مؤلف كتاب « الأمهات » - برونسكو مالينوسكى مؤلف كتاب الجنس عند القبائل البدائية والهمجية » . وعندما نظر القاضى ا. رونالد باول فى القضية ركز هجومه على وصف الكتاب لأوضاع الجماع المتنوعة واقتراحه بامكانية حدوثه فى الهواء الطلق وخلال فترة الحيض . وأدان القاضى الناشر بتهمة البذاءة وأمر بتدمير جميع نسخ الكتاب . وحاول الدفاع دون جدوى الاستئناف ضد الحكم الصادر . الأمر الذى أفزع الناشرين وجعلهم يمتنعون عن نشره فيما بعد .

وفى الثلاثينات فى بريطانيا لعب مجلس اسمه مجلس الأخلاق العامة دورا نشيطا وبارزا فى مصادرة الكتب الجنسية وحظر الأنشطة التى اعتبرها المجلس منافية للأخلاق. وبعد إنشاء هذا المجلس عام ١٨٩٩ تمكن ويتنجتون انجرام الذى عين أسقفا لمدينة لندن عام ١٩٠١ من فرض سيطرته الكاملة على المجلس طوال فترة سياسته التى امتدت إلى خمسة وعشرين عاما . والذى يدل على ميل هذا الأسقف الى التزمت الفكرى إنه عارض بقوة استخدام وسائل منع الحمل كما أنه دفع المجلس إلى شن هجوم عنيف على ظهور الممثلات بملابس شبه عارية على خشبة المسرح . وفى عام ١٩٣٤ نجح المجلس فى احالة اثنين وعشرين كتابا بتهمة البذاءة إلى وزير الداخلية البريطانى .

وفى شهر مارس عام ١٩٣٨ تعالت أصوات الاستنكار فى صحيفة الديلى ميل والديلى ميرور والاسبكتاتور حول بذاءة كتاب ألفته كاتبة باسم مستعار هو شيلا كوزنتر بعنوان « الخجل من السؤال » .

وأرسلت هذه الصحف نسخا من الكتاب الذى نشرته دار روتليذج للنشر إلى وزير الداخلية والذى يتضمن السيرة الذاتية لحياة مومس . . فقام البوليس بزيارة دار النشر وهدد المسئولين عنها بالويل والثبور وعظائم الأمور . وفى تقريره السنوى عبر مجلس الأخلاق العامة عن زهوه بالدور النشيط الذى لعبه فى حظر هذا الكتاب . غير أن هذا الحظر أثار غضب سيدنى سميث فشن هجوما ضاريا على كافة المجالس التى تزعم أنها تصون الأخلاق العامة وتحمى حماها . ولم ترق المصادرات المتكررة فى عين رجل اسمه جاك كاهان فأنشأ فى عام ١٩٣١ دار أوبليسك (أى المسلة) للطباعة والنشر فى مدينة باريس لمقاومة سياسة قمع الكتب وحظرها . وقام بنشر مجموعة من الروايات الانجليزية التى تعرضت للحظر مثل « بئر الوحشية » و « المراسلة بدون أكمام » و « الصبى » و « بسى كوتر » و « الخجل من السؤال » كما قامت دار أوبليسك بنشر بعض الأعمال الروائية الأخرى ذات القيمة الأدبية التى أحجم الناشرون بسبب الخوف والتهيب من العقاب عن نشرها . ويجدر بالذكر أن دار هوجارث للطباعة والنشر كانت على وشك إصدار الكتاب الذى ألفه سيريل كونوللى بعنوان « بركة صخرية » غير أن الدار أحجمت عن نشره بسبب الرعب الذى انتابها عقب تقديم رواية « بيسى كوتر » للمحاكمة . ولكن دار أوبليسك لم تأبه نحو الرعب السائد وأقدمت عام ١٩٣٦ على نشر رواية سيريل كونوللى ثم « الربيع الأسود » باكورة مؤلفات لورانس داريل فى عام ١٩٣٨ فضلا عن نشرها سيرة حياة فرانك هاريس الذاتية « حياتى وغرامياتى » .

ويرجع أكبر جميل أسداه الناشر جاك كاهان إلى الأدب العالمى أنه نشر عام ١٩٣٤ رائعة الكاتب الأمريكى هنرى ميلر « مدار السرطان » التى حظيت بثناء أعظم الأدباء الانجليزى عليها أمثال ألدوس هكسلى وت. س. إليوت وإزراباوند . ويعترف لورانس

داريل دون مواربة بفضل ميلر عليه ورغم أن مصلحة الجمارك فى كل من إنجلترا وأمريكا وقفتا بالمرصاد لكتابى « الربيع الأسود » و « مدار السرطان » فقد تمكنا من اختراق الحصار المفروض عليهما وذاعت شهرتهما فى جميع أنحاء العالم . ويسوق جورج أورويل الأسباب التى تدعوه إلى الاعجاب برواية « مدار السرطان » فيقول إن أولها ان لغتها الانجليزية تتميز بإيقاع فريد.وثانيها انه عالج فى روايته حقائق معروفة لكل إنسان لم يجرؤ واحد قبل ميلر على طبعها بين دفتى كتاب ومثال على ذلك عندما يكون فتى منهمكا فى مطارحة فتاته الغرام ولكنه مشغول البال عنها بسبب رغبته الشديدة فى الذهاب إلى دورة المياه ليتبول.وثالث الأسباب قدرة المؤلف على أن يجوس فى أرض الأحلام دون أن يترك أرض الواقع أو يبتعد عنها كثيرا . ويقول أورويل أيضا ان سيطرة ميلر الفائقة على استخدام الألفاظ ساعدته على الانتقال من عالم الواقع إلى عالم الخيال ومن الحديث عن المراحيض إلى الحديث عن الملائكة دون أدنى مجهود أو عناء وبطريقة طبيعية لا تشعرنا بأية غرابة .

الرقابة فى فترة الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها

بالرغم من انشغال الانجليز بالأحداث الجسام الخاصة بالحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) فقد ظل البوليس البريطانى يطارد الكتب الجنسية ويسعى إلى قمعها . وشاهد عام ١٩٤٢ نشاطا ملحوظا مارسته السلطات فى قمع الكتب الجنسية الصادرة إبان الحرب العالمية الثانية . ورغم أن معظم هذه الكتب اتسم بالغثاثة والتفاهة فإن عملية القمع امتدت لتشمل كتابين فى التربية الجنسية كانا على قدر من الأهمية . أولهما كتاب بعنوان: « الحب دون خوف » أصدره فى نوفمبر ١٩٤٠ عالم النفس وطبيب أمراض النساء الدكتور يوستاس تشسر . ويشرح الدكتور تشسر فى كتابه كيف يتسبب الجهل

بأمور الجنس فى تعاسة الكثير من الأزواج.ويتناول الكتاب بعض الممارسات الجنسية الشاذة مثل تقبيل الأعضاء التناسلية واستخدام اليد فى إثارة المرأة والتلذذ الجنسى بالضرب وغير هذا من الأمراض الجنسية .

وكان نظام المحاكمات فى انجلترا آنذاك يضع المتهم أمام خيارين أحلاهما مر . فهو إما أن يختار أن يحاكم أمام قاض يفرض عليه فى حالة إدانته غرامة مالية محدودة، وبين أن يحاكم أمام المحلفين. فإذا حدث أن فشل فى استمالتهم إلى جانبه واقناعهم بإخلاصه يتعرض لدفع غرامة باهظة . . ومع هذا فقد فضل الدكتور تشسر من فرط إيمانه بقضيته أن يحاكم أمام نظام المحلفين رغم ما قد ينطوى عليه من مخاطر . واستطاع هذا الرجل اقناع المحلفين ببراءته بسبب ما تركه فيهم دفاعه عن نفسه من أثر طيب . ولكن الانتصار الذى أحرزه الدكتور تشسر كان انتصارا فرديا وليس انتصارا لكل المهتمين بنشر الثقافة الجنسية . فقد أنشأ أحد الأشخاص شركة تجارية عملها إعادة الكتب بالمراسلة للمشتركين وخاصة كتب التربية الجنسية . وفى عام ١٩٤٢ داهم البوليس مقر الشركة الرئيسى فى مدينة بليموث واستصدر أمرا بتدمير عشرة عناوين كتب وفقا لقانون المطبوعات البذيئة الصادر فى عام ١٨٥٧ . ونجح الاستئناف فى استبعاد ثمانية كتب .. من أمر التدمير ولكنه فشل فى انقاذ الكتابين التاليين : « قوة الحب » (١٩٣٥) تأليف ادوين هيرش و « حب مدى الحياة » (١٩٣٨) تأليف رينيه ماك اندرو . واتخذ البوليس الأجراءات القانونية ضد الشركة ووجه إلى مديرها وزوجته تهمة نشر الكتب البذيئة ومن بينها « موسوعة المعارف الجنسية » (١٩٣٤) وموسوعة الممارسات الجنسية (١٩٣٨) ولم يشأ مدير الشركة أن يزج باسم زوجته ـ وهى المالكة الاسمية ـ فى القضية فاعترف بأنه مذنب أمام المحكمة التى انعقدت بتاريخ ٢٩ اكتوبر ١٩٤٢ . والجدير بالذكر أن

جوليان هكسلى امتدح موسوعة المعارف الجنسية فى مجلة « الليسنر » و « النيوستسمان » وأن ما لايقل عن خمسين ألف نسخة كانت قد بيعت فى المملكة المتحدة وحدها . وحكم القاضى على مدير الشركة المذكورة بالحبس لمدة ستة أشهر ودفع غرامة مائة جنيه وأتعاب بقيمة مماثلة . وجاء الاستئناف ليؤيد هذا الحكم الذى اعتبره الكثيرون جائرا . واحتجوا عليه لأنه أدان مدير الشركة وحده فى حين أن المئات لعبوا أدوارا ملحوظة فى نشر «وتوزيع وموسوعة المعارف الجنسية » وتمخض هذا عن صدور لوائح عام ١٩٤٦ القاضية بضرورة قيام البوليس المعنى بأية قضية بذاءة بتبليغ مدير الادعاء العام بنتائج التحقيق حتى يتمكن هذا المدير من معرفة إذا كانت هناك أطراف أخرى ينبغى اقامة الدعوى ضدها أم لا . فقد لوحظ أن البوليس كثيرا ما يقيم الدعوى على صاحب مكتبة أو بائع كتب فى الأقاليم دون أن يشمل الاتهام مؤلف الكتاب أو ناشره فى لندن . ومعنى ذلك أنه كان يترك الأصل ويمسك الفرع .

وفى يونية عام ١٩٥٠ استدعى البوليس فى مدينة بلال بول فى انجلترا أصحاب محل لبيع وسائل تحديد النسل واتهمهم بمقتضى قانون ١٩٥٧ بالاتجار فى كتب الجنس البذيئة . . وتضم هذه الكتب خمسة كتب فى التربيه الجنسية من تأليف رينيه ماك أندرو من بينها « الحب مدى الحياة » و « الخروج عن القواعد » و « الانحرافات » وشمل الاتهام أيضا كتابين آخرين فى التربية الجنسية هما « كلام صريح » و « الصعوبات الجنسية » من تأليف ف . ب.روكسترو . وبعد تقديم هذه الكتب إلى المحاكمة بتاريخ ٢٤ يوليو من ذلك العام انبرى للدفاع عنه الخبير و . س . بولارد على أساس أن لها قيمة تربوية وأنها ذات فائدة لعامة الناس . ولكن هذا الدفاع لم يجد فتيلا فقد أدانها القاضى جميعا باستثناء كتاب واحد هو « الحب مدى الحياة » .

وفى العادة لم يتعرض تجار الكتب القديمة والنادرة لمضايقة رجال الشرطة أو القانون لهم . ولكن فى مايو ١٩٥١ حدث شيء غيرعادى فى مدينة بول فى منطقة دورست حيث قام البوليس بضبط أربعة وعشرين كتابا فى محل لبيع الكتب القديمة . وأمر القاضى بتدمير معظم هذه الكتب وهى باللغة الفرنسية باستثناء تسعة منها . وكان من بين الكتب المضبوطة كتاب نادر مطبوع عام ١٨١٦ عز على تاجر الكتب القديمة أن يدمره البوليس فاقترح عليه ارساله إلى مكتبة المتحف البريطانى . وفى معرض دفاعه عن نفسه ذكر هذا الرجل أن كثيرا من عملائه أطباء ومتخصصون فى علم النفس أمثال البروفيسور ألفرد س . كنزى الذى كلفه بامداد المعهد الأمريكى بالكتب .

وفى ١٧ يناير ١٩٥٢ قام البوليس الانجليزى بمداهمة محل لبيع المجلات العارية وفقا لأحكام القانون الصادر عام ١٨٦٧ . وأمر القاضى بتدمير المجلات المضبوطة ومن بينها مجلة « حمامات الشمس » و « الصحة والكفاءة » لاحتوائها على صور عارية للرجال والنساء . واعترض ناشرو هذه المجلات على ذلك وذهب محاموهم إلى أن هذه الصور العارية ليس فيها ما يشين وشرحوا فوائد العرى الصحية . وذكر الدفاع أن القانون فى الدانمارك والسويد والنرويج وسويسرا لا يحظر الدعوة إلى العرى كما أنه لا يحظر الرسوم والصور والتماثيل العارية غير أن القاضى الانجليزى أشاح بوجهه عن هذا الدفاع وأمر بتدمير كل المجلات المضبوطة .

دار أوليمبيا للطباعة والنشر

والجدير بالذكر أن رواية « عنبر إلى الأبد » (١٩٥٧) للكاتبة الأمريكية كاثلين ونسور تعرضت لهجوم المحاكم الأمريكية عليها فضلا عن أن الجمارك البريطانية حظرت دخولها إلى بريطانيا،وقد

فعلت بعض المكتبات العامة مثل مكتبة برمنجهام الشيء نفسه-وإلى جانب هذا قامت الجمارك البريطانية بمصادرة رواية « مولوى » لصامويل بيكيت و « لوليتا » لفلا ديمير نابوكوف المنشورتين فى باريس عام ١٩٥٥ وبعد مرور عامين تدخلت هذه الجمارك عام ١٩٥٧ لقمع رواية فرنسية من تأليف الكاتب جان جينيه كانت المكتبة العامة فى برمنجهام قد طلبت نسخا منها من باريس لضمها إلى قسم المراجع بالمكتبة . ولم يشفع لجينيه لدى الجمارك البريطانية انه واحد من أهم الأدباء فى الغرب ممن يتوخون الواقعية فى أدبهم ويحذقون وصف الطبقات الدنيا فى المجتمع . ولم تأبه الجمارك بلغة الرواية الفرنسية التى تحول دون ذيوعها بين المواطنين الانجليز . والغريب فى الأمر أن الوفد الذى أرسلته مكتبة برمنجهام إلى مصلحة الجمارك فى لندن كان يجهل اللغة الفرنسية كما أنه لم يعترض على قمع مصلحة الجمارك البريطانية للرواية بسبب ما تضمنته من شذوذ جنسى .

ويجدر بنا التنويه بأن رواية « مولوى » لبيكيت و « لوليتا » لنابوكوف والترجمة الانجليزية لرواية « صحيفة اللص » لجينيه التى كتب جان بول سارتر مقدمة لها قامت باصدارها جميعها دار نشر واحدة هى دار أولمبيا للطباعة والنشر التى كانت شوكة فى جنب الرقيب الانجليزية بسبب نوعية الكثير من مطبوعاتها وقد حلت هذه الدار محل دار « أوبليسك للنشر » التى توفى صاحبها اليهودى جان كاهان فى عام ١٩٣٩ والتى آلت بالوراثة إلى ابنه موريس من بعده . ويسبب الممارسات القمعية الغاشمة التى مارسها الاحتلال النازى فى باريس وفرنسا اضطر موريس إلى انتحال اسم والدته جيرو دياس والتخلى عن اسم والده اليهودى حتى يتجنب بطش النازيين به بسبب أصله اليهودى.وفى عام ١٩٥١ قام موريس ببيع دار النشر التى ورثها عن أبيه وأقام بدلا منها عام ١٩٥٣ دار نشر أخرى سماها دار أوليمبيا للنشر . واحتذى الابن حذو الأب فى نشر أعمال هنرى ميلر،كما أن

الفضل يرجع إليه فى نشر نسخة منقحة من كتاب هام بعنوان « عالم الجنس » و « ثلاثية الصليب الوردية » وفى عام ١٩٥٥ نشر موريس رواية جيدة ألفها ج . ب دون ليفى بعنوان « رجل الجنزبيل » التى استبعد المؤلف أجزاءها البذيئة من أجل نشرها فى بريطانيا . وكما أسلفنا فإن الفضل يرجع إلى دار أولمبيا للنشر فى نشر رواية « لوليتا » الشهيرة التى عجز مؤلفها نابوكوف عن العثور على ناشر أمريكى لها . والرواية تتناول غواية رجل فى الأربعين لفتاة فى الثانية عشرة من عمرها . والغريب فى الأمر أن مصلحة الجمارك الأمريكية لم تعترض على استيراد هذه الرواية من باريس لتوزيعها فى الولايات المتحدة فى حين أن الجمارك البريطانية حظرت دخولها إلى الأراضى الانجليزية . ولم تسمح السلطات الانجليزية بدخول الرواية فيها إلا عام ١٩٥٥ عندما رشحها الروائى الانجليزى المعروف جراهام جرين فى صحيفة الصنداى تايمز كواحد من أهم ثلاثة كتب صدرت فى ذلك العام . وشجع هذا التقريظ جون دوجلاس على شراء نسخة من « لوليتا » وقراءتها الأمر الذى استفزه فوصفها بأنها دون شك أقذر كتاب قرأه فى حياته وأنها لا تعدو أن تكون أدبا جنسيا فاضحا . وبعد نشرها فى أمريكا عام ١٩٥٨ كأحسن رواية من حيث المبيعات والتوزيع تناولها الناقد الأمريكى المرموق ليونيل تريلنج فى مقال مستفيض فى مجلة « انكونتر » وفى عام ١٩٥٩ سمح الانجليز بنشرها فى بلادهم عقب صدور قانون المطبوعات البذيئة الجديد .

وفى عام ١٩٥٩ قامت دار أولمبيا للنشر باصدار كتاب بالغ الأهمية ألفه السير روجر كاسمنت بعنوان « يوميات سوداء » . والسير كاسمنت واحد من أنشط المشتركين فى الحركة الوطنية الايرلندية انتهى الأمر باعدامه بسبب الدور البارز الذى لعبه فيها يعرف بتمرد عيد القيامة عام ١٩١٦ . وقد قام البوليس بضبط « يوميات » كاسمنت عندما جاء للقبض عليه . وسمحت السلطات الانجليزية

بوصول مخطوط اليوميات (التى رأت أنها تحتوى على بذاءات جنسية واشارات إلى ممارسات للشذوذ الجنسى) إلى عدد كبير من الشخصيات فى كل من بريطانيا وأمريكا بهدف تشويه سمعة هذا الثائر الايرلندى.وتقدمت دار أولمبيا للطباعة والنشر بطلب إلى وزارة الداخلية البريطانية كى تعطيها نسخة من اليوميات تمهيدا لنشرها وبالفعل وافقت هذه الوزارة على النشر بعد استبعاد بعض الأجزاء . وأيضا نشرت دار أولمبيا كتابا لأوبرى بيرد سِلى بعنوان « فينوس وتانهوسر » يدور حول الحساسية الجنسية المفرطة التى يكابدها مرضى السل .

والجدير بالذكر أن القانون البريطانى كان لا يحمل المؤلف والناشر وحدهما مسئولية المادة المنشورة بل يحمل صاحب المطبعة المسئولية أيضا ، الأمر الذى حدا بكثير من أصحاب المطابع إلى الاضطلاع بدور الرقيب غير الرسمى الجاهل والظلامى فى كثير من الأحيان فعندما تجرأ ناشر انجليزى وأقدم على نشر الترجمة الكاملة لأعمال زولا الروائية لم تسلم رواية « الأرض » من عنت أصحاب المطابع الذين رفضوا نشرها خوفا من وقوعهم تحت طائلة القانون.أكثر من هذا أن القانون الانجليزى كان يعتبر شريكا فى المسئولية كل من يساعد على توزيع الكتب البذيئة عن طريق البريد . وقد تعرض كتاب « النعناع » الذى ألفه رحالة انجليزى معروف والذى اتضح فيها بعد أنه مصاب بالشذوذ الجنسى للحصار الذى فرضته الرقابة عليه . فلم يسمح بنشره فى صورته الكاملة إلا بعدد قليل للغاية فى حين أنه تم استبعاد بعض الألفاظ والعبارات بل واحدى الفقرات من نسخة الكتاب المنشور لعامة القراءة .

قانون المطبوعات البذيئة لعام ١٩٥٩

لعل أهم وأخطر تطور شهدته القوانين البريطانية هو صدور قانون

المطبوعات البذيئة لعام ١٩٥٩ . وهو القانون الذى أسهم فى العام التالى (١٩٦٠) فى تبرئة رواية د . هـ . لورانس المعروفة « عشيق الليدى تشاترلى » . وقد سبقت صدور هذا القانون حملة فى أوائل الخمسينات ضد الرذيلة قادها وزير الداخلية السير دافيد ماكسويل فايف الذى عين فى وظيفته عام ١٩٥١ . . وأثناء توليه الوزارة حرص ماكسويل فايف على ملاحقة الشواذ جنسيا ومطاردة البغايا واستئصال شأفة الأدب المكشوف . ففى عهده رفعت فى عام ١٩٥٣ وحدها ١٩٧ قضية ضد المطبوعات البذيئة . وفى سويندون أصدرت المحكمة أمرا بتدمير ترجمة ج . م . ريج الكاملة لكتاب بوكاشيو المعروف « ديكاميرون » ورغم أن مدير النيابة العامة أيد هذا الحكم فإن قاضى الاستئناف مالبث أن أمر بالعدول عنه .

وجأر كثير من الناشرين بالشكوى من تعسف القضاء فى تطبيق قوانين البذاءة.فهو يعاقب البعض ويترك البعض الآخر دون عقاب . واعترض ناشران انجليزيان على هذا التعسف كانت المحكمة قد عاقبتهما لنشر أعمال رجل يكتب باسم مستعار هذا الرجل هو هانك جانسن ، ويبدو أن هذين الناشرين دافعا عن نفسيهما بتقديم مجموعة من الكتب المنشورة والمتداولة آنذاك التى تفوق فى بذاءتها نشراه ، وطلب الناشران من المحلفين أن يقوموا بالاطلاع على الكتب الأخرى المقدمة إليهم حتى يستوثقوا بأنفسهم من ذلك . ولكن اللورد جودارد فى ١٥ مارس ١٩٥٤ رفض الاستئناف المقدم فى هذه القضية بقوله إن قانون انجلترا لا يختلف عن قانون اسكوتلندا فكلاهما ينص على ضرورة قراءة المحكمة للكتاب موضع الاتهام حتى تستوثق من بذاءته . ولكن اللورد جودارد أضاف أنه من العبث وضياع الوقت أن تنصرف المحكمة إلى قراءة الكتب والأعمال الأخرى بهدف عقد المقارنات . وتحفظ اللورد جودارد قائلا:انه ينبغى على السلطات المختصة أن تتولى فحص الكتب الأخرى . ويبدو أن هذه الملحوظة

الأخيرة نبهت أذهان المسئولين فقاموا إثر ذلك بتقديم خمس روايات إلى النيابة العامة. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذه الروايات الخمس لم تكن تختلف فى شىء عن سائر الكتب التى تتولى المطابع ودور النشر اصدارها آنذاك ، الأمر الذى يدل على تعسف القضاء الانجليزى فى تطبيق قوانين البذاءة . وهذه الروايات الخمس هى « الصورة والبحث » تأليف والتر باكستر و « سبتمبر » تأليف فيفيان كونيل و « الرجل المسيطر » تأليف تشارلس ماكجرو و « جوليا » تأليف مارجو بلاند و « المغازل » تأليف المؤلف الأمريكى ستانلى كوفمان .

رواية المغازل

فى عام ١٩٥٤ اعترضت الرقابة فى بريطانيا على نشر رواية « المغازل » التى ألفها الكاتب الأمريكى ستانلى كوفمان رغم انه سبق نشر هذا الكتاب فى الولايات المتحدة بعنوان « الحبل المشدود » دون أن يثير لغطا أو سخطا بين الناس، وعندما رفع مدير النيابة العامة دعوى ضد الرواية استقبلها ناشرو الرواية بالتحدى وطالبوا بمحاكمتهم أمام قاضى وهيئة من المحلفين . وتولى النظر فى القضية القاضى ستابل أمام محكمة الأولدبيلى فى لندن . وطلب القاضى من المحلفين أن يذهبوا إلى بيوتهم ويتوفروا على قراءة الكتاب من الألف إلى الياء كما طلب منهم عدم التركيز على الأجزاءالتى يرون أنها تتضمن ميلا إلى الانحلال بل أن يقرأوا الكتاب ككتاب .

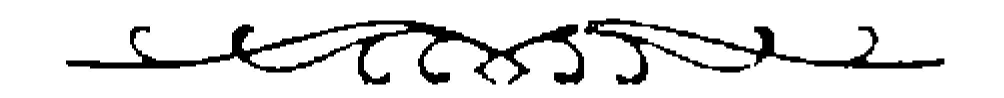
ولقضية « المغازل » أهمية خاصة فى تاريخ القضاء البريطانى فهى التى مهدت السبيل إلى إصدار قانون المطبوعات البذيئة لعام ١٩٥٩ الذى استندت إليه محاكمة « عشيق الليدى تشاترلى » والذى ينص على ضرورة الحكم على الكتاب ككل بغض النظر عن بذاءة بعض أجزائه كما ينص أيضا على تبرئة الكتاب من تهمة البذاءة ، إذا تبين

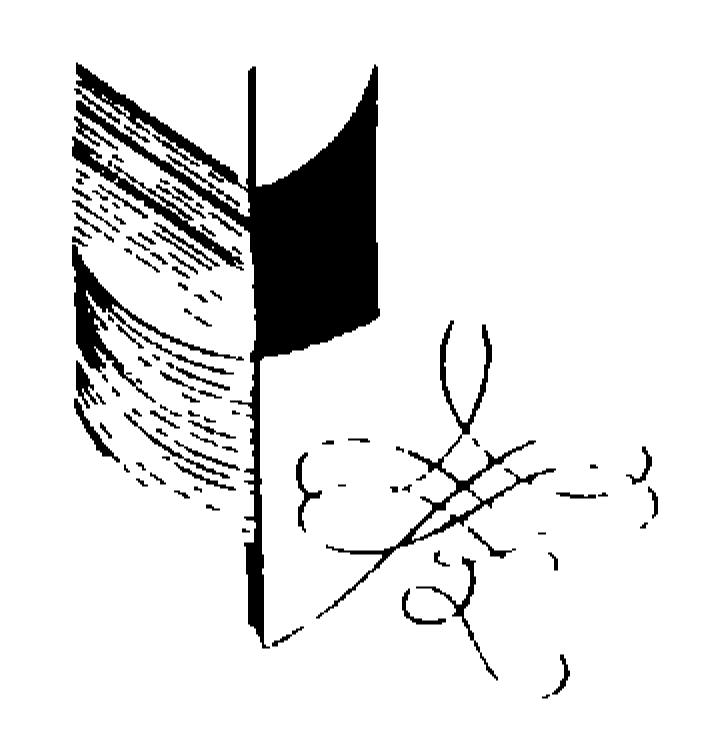
أنه يهدف إلى النفع العام أو أن له قيمة أدبية أو علمية ، أو تربوية
وذهب القاضى الى أن القانون الذى تحاكم به رواية « المغازل » هو
نفس القانون الصادر عام ١٨٦٨ أى منذ ما يقرب من مائة عام .
ولهذا نراه يوصى المحلفين بضرورة استقصاء الأثر الذى يتركه الكتاب
فى مجتمع اليوم وليس فى مجتمع الأمس أيام العصر الفكتورى .
فالمعايير تتغير بتغير الزمان. وأردف القاضى محذرا بأنه حتى إذا كان
الكتاب لا يصلح لأن تقرأه فتاة مراهقة مهذبة فى الرابعة عشرة من
عمرها أو أن يقرأه طفل فى رياض الأطفال فليس معنى هذا أن نشر
الكتاب وإتاحة الفرصة أمام الجمهور للحصول عليه يعتبر جريمة
يعاقب عليها القانون . وسمح القاضى لناشر الرواية المستر فردريك
واربيرج أن يغادر قفص الاتهام ويجلس بجوار الدفاع طوال فترة
المحاكمة ، الأمر الذى جعل هذا الرجل يعبر عن شكره وامتنانه .
وفى تلخيصه للقضية شن القاضى هجوما عنيفا على ضحالة الأدب
المكشوف. وغثاثته وخلوه من الفكر وافتقاره إلى الالهام ، ثم نراه يحذر
المحلفين من مغبة الغلواء بقوله : « ولكننا إذا دفعتنا رغبتنا فى إقامة
مجتمع صحى إلى المغالاة فى تطبيق قانون العقوبات أفلن يكون هناك
خطر من حدوث ثورة ورغبة فى تغيير القانون وألن يصبح رد الفعل
المضاد عنيفا ، الأمر الذى قد يسمح بتسرب أشياء من الممكن
اقصاؤها واستبعادها فى هذه اللحظة الراهنة » . وبعد الاطلاع على
« المغازل » أصدرت هيئة المحلفين المكونة من تسعة رجال وثلاث نساء
قرارهم بتبرئة الكتاب من تهمة البذاءة الموجهة إليه . ورحب
الليبراليون بهذا الحكم واعتبروه أعظم حكم مستنير فى قانون البذاءة
قيض للقضاء البريطانى أن يصدره منذ الحكم الذى أصدره القاضى
كوكبرن فى قضية هيكلين والذى سبق أن أشرنا إليه .

وتضافر الرأى العام المثقف والمستنير وانبرى للدفاع عن الرواية
ضد قانون المطبوعات البذيئة القديم الذى اتسم بالتغير والتعسف فى

تطبيقه واجتمعت لجنة مكونة من نحو عشرين مؤلفأ وناقدا وصحفيا وناشرا ومحاميا وكذلك أعضاء جمعية المؤلفين ومجلس الفنون لتدارس هذا الموضوع وطرحه على بساط البحث . وقبل حلول اعياد الكريسماس فى ١٩٥٤ قدمت هذه الجمعية تقريرا يتضمن ماتوصلت اليه من نتائج الى الماجور لويد جورج الذى خلف السير دافيد ماكسويل فايف كوزير للداخلية . وتقدم المستر نورمان سانت جون ستيفاس عضو اللجنة المتخصص فى القانون بمشروع قانون يهدف الى تعديل قانون المطبوعات البذيئة الحالى كما يهدف فى نفس الوقت الى تعزيزه . وفى ١٥ مارس ١٩٥٥ قام مستر روى جينكنز بتحويل مشروع قانون المطبوعات البذيئة الجديد الى مجلس العموم كى يتوفر على دراسته . ولكن المجلس أرجأ البت فيه لعدة سنوات . وفى تلك الفترة انشغل الرأى العام البريطانى بمشكلة أخرى هى انتشار رسوم كارتون الأطفال التى انصبت على تصوير الجرائم والفظائع ومناظر الرعب ، الأمر الذى سبب انزعاجا شديدا لدى المعنيين برفاهية المراهقين والأطفال فدفع السلطات الى الاسراع باصدار قانون المطبوعات الضارة الخاص بالأطفال والشباب لعام ١٩٥٥ . ولكن هذا التباطؤ والارجاء من جانب البرلمان لم يفت فى عضد المطالبين بتعديل قانون المطبوعات البذيئة الذين أصروا على ضرورة اجراء التعديلات عليه . واضطر مجلس العموم امام هذا الالحاح الى تكوين لجنة فى نهاية عام ١٩٥٧ وأوائل عام ١٩٥٨ للنظر فى مدى الحاجة الى تغيير قوانين البذاءة المعمول بها . واستمعت اللجنة الى آراء وشهادة ممثلى قطاعات المجتمع من العاملين بالمصالح الحكومية ورجال الشرطة والمؤلفين والناشرين وأصحاب المطابع ومجلس الاخلاق العامة وغيره من الجمعيات المتطوعة وكان الأديبان الكبيران ت . س . اليوت وا . م . فورستر من صفوة المثقفين الذين استرشدت اللجنة بآرائهم . وفى عام ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ وضعت اللجنة تقريرها ومرة اخرى قام

روى جنيكنز برفع مشروع قانون المطبوعات البذيئة الجديدة للبرلمان الذى اشاح بوجهه للمرة الثانية عنه . وهنا تدخل السير آلان وهدد بالاستقالة من مجلس العموم إذا أصرت الحكومة على تجاهل القانون الجديد ، الأمر الذى اضطرها فى نهاية الأمر بعد كثير من الارجاء والمساومات الى اصدار قانون المطبوعات البذيئة بتاريخ ٢٩ أغسطس ١٩٥٩ .





الفصل الخامس

كومستوك والرقابة فى أمريكا

أنتونى كومستوك (١٨٤٤ - ١٩١٥)

يخطىء المرء اذا ظن ان عنت أنتونى كومستوك نشأ من فراغ فشراسته غير الطبيعية فى مكافحة الأدب المكشوف وجدت صدى هائلا فى نفوس عدد غير قليل من الناس . ولعله من المفيد ان أتناول الضغوط التى تعرضت لها طائفة كبيرة من المؤلفات الأمريكية وغير الأمريكية بسبب التزمت البيوريتانى الذى ساد جانبا كبيرا من الحياة الأمريكية فى القرن التاسع عشر وخاصة فى النصف الثانى منه بسبب الارهاب الفكرى الذى فرضه كومستوك على المثقفين الأمريكان. فقد اعتبر البعض منهم كتاب « الرجال والنساء » (١٨٦٤) لروبرت براونج كتابا منافيا للأخلاق . ولعلنا نذكر أن الشرطة داهمت المكتب الذى يعمل فيه الأديب والت ويتمان بحثا عن نسخة من كتابه « أوراق الحشائش » (١٨٥٥) وتعللت ببذاءة الكتاب لطرده من وظيفتة كما الصق البعض تهمة البذاءة برواية « الخطاب القرمزى » (١٨٥٠) لهو ثورن و « هاكلبى فين » (١٨٤٤) لمارك توين،بل ان الجمود الفكرى عند البروتستانت البيورتانيين تجاوز الحدود عندما اقترح بعضهم تطهير رسائل اللورد تشستر فيلد (وهى من عيون الأدب الانجليزى الكلاسيكى) الموجهة الى ابنه فى الصفحات التى تتناول علاقة الرجل بالمرأة بشكل صريح ولكن هذا التشدد البيورتيانى على ايه حال لم يمنع سعى الناس الى قراءة الروايات التى تعالج الجنس بجرأة بل ان احدى الروايات الأمريكية المنشورة فى تلك الفترة لم تجد غضاضة فى انجاب الأطفال خارج نظام الزواج .

بدأ كومستوك حياته بالعمل فى سلك الرقابة ثم اصبح عضوا بارزا فى جمعية الشبان المسيحيين . واليه يرجع الفضل فى تأسيس جمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة التى خرجت من عباءتها جمعية أخرى لنفس الهدف تولى رئاستها القسيس ج. فرانكلين تشاس . وأخيرا عينته

مصلحة البريد مندوبا خاصا لها وأسندت اليه مهمة تنفيذ القوانين الخاصة بالبذاءة . وظل يشغل هذه الوظيفة حتى وفاته عام ١٩١٥ . وتتلخص حملته الضارية ضد أدب الجنس فى هذا الشعار : « نعم للاخلاق ولا للأدب أو الفن » وهى دعوة بادية السذاجة والسخافة معا . وبسبب قساوة قلبه نراه يفخر بأنه دفع العديد من ضحاياه الى الانتحار . ففى عام ١٨٧٤ استطاع الوقيعة بامرأة عجوز تعرف باسم مدام ريستل تخصصت فى استخدام وسائل منع الحمل واجراء عمليات الاجهاض وفضلت هذه المرأة العجوز أن تواجه الانتحار على أن تواجه المحاكم . يقول كومستوك فى هذا الصدد مفاخرا : ان ترتيب هذه المرأة « الخامس عشرة » فى قائمة المنتحرين تحت وطأة سياطه الداعية الى الفضيلة ومكارم الأخلاق . كما أنه قدم الى المحاكمة بتهمة البذاءة ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص اتضح ان تسعين فى المائة منهم ابرياء . وهو مسئول عن تدمير اكثرمن مائة وستين طنا من المطبوعات البذيئة واكثر من ثمانية عشرألف رطل من قوالب الرصاص المستخدمة فى الطباعة ونحو أربعة ملايين صورة فاضحة وسبعة عشر الف نيجاتيف لطبع هذه الصور، وكان كومستوك يتبع اسلوبا ماكرا وخبيثا للوقيعة بضحاياه فقد كان يكتب خطابات مزورة لتجار الكتب الذين يشتبه فيهم تعبر عن عظيم اهتمامه بكتبه وبرغبته فى اقتناء بعضها . وبمجرد ان ينجح فى شراء النسخ المطلوبة يتزعم حملة يقودها بنفسه لمداهمة المكتبات التى تبيعها وهى فى حالة تلبس . ثم يقوم برفع الأمر الى القضاء . بل ان نفوذه فاق فى كثير من الأحيان نفوذ القضاء .

وفى عام ١٩٠٥ هاجم كومستوك مسرحية برناردشو عن البغاء « مهمة المسز وارين » ونعتها بالقذارة فانتقم منه شو بأن صاغ عنه كلمة جديدة هى « الكومستوكية » التى دخلت قاموس اللغة الانجلو- أمريكية . وبسبب هجوم كومستوك على هذه المسرحية ازدادت رغبة

الجمهور فى مشاهدتها واصطفوا فى طوابير طويلة أملا فى حجز مكان فى المسرح الذى يقدمها . وكعادته سخر شو من كومستوك بقوله : ان الكومستوكية هى النكتة الباقية التى يطلقها العالم على حساب الولايات المتحدة » .

اعتبر كومستوك نفسه مبعوث العناية الالهية الذى جاء لتطهير العالم من الفساد وأوشاب الجنس ويقال ان هوس هذا الرجل بالجنس مرجعه أن صديقا له زاغ وفسد وداهمه المرض بسبب انحرافه فى تيار الملذات . ونبهت الكومستوكية أذهان الناس الى مايعتبره البعض بذاءات فى رواية « ثلاثة اسابيع » لالينور جلين الأمر الذى ادى الى قيام بعض الولايات الأمريكية بحظرها ومنع ارسالها عن طريق البريد . ويمكن القول ان الارهاب الفكرى والدينى الذى فرضه كومستوك على الحياة الأمريكية استمر لفترة بلغة ثلاثة أرباع قرن. ولكن نجم الكومستوكية بدأ فى الأفول نحو عام ١٩٢٠ وأخذ فى الانقشاع نحو عام ١٩٣٠ . ففى عام ١٩٢٠ قدم كتاب « جرجين » الذى ألفه جيمس برانش كابل الى ساحة القضاء ولكن القاضى نوت الذى نظر فى أمره استطاع ان يقنع هيئة المحلفين فى ولاية نيويورك ببراءة هذا الكتاب من تهمة البذاءة الأمر الذى يعتبر انتكاسة للكومستوكية : وحتى نتبين مقدار سطوة الرجل الذى عينه الرئيس الأمريكى ويلسون ليمثل الولايات المتحدة فى مؤتمر الطهارة الدولى المنعقد فى معرض سان فرانسيسكو نقول ان نفوذه الشخصى كان يفوق نفوذ القانون . فقد كان يكفى ان يصدر كومستوك واعوانه من امثال القس ج. فرانكلين تشا س رئيس جمعية بوسطن لمحاربة الرذيلة تعليماتهم للناشرين بالامتناع عن نشر بعض الكتب حتى يرضخ هؤلاء الناشرون لهذه التعليمات دون تعقيب أو اعتراض . وكانت هذه الطريقة غير الرسمية فى محاربة الأدب المكشوف اكثر نجاحا وسرعة من اتخاذ الاجراءات القانونية البطيئة والمعطلة . وفى كثير من الأحيان كانت

الكتب التى يحظرها كومستوك واتباعه مصرح ببيعها وتداولها من قبل مصلحة البريد والجهات الرقابية الرسمية الأخرى .

وخلال فترة الارهاب الذى فرضه كومستوك وخلفه تشاس على الحياة الأمريكية شاهدت بوسطن أكثر من غيرها من المدن الأمريكية اضطهادا واسع النطاق للمؤلفات الأمريكية وغير الأمريكية فقد شملت قائمة الحظر الكتب التالية : « المرجانترى » لسنكلير لويس و « أنتيك هاى » لأولدوس هكسلى و « الزيت » لأبتون سنكلير و « التراجيديا الأمريكية » لثيودور درايزر و « الشمس تشرق أيضا » لارنست همنجواى و « عالم وليم كليسولد » تأليف هـ . ج . ويلز و « شبان عشاق » لمايكل آرلين و « السموات السود » لكارل فان فيتشتين و « القوة » لليون فيختوانجر و « النقل لمانهاتن » لجون دوس باسوس و « الضحك الأسود » لشيروود أندرسون و « الحياة الخاصة لهيلين فى طردواة » لجون أرسكين . ومعظمها كما أسلفنا كتب مسموح بها من قبل الرقابة الرسمية ويمكن لأى مواطن أمريكى ان يحصل عليها بالمراسلة عن طريق مصلحة البريد .

ويتمثل أعظم انجاز حققه كومستوك فى حياته فى انه تمكن عام ١٨٧٣ بمساعدة بعض الأشخاص أمثال صامويل كولجيت و ج . ب . روكفلر من تعبئة الرأى العام داخل الكونجرس الأمريكى من اجل اصدار قانون فيدرالى يقضى بفرض رقابة البريد الحظر على « أى كتاب أو كتيب أو صورة أو صحيفة او رسالة مكتوبة أو مطبوعة أو أى نوع من أنواع المطبوعات المتسمة بالبذاءة أو التهتك أو الشهوانية أو القذارة » غير أن انتكاسة عابرة اعترضت طريق كومتسوك عندما اختلف مع اعوانه فى جمعية الشبان المسيحيين التى سرعان ماتركها ليستبدلها بجمعية أخرى يبسط فيها نفوذه هى جمعية مكافحة الرذيلة .

وبعد أن نجح كومستوك فى حملته الرامية الى تطهير الولايات

المتحدة الأمريكية من مباذل الأدب المكشوف بدأ اعجاب الناس به يتلاشى تدريجيا وأصبح فى نظر الكثيرين رمزا لضيق الأفق والقسوة والتعصب الذميم وبعد أن أفلح فى استئصال شأفة الأدب المكشوف من البلاد اختار كومستوك اهدافا جديدة يسعى الى تحقيقها فصب جام غضبه على أوراق اليانصيب وأدعياء الطب ثم سعى الى الانقضاض على أصحاب الفكر الحر والاشتراكيين والليبراليين والجدير بالذكر أن حربة ضد الاجهاض لم تصب ما أصابته حملته ضد الأدب المكشوف من نجاح . ورغم أن كومستوك فقد سحره وشعبيته فى أواخر أيامه فإن أحدا لم يجرؤ على مهاجمته بشكل علنى باستثناء قلة من المثقفين أمثال د. م. بنيت المفكر الليبرالى صاحب مجلة « الباحث عن الحقيقة » تجرأ بنيت وهاجم كومستوك الذى تمكن من القاء غريمه فى السجن لفترة ثلاثة عشر شهرا،ولكن كومستوك بدأ يفقد هيبته وأصبح مضغة الأفواه بسبب هجومه الذى لامعنى او مبرر له على الفن والفنانين والمتاحف الغنية وزعمه أن الاخلاق تفوق الفن وتعلو عليه . وعندما حاول عام ١٩١٢ أن يستصدر قرارا بحظر مجلة « صباح شهر سبتمبر » التى يصدرها بول تشاباس لأنها نشرت صورة امرأة عارية منى بالفشل وازداد الاقبال زيادة هائلة على هذه المجلة .

وفى أواخر أيامه شن كومستوك هجوما على كل من هافيلوك اليس ومارجريت سانجر التى أدركت بحلول عام ١٩١٢ الضرر البالغ الذى تعانى منه الطبقات الفقيرة بسبب حرمانها من استخدام وسائل منع الحمل . ومن ثم دعت هذه المرأة الى ضرورة حصول الطبقات الدنيا على المعلومات الخاصة بمنع الحمل . وسافرت مارجريت سانجر من أمريكا إلى باريس كى تتوافر لها أحدث المعلومات فى هذا الموضوع حتى يفيد بنو جلدتها منها . وكتبت هذه السيدة كتابا بعنوان « حربى من اجل تحديد النسل » جاء فيه ان أنتونى كومستوك مسئول عن تدمير حياة آلاف النساء وبطريق غير مباشر عن وفاة عدد غفير من الناس .

فقد أدت حملته الناجحة فى الكونجرس الأمريكى بتحريم وسائل منع الحمل الى تعرض آلاف النساء للموت بسبب الاجهاض . ولهذا دعت بنات حواء الى شق عصا الطاعة على كومستوك عدو المرأة رقم ١ . وفى عام ١٩١٤ نجح كومستوك وأعوانه فى اصدار امر من المحاكم الفيدرالية بمنع بحثها « المرأة المتمردة » من التداول عن طريق مصلحة البريد . وفى نفس الوقت نشرت مارجريت سانجر كتيبا بعنوان « تحديد الأسرة » كتبته باسلوب بسيط وناصع وضمنته كل المعلومات والنصائح العملية التى استقتها من فرنسا رغبة منها فى أن تستوعبه نساء الطبقة العاملة ، ولكن اعداءها استطاعوا اذلالها فقد حكمت احدى المحاكم بادانة كتابها « المرأة المتمردة » بسبب بعض المقالات المنشورة فيه ، الأمر الذى اضطرها الى مغادرة البلاد فى اكتوبر ١٩١٤ . وفى ديسمبر من نفس العام أرسل كومستوك رجلا من طرفه الى المستر سانجر ادعى انه من معارف زوجته وانه يريد الحصول على نسخة من كتابه الصغير عن « تحديد الأسرة » وصدقه الزوج وبسلامة نية اعطاه نسخة من الكتاب المطلوب . ولم يمض وقت يذكر حتى عاد الرسول الذى أوفده كومستوك ليشترك بنفسه فى القاء القبض على سانجر وتقديمه الى المحاكمة فى سبتمبر ١٩١٥ وأغرته المحكمة باطلاق سراحه اذا ابلغها بمكان زوجته ورفض سانجر هذا العرض كما رفض أن يدفع الغرامة التى فرضتها المحكمة عليه وفضل ان يذهب الى السجن على أن يدفع غرامة ليس مقتنعا بها . وحضر كومستوك محاكمة سانجر وشهد ضده ولكنه أصيب بنزلة برد شديدة كانت السبب فى وفاته واخيرا عادت مارجريت من تلقاء نفسها الى الولايات المتحدة لتمثل امام القضاء الذى قرر ان يطلق سراحها بسبب صرف الحكومة النظر عن ملفها وفى طريق عودتها الى بلادها مرت مارجريت على انجلترا حيث زارت الرائدة النسائية الانجليزية المعروفة بدفاعها عن منع الحمل مارى ستوبس .

جون س . سمر

بعد وفاة أنتونى كومستوك خلفه جون س . سمر كسكرتير لجمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة . ولكن شخصيته لم تكن بنفس قوة شخصية سلفه كما بدأ المناخ الفكرى الأمريكى فى التغيير بشكل ملحوظ . ولم ينجح جون سمر مثلما نجح سلفه كومستوك فى قمع عيون الأدب الجاد . وتمثلت ذروة فشله فى أوائل عام ١٩١٧ عندما أقام دعوى فاشلة ضد تاجر كتب لأنه باع الترجمة الانجليزية لكتاب جوتييه « المدموازيل دى موبان » . ولم تكتف هيئة المحلفين بتبرئة هذا التاجر بل حكمت له بالتعويض.ثم جاءت المحكمة العليا فى ولاية نيويورك لتؤيد هذا الحكم . غير أن جون سمر أصاب شيئا من النجاح فى الحملة التى قادها ضد المجلد الثانى من كتاب فرانك هاريس « حياتى وغرامياتى » فقد تمكن من مصادرة آلاف النسخ المطبوعة من هذا الكتاب وانزال العقاب بوكيل هاريس الأدبى فى نيويورك . ولكنه منى بالفشل الذريع عندما سعى الى حظر كتب أدبية لها قيمتها مثل أعمال جوستاف فلوبيرت وأندرية جيد . بل ان اخفاقه كان مروعا عندما فشل فى اقناع المحاكم الأمريكية بمصادرة رواية « بئر الوحشة » التى سبق حظرها فى بعض الولايات كما أخفق فى مصادرة كتب أخرى مثل ترجمة الكتاب الذى ألفه لويس تشارلس روييه بعنوان « دعونا نتحرك ونحن عرايا » وهو كتاب يدافع عن فوائد مذهب العرى .

وكتاب أرسكين كولدويل « فدان الله الصغير » الذى ألغى قاضى مدينة نيويورك بنيامين جرينسبان الدعوى المقامة ضد ناشريه الأمريكان .

التزمت يسود بوسطن وماساشوستس

ورغم جو السماحة العامة الذى بدأ ينتشر فى ربوع أمريكا فقد ظلت مدينة بوسطن حصنا منيعا يحتمى فيه تزمت الكومستوكية حتى عام ١٩٢٩ . ففى ذلك العام استمر الحظر مفروضا على قائمة تتكون من أكثر من ستين كتابا منها « الرجل المنحرف » لسانت جون ارفين و « ما اعتقده » لبرتراند راسل و « الزيت » لأبتون سنكلير و « من الانسان الى الانسان » لأوليف سكرنير و « القوة » لليون فيوخترانجر و « الشفق » للكونت كيسبرلنج و « عالم وليم كلبسولد » تأليف هـ . ج . ويلز و« العذراء القوية الشكيمة » لفرانسيس نيومان و« المرجانترى » لسنكلير لويس و « يوم الحشر » لوارويك ديبنج و « الشمس تشرق أيضا » لأرنست همنجواى .

وفى العام التالى (١٩٣٠) أيدت محكمة ماساشوستس الحكم بإدانة دونالد س فريد لبيعه رواية « التراجيديا الأمريكية » لثيودور درايزر (وهو نفس المؤلف الذى سبق للرقابة أن منعت تداول روايته « العبقرى » عام ١٩١٦ للحفاظ على مكارم الأخلاق .

وفى نفس الوقت تمت ادانة تاجر كتب آخر كان يتمتع بسمعة طيبة لضبطه متلبسابيبع نسخة من رواية د . هـ . لورانس » عشيق الليدى تشاترلى لعميل أوفدته خصيصا لهذا الغرض جمعية نيو انجلند فى بوسطن استنكرت الطريقةالتى حصل بها المدعى على نسخة من الكتاب المشار اليه . ودافع جون سمر عن اسلوب الوقيعة بهذه الضحية فى الشراك بقوله انه ترامى الى سمعه أن المتهم يبيع رواية لورانس الى أساتذة جامعة هارفارد . وكانت محاكمات بوسطن سببا فى اهتمام الرأى العام بقانون البذاءة كما هو مطبق فى ولاية ماساشوستس . وقد تغيرت صياغة هذا القانون تحت ضغط الطبقة المثقفة،فبعد أن كان القانون يجرم بيع أى كتاب « يشتمل على لغة

بذيئة وغير مهذبة » أصبح القانون يجرم بيع « أى كتاب بذىء وغير مهذب » ومعنى هذا التغيير أن هذا القانون الأمريكى أصبح يجرم الكتاب اذا كان بذيئا فى مجمله وليس فى أجزائه .

التزمت يسود نيويورك أيضا

مما يدعو الى الدهشة والاستغراب أن معظم القضايا المرفوعة ضد الأدب المكشوف فى أمريكا انحصرت فى ولايةماساشوستس وولاية نيويورك . وممايذكر أن أول حكم بالادانة فى قضايا الأدب المكشوف فى الولايات المتحدة كان عام ١٨٢١ وكانت التهمة الموجهة ضد المتهم أنه باع كتابا بذيئا بعنوان « مذكرات امرأة متعة » التى سبق الاشارة اليها فى موضع آخر . وفى التسعينات من القرن التاسع عشر تم تقديم آخرين الى المحاكمة بتهمة بيع كتاب لوكاشيو المعروف « الديكاميرون » غير أن القاضى الأمريكى المكلف بنظر هذه القضية الأخيرة أصدر حكما يتسم بالليبرالية والتحرر مفاده أن الديكاميرون كتاب معروف لكل دارسى الأدب سطره مؤلفه فى وقت سابق على اختراع الطباعة ، أى فى زمن سادت فيه الأمية . ومن ثم فإن انتشار الكتاب كان محدودا ولايعقل أن مؤلفه قصد به افساد أخلاق الشباب ، الذى شجع كثيرا من القضاة الآخرين أن يتخذوا فى كثير من الأحيان مواقف ليبرالية مشابهة ازاء التراث الأدبى القديم .

ولكن القضاء فى ولاية ماساشوستس اختار طريق التشدد واقتفى أثر القضاء الانجليزى المتزمت عند النظر فى قضية رواية « ثلاثة أسابيع » التى ألفتها اليانور جلين كما أسلفنا . واستخدم القاضى الأمريكى نفس اللغة المتشددة التى سبق لرئيس القضاة الانجليز اللورد كوكيرن أن استخدمها متهما رواية « ثلاثة أسابيع » بالفسق والانحلال والدعوة الى الفساد . والجدير بالذكر أن أحد القضاة

الانجليز رفض أن يأخذ رواية الينور جلين مأخذ الجد . فعندما شكت هذه الكاتبة من أن احدى الشركات السينمائية سطت على روايتها وأخرجت على أساسها فيلما سينمائيا تميز بالهزل والسخرية فى الرواية رفض القاضى أن يحكم بحقها فى الحصول على أى تعويض بحجة أن روايتها مجرد لغو لاطائل منه ولاقيمة له ولاتستحق المؤلفة أية حقوق تأليف عنها .

وتعتبر قضية المؤلف ثيودور درايزر الذى سبق لنا الاشارة اليه من أهم القضايا الخاصة بالأدب المكشوف المنظورة أمام المحاكم فى ماساشوستس . ففى عام ١٩٣٠ حكم قاضى احدى محاكم هذه الولاية بأن رواية « التراجيديا الأمريكية » التى ألفها درايزر لاتصلح للبيع . واتبع القاضى اسلوبا غير عادى فى نظر القضية،فقد أصر على فحص فصول الرواية موضع الاتهام منفصلة عن السياق العام الذى وردت فيه . وبدا هزل المحاكمة واضحا عندما قرر القاضى أن طول الرواية يقف عائقا أمام فحصها من قبل هيئة من المحلفين . فضلا عن أن هذا القاضى رفض عرض ملخص للرواية بزعم أن مثل هذا الملخص من شأنه أن يعكس عقلية القائم بالتلخيص . ولم يقبل محامى المتهم آرثر جارفيلد هايز اسلوب القاضى فى تناول القضية وطريقة استدلاله على بذاءة الكتاب واحتج بأن هذا الاسلوب يساوى بين أكثر القراء ذكاء وعلما وثقافة وبين أكثرهم جهلا وضحالة وانحطاطا مشيرا بذلك إلى أن الأجزاء المنفصلة لاتصلح لأن تكون أساسا للحكم على العمل الأدبى ككل . وأيضا ـ كما أسلفنا ـ تعرضت رواية د . هـ . لورانس المعروفة « عشيق الليدى تشارلى » للمصادرة بسبب الضغوط التى مارستها جمعيات التقوى والصلاح البروستانتية فى أمريكا ، والجدير بالذكر أن رجال القانون فى ولاية ماساشوستس استنوا قانون العقوبات الذى يتضمن النص الخاص بالبذاءة عام ١٧١١، وأن هذا القانون مأخوذ أصلا من قانون

العقوبات العام الانجليزى . وبقدر ما كان هذا القانون الأمريكى بسيطا بقدر ما كان قاسياءإذ كان بمثابة سيف مسلط على الانتاج الأدبى ، الأمر الذى دعا بعض المثقفين ورجال الفكر الأمريكان إلى السعى إلى التخفيف من شططه وغلوانه . ولكن نجاحهم فى هذا الصدد كان محدودا للغاية .

أما فى ولاية نيويورك فلم تكن الرقابة بنفس هذه الدرجة من السوء . فقد أظهرت محاكمها قدرا من السماحة أكبر مما أظهرته ولاية ماساشوستس ، رغم أن ولاية نيويورك هى التى أنجبت البروتستانتى المتزمت والمهووس أنتونى كومستوك أكبر داعية للتشدد الأخلاقى فى التاريخ الأمريكى كله . على أية حال اتسم القضاء فى ولاية نيويورك بالسماحة أحيانا . ففى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حكم أحد القضاة فى هذه الولاية فى عام ١٨٩٤ ببراءة مجموعة كبيرة من عيون الأدب القديم مثل « ألف ليلة وليلة » ورواية « توم جونز » لهنرى فيلدنج و « اعترافات جان جاك روسو » و « حكايات عربية » وقصة « علاء الدين » وأعمال رابيلية وقصيدة « فن الحب » لأوفيد وحكايات « الديكاميرون » لبوكاشيو و « الهيبتاميرون » لمرجريت ملكة نافار . وبوجه عام يمكن القول إن الرقابة فى أمريكا أظهرت سماحة نحو نشر التراث الأدبى القديم أكثر مما أظهرت تجاه الأعمال الأمنية الحديثة والمعاصرة .

هذا وقد نظرت المحاكم فى ولاية نيويورك قضية نصب واحتيال استغل فيها المحتال قانون البذاءة ليتغلب على خصومه . قد قامت نقابة سانت هيوبرت للنشر بنشر جميع أعمال فولتير فى اثنين وأربعين مجلدا . وتعاقد تاجر مع هذه النقابة على شراء كمية كبيرة من كتبها المنشورة ولكنه ماطل فى دفع ماعليه فلما طالبه الناشرون بثمن الكتب رفض الدفع بزعم أن الكتب المبيعة له منافية للأخلاق . وللتدليل

على صحة أقواله قدم المشترى للمحكمة نسخة من « القاموس الفلسفى » (١٧٦٤) لفولتير ورواية « عذراء أورليانز » ولكن القاضى المستنير الذى نظر القضية رفض أن يأخذ بوجهة نظر هذا المحتال وقال عن كتاب « القاموس الفلسفى » : « إنه ليس مستودعا للسخرية والدعابة الذكية فحسب بل ان هذا القاموس ترك أثرا عميقا فى تطبيق القانون تطبيقا يتسم بالانسانية والعقلانية » وعن عذراء أورليانز قال هذا القاضى الأمريكى المتفتح : « رغم أن بعض أشعار هذا الكتاب جارحة وخارجة من ناحية الذوق فى وقتنا الراهن فإنى لا أظن أنه يمكن اعتبار عقد الاتفاق على البيع غير قانونى لهذا السبب » وبلغت سماحة هذا القاضى ذروتها عندما قال : « ليس من واجب المحاكم أن تفرض الرقابة على الانتاج الأدبى » .

وتعتبر هذه السماحة تطورا ملحوظا طرأ على تطبيق المحاكم الأمريكية لقوانين البذاءة . ففى نحو عام ١٩١٨ شرعت شركة جون لين للنشر فى نشر رواية « العبقرى » لتيودور درايزر التى سبق الاشارة اليها . فحذرتها جمعية مكافحة الرذيلة من مغبة الاقدام على هذا العمل . وخشيت دار النشر من المعاقبة فأحجمت عن المضى قدما فى اجراءات النشر ، الأمر الذى أثار ضيق المؤلف وحنقه . فقد سبق لناشر آخر أن فعل نفس الشيء معه وذلك بعد أن اتفق معه على نشر باكورة أعماله وهى رواية بعنوان « الأخت كارى » . وعز على درايزر ألا يظهر أول عمل له فأصر على أن يوفى الناشر دابلداى بالتزامه . وتحت ضغط المؤلف عليه قام هذا الناشر بطبع ألف نسخة من « الأخت كارى » دون أن يطرحها بالأسواق ، الأمر الذى خلق لدى المؤلف احساسا شديدا بخيبة الأمل . وخشى درايزر أن تكرر شركة جون لين نفس مافعلته دار دابلداى للنشر فالتمس النصح والمشورة لدى مكتب قانونى فى نيويورك .

فنصحه المكتب بالتوصل إلى حل وسط مع شركة جون لين .

وأراد هـ . ل . ميكين (الذى سوف نعرض لآرائه فى الرقابة بشىء من التفصيل فيما بعد) أن يقف بجانب داريزر فى محنته فتطوع بجمع طائفه كبيرة من شهادات رجال الأدب بشأن خلو رواية « العبقرى » . من البذاءة . وانتظر الجميع بأعصاب مشدودة حكم القاضى فى هذه القضية . غير أن القاضى كان من النوع الذى يؤثر السلامة والعافية وينتهج سياسة عدم تأليب مشاعر عامة الناس ضده . ولهذا نراه يتنصل من اصدار أى حكم بدعوى أن النظر فى مثل هذا النوع من القضايا ليس من اختصاص المحاكم بل من اختصاص هيئة المحلفين . ومن ثم فلا داعى لاقحام آراءالأدباء والخبراء فى هذا الموضوع .

لم تقبل النساء فى أمريكا القيود الخانقة التى فرضها كومستوك وأتباعه على المجتمع الأمريكى فأخذن يتمردن على هذا الارهاب المفروض عليهن . ففى عام ١٩٠٦ أصدرت سيدة أمريكية اسمها كارى ناشن مجلة صغيرة بعنوان « هاتشيت » تضمنت معلومات جنسية وجهتها إلى أبنائها لارشادهم والأخذ بيدهم . وصيغت هذه المعلومات بلغة علمية نظيفة وراقية . وهال الرجال أن تعيش بينهم امرأة تكتب فى أمور الجنس فتضافروا عليها حتى نجحوا فى الزج بها فى السجن .

وساعد اندلاع الحرب العالمية الأولى الأدب على الالتزام بالواقعية . فالجنود يعبرون عن احتياجاتهم الفسيولوجية بصراحة أكثر من المواطنين المدنيين،وهذا واضح من الرواية التى كتبها المؤلف الألمانى اريش ماريا ريمارك بعنوان « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » . ورغم أن هذه الرواية وجدت استجابة طيبة لدى القارىء الأمريكى فقد اقترح البعض على ناشر الرواية فى بوسطن أن يستبعد منها فقرتين خشية أن تتعرض للمصادرة . وتدور الفقرة الأولى المقترح استبعادها

حول وصف الجنود وهم يقضون حاجتهم فى العراء تحيطهم دورة من الخشب . أما الفقرة الثانية المقترح حظرها فتخبرنا عن رجل متقدم فى السن يعالج فى المستشفى لمدة عشرة شهور لم ير زوجته خلالها . فلما جاءت لزيارته تجمع زملاؤه المرضى فى العنبر وتعمدوا أن يديروا وجوههم إلى الناحية الأخرى حتى يعطوا الزوجين العجوزين فرصة لممارسة العملية الجنسية .

ويمكن القول بأن معالجة الأدب الأمريكى للجنس بصراحة بدأت ـ كما أسلفنا ـ فى العشرينات من القرن العشرين . . ورغم ان القوانين الامريكية الخاصة بالبذاءة مثل قوانين الجمارك لعام ١٨٤٢ و ١٨٩٠ ظلت على ما هى عليه فانها تحولت إلى مجرد حبر على ورق إذ تعمد القضاة الأمريكيون تجاهلها وعدم الأخذ بها . والذى يدل على أن سطوة البيوريتانية الأمريكية بدأت تضمحل ان هـ . ل . مينيكين استطاع عام ١٩٢٦ الحصول على عدد من نسخ مجلة « الأمريكان ميركيورى » من أسواق بوسطن بعد فرض الحظر عليها بسبب نشرها قصة مومس بعنوان « هاتراك » . وشنت هذه المجلة على صفحاتها هجوما عنيفا على تجاوز جمعيات مكافحة الرذيلة حدودها . وقدم هـ . ل . مينيكين إلى المحاكمة بتهمة حيازة المجلة المحظورة والاتجار فيها . ولكن القاضى الذى نظر القضية حكم ببراءته وبراءة المجلة من تهمة البذاءة . وهكذا أصبحت الكومستوكية فى موقف المدافعة عن نفسها بعد أن كانت فى موقف المهاجمة . فقد بدأت سطوة كومستوك والكومستوكية يعتريها الضعف حتى تلاشت فى الثلاثينات.والجدير فى هذا الصدد أن نرجع بذاكرتنا إلى الوراء عندما كان أنتونى كومستوك فى عنفوانه فى مطلع حياته يلقب نفسه « مقتلع الحشائش الضارة من حديقة الرب » ويبدأ حملته الأخلاقية بتحطيم مخزن لبيع الخمور وكيف أنه استطاع آنذاك أن يشن حملة ضارية نجحت فى القضاء على الأختين المتحررتين فكتوريا ودهول وتنيسى

كالفن اللتين اشتركتا فى تحرير مجلة « وودهول وكالفين » الأسبوعية واللتين نذرتا نفسيهما للدعوة إلى التحرر والدفاع عن حقوق المرأة والهجوم على التزمت البيوريتانى .

ويسجل المقال الذى نشره هـ . ل . مينيكين بعنوان « الكومستوكية » فى عام ١٩٢٠ اندحار الكومستوكية فى نهاية الأمر . يقول مينيكين فى هذا الصدد انه لاحظ أن عدد الروايات التى تعالج الجنس بصراحة أصبحت أكثر عددا بكثير عن ذى قبل . ويضرب مثلا على ذلك بعمله فى مراجعة الروايات فى الصحف والمجلات . فأيام سطوة الكومستوكية كان يرى نفسه مضطرا إلى عرض ما يكتب على جمعية الشبان فى حين أنه اليوم يعرض مقالاته على مستشار طبى إذا شاء استجلاء بعض النقاط فيها .

جورج برنارد شو يهاجم الرقابة

فى عام ١٩٣٤ كتب جورج برنارد شو مقالا بعنوان: « البيان المرفوض » جاء فيه ان السلطات البريطانية اعترضت على مسرحيتين من مسرحياته ، الأمر الذى قلل من دخله وأساء إلى سمعته . ويضيف شو:إن مسرحياته وجدت نجاحا كبيرا فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى كثير من دول العالم باستثناء قلة من الدول من بينها النمسا التى حظرت تقديم احدى كوميدياته لأسباب سياسية فالمسرحية تشير إلى دور النمسا فى الحرب البلغارية الصربية . وأردف شو قائلا:ان احدى مسرحياته (اشارة إلى مهنة مسز وارين » حظرت فى أمريكا بسبب ما جلبه الحظر البريطانى من دعاية واسعة النطاق واقبال كبير عليها من المشاهدين الأمريكان . ولكن محكمة الاستئناف فى أمريكا ما لبثت أن سمحت بتمثيل هذه المسرحية وقررت أنها مسرحية قانونية وأن مقصدها شريف ، وبطريقته التهكمية المعتادة

يصف شو نفسه بأنه كاتب مسرحى متخصص فى انتاج المسرحيات المهرطقة وغير الأخلاقية وأن سمعته مستمدة من كفاحه المستميت من أجل حمل الجمهور على اعادة النظر فى قيمه الأخلاقية . وقال شو:انه يرفض الأخلاق السائدة فى مجتمعه المتصلة بالاقتصاد والعلاقات الجنسية لأنها أفكار فادحة ووخيمة فى أضرارها . وهو لايخفى مقته فى الوقت الحاضر . ويعلن دون مواربة أنه يهدف عن عمد من وراء كتابة مسرحياته إلى تغيير أفكار امته واقناعها بسلامة وجهة نظره . وهذا هو الدافع الوحيد الذى يحفزة على الكتابة للمسرح إذ أنه لايعتمد فى معاشه على المسرح.يقول شو متهكما فى هذا الصدد : « لو أننى منعت من انتاج مسرحيات لا أخلاقية ومهرطقة لتوقفت عن الكتابة للمسرح اننى أذكر هذه الحقائق لأبين أننى أهتم اهتماما خاصا بحصولى بحكم المهنة على حقى فى حرية التعبير والضمير التى تعتبر شيئا مفروغا من أمره فى المهن الأخرى . انى أعترض على الرقابة ليس فقط لأنها بصورتها القائمة تلحق أبلغ الأضرار وتعوقنى شخصيا ولكنى أعترض عليها لأسباب عامة » ويوضح شو رفضه للمبادىء الأخلاقية السائدة بقوله :

« إن كل مايتعارض مع السلوك والعادات الاجتماعية المستقرة شىء غير أخلاقى . والفعل أو المذهب غير الأخلاقى ليس بالضرورة شيئا آثما .. على العكس فكل تقدم فى الفكر والسلوك بحكم تعريفه ينظر اليه على أنه منأف حتى ينجح فى كسب أغلبية الناس إلى صفه . ولهذا فانه من الأهمية بمكان أن نحمى بقوة وحماس أية دعوة مناهضة للأخلاق ضد من ليس لديهم أى معيار غير معيار العادات والتقاليد ـ أى ما يعتبرونه أخلاقا ـ هجوما على المجتمع والدين والفضيلة . والأخلاق العامة لاتستند إلى قوة الرقيب فحسب بل إلى قوة أعتى وأقوى من القانون نفسه هى قوة الرأى العام الذى يقترن بالخزعبلات والتحيز . هذا الرأى العام هو المسئول عما يقع على رواد الانسانية من اضطهاد وعن سقوط الكثير من الشهداء . وهو أمر يقل فى خطره عن

ضرر أفدح يتمثل فى عرقلة مسيرة التقدم والتنوير . ويرى شو أن الرقابة على المطبوعات العلمية لو كانت بنفس صرامة الرقابة على الأدب بوجه عام والمسرح بوجه خاص لاختفت من الوجود كتابات المنادين بنظرية التطور فى الفترة بين ١٧٩٠ و ١٨٣٠ ولاختفت معها كتب داروين ووالاس وتندال وسبنسر وكارليل ورسكين وصامويل بتلر لما تتضمنه من هرطقة واضحة ومجافاة للأخلاق العامة . وجميع هذه الكتب فى قائمة المحظورات بالنسبة للكنيستين الرومانية واليونانية بل لاختفى جاليليو والزعيم الدينى البروتستانتى المعروف مارتن لوثر الذى لم يكتف بأن تزوج وهو قسيس فحسب ولكن تزوج من راهبة،ولو تمهل دعاة الجمود والرافضين للتجديد لأدركوا أن التاريخ الانسانى دائم التجدد ولايثبت مطلقا على حاله القديم فلو أنه فعل ذلك لما أمكن للدين المسيحى أو الاسلامى بأفكارهما الجديدة أن يظهرا . والفرد العادى تغيب عن باله هذه الحقيقة لأنه لايؤمن بأية أفكار جديدة إلا بعد أن ترسخ وتشيع بين الناس أى إلا بعد أن تتحول إلى أخلاق عامة . ولهذا فانه يجب على زعماء الأمة السياسيين والدينيين أن يغرسوا مبادىء التسامح فى نفوس شعوبهم .

مصلحة الجمارك تخفف قيود الرقابة عام ١٩٣٠

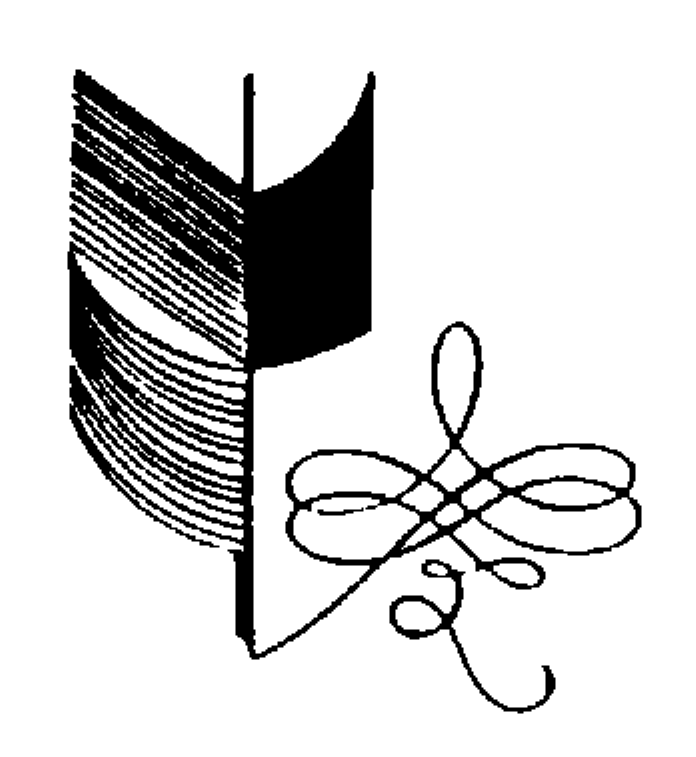
فى عام ١٩٣٠ خفضت مصلحة الجمارك الأمريكية القيود الرقابية المفروضة على نقل الكتب والمطبوعات . فقبل ذلك العام اتبعت هذه المصلحة سياسة واضحة التعسف فى قمع المطبوعات المتهمة بالبذاءة . فقد كان يكفى لمصادرة أى كتاب أن يحكم عليه موظفو الجمارك بالبذاءة . وقام هؤلاء الموظفون بالنقل فى استبعاد مؤلفات أرستوفانيس وديفو وبترونيوس ورابيليه وبوكاشيو وبلزاك وروسو وكازانوفا وفولتير . بل ان هؤلاء الموظفين لم يتورعوا عن مصادرة

بعض الكتب العلمية ذات السمعة العالمية . غير أن الطبقات المثقفة والواعية فى أمريكا شجبت هذا الأسلوب المتعسف فى حظر الكتب الأمر الذى أدى إلى تعديل قانون الجمارك الأمريكى عام ١٩٣٠ فقد كان من حق موظف الجمارك قبل ذلك التاريخ مصادرة أى كتاب دون تقديمه إلى المحاكمة،وكان من حق المواطن المتضرر من الكتاب ـ وكان فى العادة ثريا وصاحب نفوذ ـ أن يرفع دعوى ضده،أصبح واجب الحكومة يحتم عليها القيام برفع الدعوى ضد الكتاب المرفوض بنفسها . وأعطى تعديل القانون فى ١٩٣٠ الحق لوزير الخزانة فى استخدام حصافته فى التصريح بتداول الكلاسيكيات ذات القيمة الأدبية أو العلمية حتى ولو كانت بذيئة . ونتيجة لهذا التعديل الغت مصلحة الجمارك الحظر على أعمال فولتير ورابيليه وبوكاشيو وغيرهم . ولكن هذا التحسن الملموس لم يمنع رجال الجمارك فى أمريكا من ارتكاب الأخطاء والحماقات من آن لآخر .

وحتى نتبين مقدار التحسن الذى طرأ على الرقابة بعد ١٩٣٠ يجدر بنا أن نعود بالذاكرة إلى حالة أمريكا فى مطلع القرن العشرين .

ففى عام ١٩١٨ قامت الباحثة الاجتماعية مارى وير دينيت بتوفير المعلومات الجنسية كى يستفيد ويتعلم منها ولداها . ثم نشرت هذه المادة فى « المجلة الطبية » وتحمست لها هذه المجلة لدرجة أنها أعادت نشرها فى كتيب مستقل «الجانب الجنسى من الحياة : شروح للشباب » وفى عام ١٩٢٢ أعلنت مصلحة البريد أن هذا الكتاب بذىء ولايصلح للنقل والتداول . وفى عام ١٩٢٨ أمسكت مصلحة البريد بتلابيب هذه المؤلفة واتهمتها بارسال الكتاب المذكور بالبريد مخالفة بذلك تعليمات المصلحة . وانتهى الأمر بعرض الموضوع عام ١٩٢٩ على المسئولين الذين أدانوها . غير أنها استأنفت ضد الحكم بالادانة وتمكنت فى العام التالى (١٩٣٠) بالغاء الاتهام .

وفى أبريل ١٩٣٠ أمر القاضى الفيدرالى المستنير وولسى (الذى ارتبط اسمه بتبرئة رواية « يولسيس » لجيمس چويس من تهمة البذاءة) برفع الحظر عن كتاب مارى ستوبس « حب الأزواج » كما أنه قرر فى العام التالى (١٩٣١) أن كتابها « منع الحمل » يخلو من البذاءة .



الفصل السادس

الرقابة فى أيرلندا

من المفيد أن نتبين أن أيرلندا الشمالية فى مطلع القرن العشرين تمتعت بقدر أوفر من الحرية فى نشر المطبوعات أكثر من أيرلندا الجنوبية . فبالرغم من أن أيرلندا الشمالية حصلت عام ١٩٢٠ على برلمان خاص بها ونظام قضائى مستقل فإنها ظلت تتبع المملكة فى عدة أمور منها إدارة الجمارك والبريد التى كان البرلمان البريطانى فى وستمنستر يسن القوانين المنظمة لها .

ولكن الوضع فى أيرلندا الجنوبية أو جمهورية أيرلندا كان مختلفا بالرغم من انفصالها واستقلالها تماما عن الكومنولث البريطانى. ففى عام ١٩٢٠ استنت المجالس التشريعية المحلية فى هذه الجمهورية الكاثوليكية الوليدة قوانين المطبوعات الخاصة بها ، وهى قوانين فاقت فى تزمتها كل ما عرفته انجلترا عبر تاريخها الطويل ففى عام ١٩٢٦ اجتمع البرلمان فى أيرلندا الجنوبية كى يتدارس ضرورة انشاء الدولة لجهاز رقابى يهدف إلى حظر الأدب الشرير والضار . وقرر البرلمان بالاجماع ضرورة إقامة مثل هذه الهيئة الرقابية لتحل محل القانون الجنائى الذى كان القذف والبذاءة يعاقبان بمقتضاه . وأسند البرلمان إلى هذه الهيئة مهمة حظر كافة الكتب التى تهدف إلى استثارة الغرائز الجنسية الوضيعة والشهوات الفاسدة . وبطبيعة الحال استثنى المسئولون من الحظر الكتب ذات القيمة الأدبية حتى إذا لم تخل صفحاتها من تصوير الرذيلة كما هى موجودة فى هذا العالم . وأكدت اللجنة المكونة لمناقشة هذا الموضوع أن الرقابة المقترحة ينبغى عند وضع قراراتها أن تأخذ فى اعتبارها معايير الانسان الراشد وليس معايير المراهقين والعذارى ، ولكن موقف اللجنة من تجريم الدعوة إلى تحديد النسل كان حاسما فقد اقترحت ضرورة تجريمه بشكل تلقائى وفورى . وفى عام ١٩٢٩ قامت أيرلندا الجنوبية بإلغاء قانون المطبوعات البذيئة الصادر فى بريطانيا عام ١٨٥٧ وبتكوين هيئة رقابية تحل محله . وهى هيئة يحق لها من تلقاء نفسها أو بناء على شكوى يتقدم بها وزير العدل أن ترفع تقريرا إليه بشأن أى كتاب أو مطبوع

يتسم بالاتجاه العام نحو البذاءة أو يدافع عن منع الحمل أو الاجهاض . وخول قانون ١٩٢٩ للهيئة الرقابية الحق فى التبليغ عن أية صحيفة أو مجلة تعنى بابراز الجريمة على صفحاتها إلى وزير العدل حتى يتخذ الاجراءات اللازمة بمنع تداولها . فضلا عن منع استيراد أو بيع أو توزيع أية مادة تدافع عن تحديد النسل واعتبارها مخالفة للقانون (سواء كان نشر هذه المادة ممنوعا أو مسموحا به) . زد على ذلك أن المادة رقم ٤٠ من دستور البلاد لعام ١٩٣٧ خولت للسلطة التشريعية الحق فى انزال العقاب بأية مطبوعات أو أقوال تتضمن كفرا أو قذفا أو بذاءة . ولكن تطبيق القانون على هذا النحو الصارم أثار الاعتراضات عليه وأدى إلى تشكيل هيئة استئناف عام ١٩٤٠ أدخلت على قانون ١٩٢٩ عددا من التغييرات غير الجوهرية . فطالما أن الاجراءات القانونية المتبعة ضد الكتاب أو المطبوع المحظور سليمة فإنه لا يمكن الطعن فى قرار وزير العدل القاضى ببذاءة هذا المطبوع أو ذاك . ومن ثم لا يمكن للمحاكم أن تعدل عنه أو تغير فيه . وليس من شك أن نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الهائل فى أيرلندا الجنوبية ساعد على اشتداد التزمت فى تنفيذ قوانين الحظر . ولكن الجدير بالذكر أن القانون الايرلندى لم يفرض أى حظر على أساس دينى أو لاهوتى كما أن ممارسات الحظر قرب منتصف القرن العشرين كانت ذات توجه قومى وثقافى أكثر من التوجه الدينى . بمعنى أن الهدف من استنان قوانين الحظر كان الحفاظ على هوية البلد القومية والثقافية أكثر من الحفاظ على هويتها الدينية . وبعد انشائها تولت الهيئة الرقابية فحص نحو خمسين كتابا كل شهر . ويحتوى سجل مطبوعاتها الممنوعة على عدد هائل من المطبوعات يصل إلى أربعة آلاف كتاب وأربعمائة دورية . وهو كما سوف نرى سجل حافل بأعمال أهم الأدباء والمفكرين فى جميع أنحاء العالم . وحظيت الصحف والمجلات الصادرة أيام الآحاد - أى أيام العطلة الأسبوعية - باهتمام الرقابة البالغ . فإذا عنّ لإحدى هذه الصحف أن تنشر مادة

غير مهذبة كان من حق الهيئة الرقابية أن تصدر إليها أمرا باستبعاد المادة البذيئة ونشر مقالات ومسلسلات عن حياة القديسين بدلا منها . ورأت الهيئة الرقابية أن هناك مبررا لحظر أى كتاب حتى ولو اشتمل على فقرة واحدة تهدد بالاساءة إلى الأخلاق أو بتدمير الدين المسيحى ، الأمر الذى أشاع جوا رقابيا خانقا ومتزمتا فى أيرلندا الجنوبية . ولكن هذا الحظر الصارم على أية حال لم يمنع المثقفين الايرلنديين من الحصول على ما يريدون من الكتب الصادرة عن طريق تهريبها عبر الحدود فى أيرلندا الشمالية.ومن المؤسف أن أيرلندا الجنوبية سخرت الحرية التى حصلت عليها باستقلالها عن بريطانيا فى تشجيع الاتجاهات الرجعية .

وفى عام ١٩٤٦ أجرى تعديل على قانون الرقابة الصادر فى عام ١٩٢٩ . ونص هذا التعديل على فرض الرقابة على الأعمال الأدبية على أساس توصيات من الهيئة الرقابية بذلك . ويحق لهذه الهيئة التى يعاد تشكيلها من خمسة أشخاص كل خمس سنوات أن تقرر حظر الكتاب إذا وافق ثلاثة من أعضائها على الأقل على ذلك واعترض واحد فقط على الحظر . ورغم أنه كان من صلاحية الهيئة أن تقوم بنفسها باختيار الكتب التى تتولى فحصها تمهيدا لحظرها فإن العادة جرت على أن تقوم الحكومة أو الجمهور بتحويل الكتب المطلوب فحصها إليها لإبداء الرأى فيها . ورغم أن القانون الايرلندى ـ كما أسلفنا ـ لم يفرض أية رقابة دينية أو لاهوتية على المطبوعات،فإن أيرلندا الجنوبية بوصفها بلدا كاثوليكيا التزمت بقائمة للكتب التى يحرم بابا روما قراءتها على الكاثوليك . وكان واجب الهيئة الرقابية يحتم عليها أن تدخل فى اعتبارها أهمية الكتاب الأدبى عند فحصه . فضلا عن أن القانون سمح لناشر أو مؤلف أو محرر الكتاب الخاضع للفحص أن يصدر بيانا يدافع فيه عن نفسه وعن وجهة نظره فى الكتاب المزمع حظره . وكذلك أباح القانون لرجال الجمارك حق مصادرة المطبوعات المحظورة الموجودة فى أمتعة المسافرين ولكن بدون

توجيه أى تهمة ضدهم . وكان لزاما على الهيئة الرقابية أن تعد قائمة بالكتب الممنوعة يحق للجمهور الاطلاع عليها فإذا ضبط ناشر أو بائع أو موزع وهو يتعامل فيها يجوز حبسه أو توقيع الغرامة عليه .

وكان من جراء التعديل الذى طرأ عام ١٩٤٦ على القانون أن تكونت هيئة استئناف مكونة من خمسة أشخاص برئاسة أحد قدامى المحامين يحق لأى مؤلف أو محرر أو ناشر أنه يشكو إليها من الحظر المفروض على مطبوعاته . ويصبح قرار هيئة الاستئناف نافذا إذا اتفق ثلاثة من أعضائها على الأقل عليه .

ان الكتب التى حظرتها الرقابة فى أيرلندا الجنوبية بمقتضى قانون ١٩٢٩ وقانون ١٩٤٦ مذهلة فى عددها . والغريب فى الأمر أن رواية « يوليسيس » لجيمس جويس. التى قدمت إلى المحاكمة فى أمريكا بتهمة البذاءة نجت من هذا الحظر،ولم يشفع لهذه الكتب المحظورة عند الرقابة الايرلندية أن أربعة من مؤلفيها الايرلنديين حاصلون على جائزة نوبل للأداب ومن القمم الأدبية فى العالم كله من أمثال جون جوجارتى ووليام أوفلاهيرتى وشين أوفاولين .

نبدأ فنقول:إن الشاعر الايرلندى الكبير دابليو ب يتس «المستغرق فى الملذات فى العالم الغربى » لم يقف صامتا عندما رأى مسرحية « جون سنج » المعروفة تتعرض لهجوم البيوريتانية الأيرلندية القاذع عليها . وهو ما سوف نعرضه بشىء من التفصيل فيما بعد . ويلقى المقال الذى كتبه شين أوفاولين بعنوان « الحب بين الايرلنديين » ونشره فى مجلة لايف ضوءا على هذا الموضوع.فهو يعلل انخفاض نسبة المواليد فى أيرلندا بخوف الايرلنديين من الجنس . ويتجلى هذا الخوف من ذلك الحرص الفائق على حظر الكتب والمطبوعات بتحريض من رجال الاكليروس . ولا يشكو أوفاولين من اتساع نطاق الحظر على المطبوعات فحسب بل من أن الحظر يتم سرا كما أنه ليس هناك سبيل أمام أى متضرر للاستئناف ضد الحظر سوى رفع دعوى على وزير العدل مفادها أن اجراءات الحظر غير دستورية وهو درب من العسير

على أى كاتب أو مؤلف أن يسلكه وتمخضت الحملة التى خاضها الشاعر ييتس ضد الرقابة لمدة عشرين عاما عن شىء من التحسن الطفيف . فقد رفع الحظر عن عدد قليل للغاية من الكتب والدوريات فى تكتم ودون اعلان بعد أن تكون هذه المطبوعات قد نفدت من الأسواق وبعد أن يكون تلطيخ سمعة مؤلفيها قد استقر بالفعل . ويضيف أوفالين أن قائمة المؤلفين المتهمين بالبذاءة والتى حظرت بعض أعمالهم هم : جورج برنارد شو - وليام فولكنر - هيرفى ألين - وجراهام جرين - ف . سكوت فيتز جيرالد - إريك لينكلاتر - لوشيوس أبوليوس - إرنست همنجواى - إرسكين كولدويل - توماس وولف - جون دوس باسوس - سومرست موم - أولدس هكسلى - جيمس ت . فاويل - جان بول سارتر - ألبرت كامى - آرثر كيستلر - أندريه مالرو - تشارلس مورجان - أناتول فرانس - جون شتانبيك - جويس كارى - شين أوكيسى - ليام أفلاهيرتى - فرانك أوكنور - جورج مور - سنكلير لويس - سيل لا يكاد ينتهى من المؤلفين اللامعين . فإذا عن لعجوز شمطاء أن تشكو من أن المكتبة العامة أعارتها كتابا بذيئا فيجب على أمين المكتبة أن يبادر بسحبه من الرفوف وإلا تعرض مستقبله للخطر . وكانت نتيجة ذلك أن أمناء المكتبة قاموا من تلقاء أنفسهم باعداد قوائم الكتب غير الصالحة للتداول وتبادلوا هذه القوائم فيما بينهم . وبعضها يحمل عناوين الكتب التالية « لافنجرو » لتوماس بورو و « تس سليلة آل دربير فيل » لتوماس هاردى و « الجريمة والعقاب » لتيو دور دستيوفسكى و « أنا كارنينا » لليو تولستوى و « أحدب نوتردام » لفكتور هيجو و « الموت يأتى للأسقف » لويلا كاثر وجميع أعمال جون جالزورثى . وتصل قمة المهزلة الرقابية فى أيرلندا مداها عندما نرى أحد القساوسة يعترض على تمثيل مسرحية « عطيل » لشكسبير وعندما يتدخل كبير الأساقفة المحليين فى مدينة « كورك » لحظر بعض أجزاء مسرحية « ظل حامل البندقية » لأوكيسى .

ولعله من المفارقة المضحكة أن يكتشف الرقيب الأيرلندى أن احدى الروايات غير الصاحلة للتداول ألفها رجل محترم يعمل رئيس تحرير جريدة الهيرالد الكاثوليكية باسم مستعار هو الكونت ميشيل دى لا بديوير . وإذا أردنا مزيدا من التفاصيل عن أسماء الكتب والمطبوعات التى صادرها الرقيب الايرلندى فهذا بيان ببعضها :
« تذكر الأشياء الماضية » لمارسيل بروست و « النافورة » لتشارلس مورجان و « لومت » لأندريه جيد و « الخمار المدهون » لسومرست موم و « نقطة مقابل نقطة » لأولدوس هكسلى و « ١٩٨٤ » لجورج أورويل و « ارجاء تنفيذ الحكم بالاعدام » لثيودور درايزر و « الشباب لا يعود » لدافن دى مورييه و « عبر النهر وفى الأشجار » لأرنست همنجواى و « وداعا إلى برلين » لكريستوفر ايشروود و « سهم فى الزرقة » لآرثر كيستلر و « كاس تمبرلين » لسنكلير لويس و « سم الهملوك ومابعده » لأنجوس ويلسون و « المحراب » لوليم فولكنر. « الملكة الأفريقية » لسى . إس . فورستر و « سجين اللطف » لجويس كارى . مجرد نماذج معدودة لطوفان المطبوعات المحظورة .

هذا الفيض من المحظورات وضع أمناء المكتبات العامة فى وضع لا يحسدون عليه الأمر الذى يتضح لنا من مجلة « جمعية المكتبات فى أيرلندا » . . ويكمن خطر فرض الحظر على المطبوعات فى حرمان الرجل العادى من حقه فى المعلومات والدراية بالموضوعات التى تهم عامة الناس . والأدهى من هذا كما أسلفنا أن قانون ١٩٤٦ نص على ضرورة أخذ أهمية الكتب الأدبية والعلمية والفنية والتاريخية فى الاعتبار عند الحكم عليها وهو الأمر الذى دأبت هيئة الرقابة على تجاهله . ناهيك عن الرواج غير الطبيعى الذى كانت تلاقيه بعض الكتب حتى ولو كانت ضحلة عقب إلغاء الحظر عليها . ويستدل بعض الدارسين على عشوائية الحظر الايرلندى على المطبوعات بأن هيئة الاستئناف ألغت فى عام واحد نحو ثمانين فى المائة من الكتب

الممنوعة فى ذلك العام .

ونتناول المسرح الأيرلندى فنقول :ان أعظم مسرحياته على الاطلاق تعرضت لأحداث قمع متكررة من قبل الجهات الرقابية. ففى عام ١٩٠٧ تسببت مسرحية ج . م . سنج « المستغرق فى الملذات فى العالم الغربى » هرجا ومرجا بين النظارة . ونفس الشىء حدث عند عرض مسرحية أوكيسى « المحراث والجنون » فقد جن جنون مشاهديها وأخذوا فى الصراخ والعويل وانتزعوا المقاعد من أماكنها فى صالة المسرح وقذفوا الممثلين بالأحذية وبكل شىء استطاعت أيديهم أن تصل إليه . وحاول رجل أن يعتلى خشبة المسرح فضربه رجل اسمه بارى فيتزجيرال ضربة شديدة على فكه أرجعته مترنحا إلى مكانه فى الصالة . وغلت مراجل الغضب فى عروق الشاعر دابليو . ب . ييتس لهذا المنظر فتقدم بشعره الأبيض وملابس السهرة إلى خشبة المسرح حيث عبر عن أسفه واحتقاره لكل ما يجرى أمامه دون أن يستمع إليه أحد . وأخيرا هرعت الشرطة للحفاظ على الأمن داخل المسرح .

ويرى الدارسون أن ظروف الرقابة لم تتحسن كثيرا بعد ذلك على مدار نصف قرن . ففى مايو ١٩٥٨ قررت لجنة الاعداد لمهرجان دبلن المسرحى الدولى عدم عرض مسرحية بعنوان « بلومزداى » استقاها معدها آلان ماك كليلاند من رواية « يوليسيس » لجيمس جويس وكذلك سحب شين أوكيسى آخر مسرحياته وهى بعنوان « طبول الأب ند » لأن مؤلفها رفض اقتراح المخرج باعطائه الحق فى اجراء مايرى من تعديلات على المسرحية وبطبيعة الحال اعترض ييتس على هذا النوع من الرقابة ومما يدل على أن الشاعر كان رافضا لفكرة الرقابة من أساسها أنه عبر فى مجلة الاسبكتاتور بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٩٢٨ عن اعتراضه على المشروع الذى أقره البرلمان فى العام التالى (١٩٢٩) بفرض الرقابة .

وحارب بجوار ييتس ضد الرقابة صديق وأديب مقاتل لا يقل عنه صلابة اسمه جورج وليم راسل يكتب تحت اسم مستعار يتكون من حرفين هما AE . وكذلك أدلى بدلوه فى الدلاء أديب من أصل أمريكى وأيرلندى هو فرانسيس هاكيت الذى حظرت الرقابة الايرلندية روايته « الأسد الأخضر » كما حظرت رواية زوجته الدانماركية « طبيب حواء » الأمر الذى جعله يقرر الهجرة من أيرلندا والاستقرار فى الدانمارك . وتناولت موضوع الرقابة فى أيرلندا الأديبة مارجريت بارنجتون زوجة الروائى والقصاص ليام أوفلا هيرتى الذى تعرض الكثير من مؤلفاته للحظر .

وكتب المؤرخ الايرلندى البارز بريان انجليز مقالا بعنوان أيرلندا « الثقافة المهربة » ضمنه فى كتابه المنشور عام ١٩٥٨ قصة ايرلندا .. يعبر فيه عن شدة سخطه على الممارسات القمعية فى بلاده كما أنه سبق له أن عالج نفس الموضوع فى كتاب آخر له يحمل عنوان « حرية الصحافة فى أيرلندا من ١٧٨٤ إلى ١٨٤١ » ويعتبر هايوود براون واحدا من الكتاب البارزين الذين تصدوا لمناقشة الرقابة الايرلندية .

وسوف نعرض بعض هذه الدراسات المشار إليها فى الصفحات التالية :

ماريون ويت يتحدث عن ييتس

يقول ماريون ويت ان الشاعر ييتس فى أول زيارة له لأمريكا عام ١٩٠٣ أعجبه فيها ما تميزت به هذه البلاد من سماحة على الصعيدين السياسى والدينى بعكس ما رآه فى موطنه الأصلى من تزمت وانغلاق . وسعى ييتس ما وسعه السعى إلى الدعوة إلى تسامح مثيل بين بنى جلدته . ولكنه شعر قرب وفاته فى الثلاثينات من القرن العشرين أن مجهوداته ضاعت سدى . ويتضح لنا هذا من تتبع ما آل

إليه مسرح الأبيه الذى ظل ييتس يديره لفترة طويلة . يقول بيتر كافاناخ المؤرخ المسرحى فى هذا الشأن ان النجاح الذى حققه ييتس فى حماية هذا المسرح على مدى أربعين عاما كان محدودا ومرتبطا فى ذات الوقت بشخصه فبمجرد أن وورى ييتس الثرى عام ١٩٣٩ بدأ هذا المسرح العتيق يتعرض لمضايقات الرقابة وتدخلها السافر فى شئونه فهى تحدد له ما ينبغى عليه تقديمه على خشبته ، تسمح بما تريد ، وتمنع ما تريد . وظل الشاعر المسرحى ييتس طيلة حياته يحارب كل أشكال الرقابة على المسرح سواء جاءت هذه الرقابة من الحكومة الأيرلندية أو من النظارة وعامة الناس الغوغاء أو من الكنيسة الكاثوليكية أو من دعاة القومية الايرلندية أو من الحكومة الانجليزية . ودعته رغبته فى استقلال المسرح إلى الدفاع عن مسرحيات إبسن التى اعتبرها الكثيرون منحلة ومنافية للأخلاق . فضلا عن دفاعه عن الأساطير الايرلندية التى توارثها الخلف عن السلف . وأيضا دفاعه عن الحياة الأيرلندية فى الحاضر ضد احتقار بعض المثقفين لها وتعاليهم عليها . .

لقد عشق ييتس الحرية وعبر عن مقته الشديد للرقابة . ويتجلى لنا هذا من دفاعه عن بعض الأعمال الأدبية لأدباء يحملون له الكراهية ولا يحمل لأشخاصهم أى ود . ولكن اعجابه بموهبتهم ينسيه عداءهم له وجفاءه نحوهم . ولم يكتف ييتس بالدفاع عن مسرحيات صديقه الكاتب المسرحى سنج بل دافع بنفس الحماس عام ١٩٠٩ ضد الحكومة الانجليزية عن مسرح الأبيه الذى يتولى إدارته فى تقديم مسرحية « افتتضاح أمر بلانكو بوستنيت » لبرنارد شو التى حظرت انجلترا تمثيلها . . ولم يخف ييتس من تهديد انجلترا له باغلاق مسرحه أو من افلاسه نتيجة هذا الاغلاق ، وفى خطاب كتبه ييتس إلى صديق له عام ١٩٢٧ نراه يثنى عاطر الثناء على أعمال ليام أوفلاهيرتى الروائية . ويتهم المسئولين الأيرلنديين بالسعى إلى استنان قوانين

الرقابة خصيصا من أجل التخلص من هذا الأديب وازاحته من الطريق . هذا بالرغم من الهجوم القاذع الذى شنه أوفلاهيرتى على ييتس فى العام السابق (١٩٢٦) بسبب دفاع ييتس عن الكاتب المسرحى أوكيسى وتقريظ مسرحيته « المحراث والنجوم » فقد كان ييتس مقتنعا بأن أفلاهيرتى يمتلك الموهبة الروائية وأن من حقه أن يجد من يستمع إليه . ويرجع السبب فى محاربة ييتس لكافة أشكال الرقابة إلى ايمانه الراسخ الذى لا يتزعزع بأن الأدب لا ينبغى أن يخضع أبدا لمقتضيات السياسة أو الأخلاق . كما أن الأدب هو معلم الانسانية فكل رائعة أدبية ان هى إلا قطعة من ضمير الانسان . ولهذا نراه يقول انه من الطبيعى أن يقوم رجال الدين ورجال الصحافة بمهاجمة الأدباء لأنهم يسعون إلى إنارة الظلمة التى تعيش فيها ضمائر الناس ، ويذهب ييتس إلى أن الرغبة الصادقة من جانب الأديب الحق فى انارة ظلام الضمير الانسانى من شأنها أن تجعل هذا الأديب مقداما وجسورا . الأمر الذى يجعل أدبه يبدو غير أخلاقى فى نظر مناوئيه وشانئيه . وكذلك سعى ييتس إلى تنبيه القوميين الأيرلنديين إلى الخطر الذى ينطوى عليه تزمتهم الأخلاقى ونزعاتهم البيوريتانية المتشددة التى وصفها بأنها دخيلة على الشخصية الايرلندية لأنها تنبع أساسا من الشخصية الانجليزية . واحتج على رجال الدين بقوله ان الأدب لا يخضع لأى قانون أخلاقى يحاول أى انسان أن يفرضه عليه . وعندما ترامى إلى علمه أن أحد الأساقفة يحرض رعيته على عدم قراءة قصص الحب لأنها منحطة وفاسدة رد عليه ييتس بمقال بعنوان « الرقابة والقديس توماس الأكوينى » بدأه بعبارة غامضة عن البذاءة اقتبسها من مشروع قانون الرقابة المقترح لا تصلح للتعريف بها .

لقد أدرك ييتس منذ البداية أن الأدب فى نهاية المطاف ليس سوى تجربة ورؤية فردية للعالم الذى نعيش فيه . وأن من حق الأديب أن يختلف مع بنى جلدته فى الرؤية والتجربة وليس فى مقدور المجتمع أن

يستمتع بالأدب والفن إلا إذا سلم بحق كل انسان فى أن تكون له رؤيته الخاصة وتجربته المفردة . والرأى عند ييتس أنه بفرض أن الرأى العام يدين بأسمى وأنبل الأفكار فإن محاولة فرضها على الأديب والفنان معناها وضعهما فى نوع من السجن . وأشار ييتس إلى أن اصرار سنج على التعبير عن رؤيته الخاصة فى مواجهة الرؤية العامة كانت السبب الحقيقى فى مشاكله . فعندما قدم سنج مسرحيته « بئر القديسين » فى دبلن عام ١٩٠٥ لاحظ ييتس أن الجمهور الايرلندى استقبلها بهدوء عجيب يخفى فى طياته العداوة العميقة الكامنة ، الأمر الذى جعل ييتس يكتب إلى جون كوين قائلا : سوف نخوض حربا ضروسا قبل أن نحصل على اعتراف بحق كل انسان فى أن يرى العالم بطريقته الخاصة . . ويضيف ييتس أن شخصية سنج الفريدة من نوعها فجرت قضية لم تكن معروفة فى ايرلندا من قبل وهى حق الأديب الخلاق فى الايمان بأحكام أخلاقية طازجة وغير مسبوقة تتعارض مع ما يدين به عامة الناس وكذلك حق هذا الأديب فى الاستمساك بعمق خياله وأصالته حتى ولو تعارضت مع الرأى العام . والمشكلة التى واجهها سنج لا تكمن فى أنه صور شخصياته الريفية بطريقة كريهة ومنافية للأخلاق بل تكمن فى أنه استحدث معيارا أخلاقيا وفكريا خاصا به ، هذا هو السبب الحقيقى الذى دعا إلى انزعاج الناس من أدبه . وينتهى ييتس إلى حقيقة مريرة مفادها أن عامة الناس يكرهون الممتازين لا لشىء إلا لأنهم ممتازون . ويستشهد على ذلك بالمبادىء الرفيعة التى استمسك بها كل من بارنل وهيولين ، وهى مبادىء قابلها الرأى العام بالصدود .

وهاجم ييتس بعد ذلك الرقابة التى فرضتها جماعة « الأخوة المسيحيون » على أغنية قديمة وكتاب جديد . والأغنية القديمة هى « أغنية شجرة الكريز فى أعياد الميلاد » التى يعتبرها الشاعر تحفة أدبية . ويعبر ييتس عن أسفه وحزنه لأن الكاثوليك المتعصبين أحرقوا

نسخا من هذه الأغنية فى شوارع دبلن فى احتفال سجلته كاميرات الأفلام رغم أن الأغنية تدل على إيمان صاحبها بفكرة تجسد الكلمة فى السيد المسيح على نحو ساذج .

أما العمل الأدبى الحديث الذى حظره الجهلة من رجال الدين والذى أشاد ييتس بروعته وجرأته فهو قصة ألفها لينوكس روبنسون بعنوان « عذراء سليف دان » نشرتها مجلة أمريكية دون أن يفكر أحد فى الاعتراض عليها . ولكن بمجرد اعادة نشرها فى دبلن عام ١٩٢٤ فى مجلة « الغد » صودرت المجلة وطرد المؤلف من عمله فى الهيئة القومية للمكتبات . وتدور القصة حول فتاة متدينة اغتصبها صعلوك وهى فى غيبوبة وحملت الفتاة سفاحا فاقنعت نفسها وأهلها بأن الطفل الذى فى أحشائها هو المخلص المنتظر.وفى هجومه اللاحق على فكرة استنان قوانين للرقابة فى أيرلندا احتج الشاعر على غموض تعريف مصطلح البذاءة الأمر الذى سوف يسمح بفرض الحظر على أروع قصائد الحب والغزل وعلى أعمال داروين وماركس وفلوبيرت وبلزاك وبروست وأناتول فرانس ونصف الكلاسيكيات الأغريقية والرومانية وكل الكتب الممنوعة الواردة فى قائمة المحظورات التى تصدرها الكنيسة الكاثوليكية . وليس هناك دفاع يفوق فى عظمته دفاعه كعضو فى البرلمان الايرلندى عن حق الأقلية البروتستانتية فى أيرلندا الجنوبية فى عدم التقيد بقوانين الطلاق الكاثوليكية التى سعت الكنيسة الكاثوليكية إلى فرضها عنوة واقتدار على هذه الأقلية البروتستانتية ويفاخر ييتس بأن بنى جلدته الأيرلنديين هم أحفاد الفيلسوف باركلى والأديبين سويفت وبارنل وبأن الفضل يرجع إلى أيرلندا فى رفع لواء الأدب الانجليزى الحديث . وأضاف أن انتهاك الأغلبية لحق الأقلية فى الحرية والاختيار من شأنه أن يقضى على الأمل فى توحيد شطرى ايرلندا فى المستقبل فكيف يطمئن البروتستانت إلى الكاثوليك الذين لا يتورعون عن فرض آرائهم المتعصبة عليهم . ودعا الشاعر

البروتستانتى إلى مقاومة هذا الطغيان . . والجدير بالذكر أنه واحد من الذين عارضوا وسخروا بشدة من حظر بلاده لمسرحية برنارد شو « مغامرات الفتاة السوداء فى بحثها عن الله » وأدهش ييتس أصدقاءه حين وجدوه يحتفظ ببعض الصور الفوتوغرافية العارية لينفى رسوم مايكل أنجلو الموجودة فى الفاتيكان حتى يقتنع المسئولون الايرلنديون أن الفاتيكان نفسه لا ينبذ العرى . ويذكرنا شين أوكيسى بسعى ييتس دون جدوى للحد من سطوة الأغلبية الكاثوليكية على الأقلية البروتستانتية. فقد اقترح الشاعر ضم قسيس بروتستانتى إلى اللجان الرقابية الكاثوليكية ليتضح له أن هذا القسيس البروتستانتى أكثر تشددا فى حظر المطبوعات من أقرانه الكاثوليك .

وفى الثلاثينات ساهم ييتس فى انشاء أكاديمية الآداب بهدف توحيد الأدباء حتى يقفوا صفا واحدا ضد سخافات الرقابة.ورغم مرضه عندما تقدم به العمر ظل يقاوم فكرة فرض الرقابة على الآداب والفنون دون جدوى حتى وافاه الأجل المحتوم ورغم أن أعمال ييتس المنشورة لم تتعرض قط للحظر فإن النقاد والكتاب لم يستقبلوا قصائده وأشعاره بالترحاب،كما أن مسرح الأبيه الذى أشرف عليه تعرض للهجوم المتكرر عليه . ويقول رجل المسرح المعروف السير هربرت جريرسون أن ييتس فى لقاءاته الباكرة معه كان يردد قوله انه بعد خلاص أيرلندا من براثن انجلترا سوف يخوض الايرلنديون صراعا آخر من أجل الخلاص من سيطرة رجال الدين عليهم . وفى أخريات حياته اعترف الشاعر بأنه هزم،فقد حسم الصراع بما لا يدع مجالا للشك لصالح رجال الدين وليس لصالح قوى التنوير والتحرر . وعند عودته إلى دبلن من أمريكا ساءه أن يتهم مسرحه بتشجيع الكفر والالحاد.الأمر الذى جعل الكثيرين يطالبون الحكومة بسحب المعونة المالية التى تقدمها إليه فضلا عن ضرورة فرض الرقابة عليه . وشنت جريدة الستاندرد ـ وهى أهم الصحف الدينية وأوسعها انتشارا ـ

هجوما قاسيا على الشاعر لأنه سمح بتقديم مسرحية « سيلفر تاسى » لشين أوكسى على خشبة مسرحه . وعندما اندلعت الحرب الأهلية فى أسبانيا عام ١٩٣٦ اجتمع نفر من غلاة المتدينين المسيحيين وهددوه بالهجوم الغوغائى على شخصه وعلى الأكاديمية الأدبية التى أنشأها . وحين قبل مسرح الأبيه عرض آخر انتاجه المسرحى « بيضة المرن » انزعج انزعاجا شديدا ولم يهدأ له بال حتى صرف المسرح نظره عن اخراج المسرحية . ولا غرو فقد كان ييتس على يقين من أن مسرحيته سوف تسبب اندلاع أعمال العنف والشغب .

وفى عام ١٩٣٤ شكا ييتس من أن مسرحه الذى كان فى يوم من الأيام يتمتع بالسمعة العالمية الطيبة وكذلك الأكاديمية الأدبية أصبحا يقابلان الآن بالاهمال والتجاهل لانصراف الطبقات العليا فى ايرلندا الى الرياضة وانصراف طبقات الشعب الايرلندى الأخرى الى التعصب الدينى والسياسى التى غرقت فيه حتى آذانها . ورغم أن المسئولين كانوا يشاركونه وجهة نظره ويتعاطفون معها فقد شعر بعجزهم عن الوقوف ضد تيار الدهماء الكاسح الأمر الذى جعله يتنبأ بمصير قاتم لبلاده . ومن ثم نراه يقول فى أخريات أيامه:انه اذا لم تتوقف سطوة الدهماء فسوف تنتقل الحياة الايرلندية العامة من عنف الى عنف أو تتحول الى حالةمن اللامبالاة والتبلد وسوف يعيش (أدباؤهم)كالمجرمين والمطاريد فى بلادهم .

وأفقدته خيبة الأمل حماسه السابق للقومية الايرلندية ودفاعه الباسل والمجيد عنها . وقبل وفاته فى عام ١٩٣٩ بعام واحد أصدر آخر مسرحياته واكثرها قتامة ومدعاة لليأس والقنوط ، فقد تراجع فيها عن كل أفكاره السابقة المنادية بالقومية الايرلندية . وتأسى الشاعر للحال الذى وصلت اليه بلاده فى مطاردة الأدباء والضغط عليهم والتنكيل بهم . فكثيرا ماكانت الدهماء تلعب بنفسها دور

الرقيب فتقتحم المكتبات العامة لتحرق الكتب . بل ان احدى اللجان المشرفة على تزويد المكتبات بالمطبوعات قررت استبعاد كل مسرحيات الأديب الايرلندى برناردشو . وضاق الأدباء والفنانون ذرعا بهذا الجو الخانق فآثروا العيش فى عواصم غريبة : باريس ولندن ونيويورك . واستمر رجال الدين فى تضييق الخناق على رجال الفكر والأدب حتى الخمسينات من القرن الراهن ، الأمر الذى جعل حياة المثقفين وامناء المكتبات جحيما لايطاق .

وليم بتلر ييتس

يقول ييتس فى المقال الذى نشره بعنوان « الرقابة الايرلندية » فى مجلة الاسبكتاتور الصادرة فى ٢٩ سبتمبر ١٩٢٨ ان رجال الدين أسسوا جمعية تدعى « جمعية الرفاهية الملائكية » يقوم أعضاؤها من الشبان المدججين بالأسلحة الأوتوماتيكية بإيقاف القطارات والاستيلاء على ربطات كاملة من الصحف والمجلات الانجليزية للتأكد من خلوها ممايسىء . . ويرمى ييتس الاكليروس الذين يفعلون ذلك بالجهل الفاضح . ويتناول السلطة الرهيبة وغير المحدودة التى يخولها القانون المقترح لوزير العدل . فمن صلاحياته تعيين أعضاء اللجنة الرقابية المكونة من خمسةأشخاص واستبدال أعضائها بأعضاء جدد إذا رأى مايدعو لذلك . ويصبح قرار هذه اللجنة نافذا إذا اتفق أربعة من أعضائها الخمسة على رأى معين . ويهاجم ييتس صلاحيات وزير العدل التى تعطيه الحق فى التحكم فى صياغة وتشكيل فكر الأمة بأسرها . فضلا عن أن قانون الرقابة المقترح يخول لرجال الشرطة ـ دون الرجوع الى اللجنة الخماسية ـ الحق فى مداهمة أى محل أو معرض لبيع الصور ومصادرة الصور التى يرونها بذيئة وتقديم صاحبها الى المحاكمة . الى جانب ان القانون المقترح يجرم نشر اى اعلان عن أية مجلة او مطبوع او صحيفة تدعو

الى تحديد النسل . وبصدد حظر القانون المقترح لروائع الفكر والأدب العالمى يقول ييتس :ان هذا ليس واردا بطبيعة الحال فى نية المشرع . ولكن نية المشرع شىء ونص القانون شىء آخر . والقانون لايعرف النيات ولكنه يسرى وفقا لمنطوقه . وغموض القانون المقترح فى تعريفه للبذاءة يهدد قرائح الأدباء والمفكرين وانتاجهم بالخطر .

ويشير ييتس فى مقاله عن الرقابة الى ماتعرض اليه مسرحه من اعمال الشغب التى قام بها الدهماء بسبب عرض مسرحيات لا تروق لهم وكيف أن قوانين الرقابة المقترحة ستجعل من المسرح بالذات هدفا للقمع والاضطهاد . ويضيف ييتس انه من حسن الطالع أنه تمكن من انشاءهذا المسرح فى غياب الرقابة المقترحة . فلو كانت مثل هذه الرقابة موجودة عند انشائه لكانت كفيلة بالقضاء عليه قضاء مبرما حتى ولو اشترك بعض الرقباء البروتستانت مع الرقباء الكاثوليك فى توجيه سياسته .

ويفخر ييتس بأنه مهما حدث لمسرحه من انتكاسات بسبب تدخل رجال الدين المتزمتين فى شئونه فإنه أصبح مسرح الدولة .

AE(جورج وليام راسل)

فى مقال نشره بعنوان « الرقابة فى ايرلندا » فى مجلة « الناشن والأثينيوم » اللندنية بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨ يعزو هذا المناضل من أجل الحرية اقتراح سن الرقابة فى بلاده الى مايسميه « توقف النمو » أو « الطفولة الأخلاقية » ويحدثنا عن واحد من أهم أسباب هذه الظاهرة بقوله ان ٩٥ ٪ من الأولاد الايرلنديين يتركون مدارسهم وهم غلمان فى الثانية عشرة من أعمارهم أى قبل أن يبدأوا فى تعلم أى شىء له قيمته . هؤلاء الصبية الجهلةهم المسئولون عن تفشى هذه

الطفولة الانسانية .

ويتناول AE حساسية الايرلنديين المفرطة ازاء الجنس على نحو لا تعرفه الشعوب الأخرى فهم يستبشعون الانتهاكات الجنسية اكثر مما يستبشعون جرائم القتل والسرقة . ويضيف هذا الكاتب ان واضعى المناهج الدراسية يتحاشون شعر الحب والغرام فاذا ذكروه ، طهروه من أية الفاظ لها دلالات جنسية فهم. على سبيل المثال يستبعدون من شعر اوليفر جولد سميث مجرد اشارته الى « همس العشاق » وحين ظهر اعلان على الحوائط والواجهات يصور طفلا رضيعا عارى الجسد هاجت الدنيا وماجت وأصر دعاة الفضيلة والأخلاق على أن يقوم النقاشون بالباسه بنطلونا يستر به عورته . وثارت ضجة واحتدم الخلاف حول اغنية ورد فيها لفظ التقبيل يقول AE ان مثل هؤلاء الجهلة ينصبون من أنفسهم أوصياء على الفكر والأدب . ويأتون بأفعال يعاقب عليها القانون فى بلاد اخرى فهم يقتحمون المكتبات لحظر أو حرق أعمال تولستوى وشو وماترلنك وتورجنيف وبلزاك رغم انهم لم يقرأوها لأنهم سمعوا عنها أنها كتب شريرة. ونفس هؤلاء الغوغاء هم الذين اضطروا الوزراء والحكومة عن طريق جمعياتهم وتنظيماتهم المتشددة الى تقديم مشروع قانون بفرض الرقابة على المطبوعات رغم عدم اقتناعهم وعدم اقتناع صفوة رجال الدين الكاثوليكى به .

والرأى عند AE أن مثل هؤلاء الناس الذين يعانون مما يسميه « الطفولة الأخلاقية » لايثقون فى قدرة الدولة أو الكنيسة على منع الأدب الضار بل هم يريدون ان يقوموا بأداء هذه المهمة بأنفسهم فمسودة مشروع القانون الأصلى تخول لهؤلاء الأغرار المأفونين الحق فى تفتيش المنازل بحثا عن نسخ الكتب الممنوعة وتحرم فى نفس الوقت الناشر الذى ينفق ماله فى طبع الكتاب من حقه فى الاستئناف ضد قرار لجنة المراقبة . ويذهب AE الى أن مشكلة هؤلاء الصغار تكمن

فى جهلهم المطبق بروح الانسان وعدم ادراكهم أن الفضيلة التى يسعون الى احيائها لايمكن ان تقوم لها قائمة بدون أن تتوافر للانسان حرية الاختيار . وقد بلغ النزق بهؤلاء الصغار أنهم يحاربون باسم الله والفضيلة كل شىء بدءا بالرقص وملابس النساء القصيرة الى الكتب والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما .

فرانسيس هاكيت

الروائى فرانسيس هاكيت أحد ضحايا قانون الرقابة فى ايرلندا فرضت الرقابة حظرا على روايته « الأسد الأخضر » بتهمة البذاءة . يقول هاكيت فى مقاله « كمامة مصنوعة فى ايرلندا » المنشور فى مجلة دبلن عام ١٩٣٦ ان الرقابة لاتلحق بالمؤلف ضررا ماديا فحسب بل ضررا معنويا ايضا وهو الأجل والأخطر . ويحتج هاكيت بأن الرقابة مسألة نسبية بحتة تختلف باختلاف العادات من بلد الى آخر . فماهو بذىء فى بلد يعتبر أمرا طبيعيا فى بلد آخر . ولايشفع للرقيب صدقه واخلاصه فكما اوضح برنارد شو فى مسرحيته عن جان دارك ليس هناك شك فى اخلاص الذين اضطهدوا هذه القديسة ونكلوا بها . ويذهب هاكيت ان ضغط الرقابة من شأنه أن يولد الانفجار فى نهاية المطاف . وليس أدل على سوء قانون الرقابة من انه يصادر خير ماانتجته الانسانية من أدب فى جميع أرجاء العالم .

ويعيب هذا الكاتب على الرقابة انها تبث الرعب فى قلوب المؤلفين والناشرين وامناء المكتبات وتجار الكتب بل انها ترهب أيضا المحررين والكتاب الذين يقومون بمراجعة الكتب فى الصحف والدوريات . ويعبر عن انزعاجه لأن معظم الصحف والمجلات لاتنشر اسماء الكتب الممنوعة مما يجعل هذه الكتب تغتال فى السر . ويسلم هاكيت بحق الجمعيات الدينية التطوعية مثل « جمعية الحقيقة البريسبيترية »

و « جمعية الحقيقة الميثودية » و « جمعية الحقيقة الكاثوليكية » أن تفرض الحظر الذى تراه على اعضائها وقرائها . ولكن يجب على الدولة ان تكفل الحرية المدنية لكافة طوائف الشعب على اختلاف مللها ونحلها والتنوع فى الرأى والاختلاف فى أمور الدين من صميم النظام الديمقراطى الذى تنهض عليه الدولة . ولاينطبق هذا فقط على النظام داخل الدولة الواحدة بل على علاقة الدول ببعضها البعض . وعلى الكنيسة ان تدرك ان الاستقلال فى الرأى والاختلاف فيه من صالحها كما انه من صالحها أن تتطور شخصية الأمة القومية تطورا حرا . وليس هناك من سبيل للوصول الى الحقيقة والاقتناع بها الا عن طريق الحوار الحر والأخذ والعطاء واستعداد الانسان لتعديل آرائه ومواقفه كلما رأى مايدعو الى ذلك . والويل كل الويل اذا نجحت الكنيسة فى أن تسيطر سيطرة كاملة على الدولة، فالصراع بينهما ينبغى أن يبقى متوازيا . ان الدولة الايرلندية فى رأيه تنهض على الحرية الفكرية والحرية السياسية. ويذهب هاكيت الى أن الذى يكمم عقل الأمة ويسلبها حريتها يمهد السبيل امام اى ديكتاتور للاستيلاء على الحكم والعبث بمقدرات الشعب . فحرية الرأى هى التى تصون الأمة من الانزلاق الى هاوية الاستبداد والطغيان . فالطغيان الذى يبدأ فى مجال الجنس ينتهى الى مجال السياسة . وكون الأغلبية فى ايرلندا الجنوبية كاثوليكية لايعطى الحكومة الايرلندية او الكنيسة الكاثوليكية الحق فى تجاهل حقوق الأقلية البروتستانتية .

ويلقى فرانسيس هاكيت بظلال الشك على طريقة تشكيل اللجنة الخماسية المنوط بها رقابة الأعمال الأدبية فهى تتكون على نحو يتنافى مع مبادىء العدل، فليس من العدل فى شىء ان يشترك فى تكوين هذه اللجنة اثنان من القساوسة الكاثوليك يضم اليهما شرابة خرج بروتستانتى يشعر بأنه زائد عن الحاجة ويمكن الاستغناء عنه . فالغلبة للكاثوليك لامحالة فى ذلك . الأمر الذى ينم عن التحيز الدينى .

ويعيب هاكيت على حكومة دى فاليرا الذى اقترن اسمه بحصول ايرلندا على استقلالها عن انجلترا بأنه يسمح للرقابة فى بلاده ان تساوى بين مؤلفى البذاءات وبين كتاب جادين مثل برنارد شو وهـ.ج ويلز ويعرض هاكيت لروايته المصادرة « الأسد الأخضر » فيقول:ان حظرها اكد له ان بلاده التى استطاعت التخلص من تبعيتها لانجلترا لاتزال ترسف فى تبعيتها للكنيسة الكاثوليكية فى روما . ويشير الى أن الجامعات والمدارس الأمريكية لم تر فى هذه الرواية ما يشين وأن السبب الحقيقى لحظرها فى أيرلندا لايرجع الى بذاءاتها ولكن الى نقدها اللاذع لنظام التربية الجيزويتى ولافتقار رجال الأكليروس الى السماحة ورحابه الصدر . ويختتم هاكيت مقاله بقوله:ان احتلال بريطانيا لايرلندا ليس مسئولا عن فرض الايرلنديين الرقابة على الأعمال الأدبية ،فالرقابة الايرلندية تنبع من داخل الايرلنديين انفسهم . ومعنى هذا أن الرقابة خاصية كلنية يتميز بها الشعب الايرلندى وليست وليدة ظروف الاحتلال .

مارجريت بارنجتون

تقول الأديبة مارجريت بارنجتون فى مقالها عن الرقابة المنشور فى مجلة « كومونويل » بتاريخ ١٥ أغسطس ١٩٤٧: انها لاتستعقل ان تقوم لجنة مكونة من خمسة رقباء من العواجيز المأفونين بتحديد ماينبغى عليها قراءته كما لو كانت فتاة ساذجة أو مراهقة . وتتهم هذه الكاتبة الرقباء بأنهم أناس لم يتجاوزوا بعد مرحلة المراهقة العاطفية رغم تقدمهم فى العمر . وتذهب بارنجتون الى أن القوة الدافعة التى تحرك الرقابة فى ايرلندا ليست رجال الأكليروس بقدر ماهى الهيئات الدينية ذات الطابع المدنى ، الأمر الذى يجعل الرقابة فى ايرلندا مطلبا قوميا وليس مطلبا دينيا . وتقوم لجنة الرقابة فى المتوسط بحظر ثلاثة كتب كل اسبوع . وحيث ان اعضاء لجنة الرقابة يؤدون عملهم الرقابى دون

مكافأة أو اجر وأنهم دائما مشغولون وليس لديهم الوقت الكافى للقراءة فإنهم لايجدون غضاضة فى الاعتماد فى احكامهم على المتدينين المتحمسين الذين يتطوعون بالتبليغ عن المطبوعات البذيئة . وتشير الكاتبة الى التعديل فى قانون الرقابة القاضى بحق المؤلف او الناشر فى الاستئناف ضد الحظر امام هيئة الاستئناف،ولكنها تعبر عن تشككها فى جدوى مثل هذا الاستئناف نظرا لأن اجراءاته باهظة التكاليف ومعقدة . ولا تذكر مارجريت بارنجتون سوى حالة استئناف واحدة خاصة بالقضية التى أدين فيها فرانك أو كنور لنشر ترجمته لقصيدة « فناء فى منتصف الليل » واحتج الناشر على الرقابة لأنها حظرت هذه القصيدة التى وصفها بأنها ابدع قصيدة مكتوبة بلغة الغال التى سادت ايرلندا فى غابر الزمان . ودافع الناشر عن نفسه بقوله ان اصل القصيدة المحظورة يمكن شراؤه من السوق . فضلا عن انه سبق لأرلاند أو شر أن ترجمها فيما مضى دون ان يعترض على نشرها أحد . فهى عمل أدبى بديع مشهود له بالدقة وشدة الاحكام . وتعبر مارجريت بارنجتون عن دهشتها عندما أدركت ان الرقباء الذين صادروا القصيدة لم يقرأوها فى أصلها (الغالى) ولكنهم اعتمدوا على تقارير الخبراء عنها ، ورأت الكاتبة انها فضيحة ان يقوم انسان بحظر كتاب دون قراءته .

وفى ١٨ نوفمبر ١٩٤٢ أثار جون كين مشكلة الرقابة فى مجلس الشيوخ فقد عرض على وزير العدل مشكلة ثلاث روايات محظورة هى « الترزى وأنستى » تأليف اريك كروس و « ارض التوابل » تأليف كيت أوبرين و « قوانين الحياة » تأليف هاليداى سذرلاند . وكان الأمل يحدو جون كين ان يقوم الوزير بقراءتها بنفسه . ولكن الوزير اعتذر بأنه ليس متخصصا فى الأدب . ولهذا فانه يعتمد فى احكامه على ماتصل اليه هيئة الرقباء من قرارات . ودافع عضو مجلس الشيوخ السيناتور فيتز جيرالد عن روايات جراهام جرين وطالب برفع الحظر

عنها قائلا: انه ليس من المعقول ان تقوم الرقابة بحظر اى كتاب لا يتناسب مع فتاة مراهقة أو موظفة آلة كاتبة .

وانتهت الجلسة التى عقدها مجلس الشيوخ لمناقشة المشكلة بانتصار الفريق المدافع عن الرقابة وهزيمة عضو مجلس الشيوخ الذى تقدم الى هذا المجلس بالاستجواب .

وتختتم مارجريت بارنجتون مقالها باعطاء القارىء قائمة مسهبة لبعض المؤلفين الذين وقع عليهم الحظر : ومن بينهم مؤلفون ايرلنديون امثال جورج برنارد شو وجورج مور وفرانك اوكنور وليام اوفلاهيرتى وشين أوفلين وأوستن كلارك وفرانسيس ستيوارت ونورا هولت وشين اوكيس وصامويل بيكيت وكيت أوبرين وكون أو ليرى ومؤلفون انجليز وأمريكيون امثال جراهام جرين وهنرى جرين وكريستوفر ايشروود ورالف بيتس والأخوة بويز وفردريك بروكوش ومايكل سادلير وستورم جيمسون وسيلفيا تونسند وارنر واولدوس هكسلى واريك لنيكلاتر وهـ . ب. ييتس وجيرالد بوليت و ف. س. بريتشيت وجيمس لافر وتوماس وولف ووليم فولكنر وكاى بويل وجون دوس باسوس وارنست همنجواى وموريس هندوس ومارتا جلهورن وجوزيف هيرجيشيمر ومؤلفون أوربيون أمثال اجنازيو سيلون ومونثرلانت وكاستنر ودى كاسترو وسيلين وريمارك وزفيج وليون بلوم وجول رمان وروبرت نيومان والفرد نيومان وأناتول فرانس وشوليم أسش وبوكاشيو وماكس برود وجينا كاوس ولينونارد فرانك واندريه مالرو ورامون سندر وأونامونو وايبانيز ونوت هامسون وميخائيل شولوخوف .

بريان انجليز

وفى مقال نشره بريان انجليز بعنوان « الثقافة المهربة » فى مجلة

الاسبكتاتور الصادرة فى ٢٨ نوفمبر ١٩٥٢ نرى هذا الكاتب يلقى الضوء على همة هيئة الرقابة العالية فى حظر الكتب البذيئة . ففى شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ وحده بلغ عدد الكتب التى حظرتها الرقابة خمسة وثمانين كتابا من بينها :

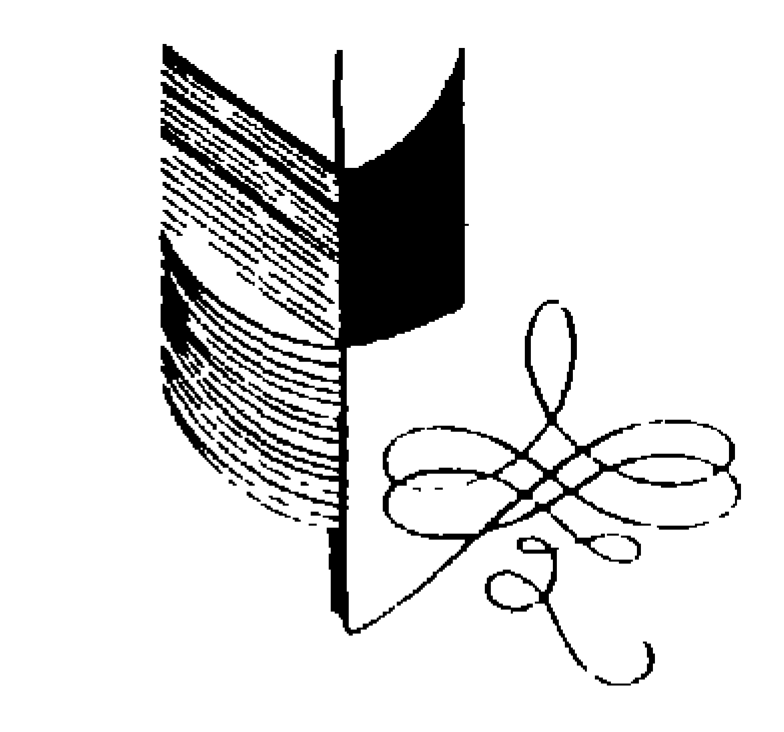
« ثلاثة أزواج من النعول » لنيل بل - « الشمس ترقص فى عيد القيامة » لأوستن كلارك - « الحب الى حد الوله » تأليف هنرى جرين - « شيشويك العسكرى الطيب » لجاروسلاف هاسيك . و « أشجار الجوز فى أتنبرج » لأندريه مارلرو « ليس الآن ياحبيبى » لستيف ماركام - و« صندوق الجحيم » لجون أوهارا - « الرغبة الفاتنة » لألان روسكو - « العنقاء الناهضة » لمارجريت ستين . « شاب فوق سمكة الدولفين » لأنتونى ثورن - « سم الهملوك ومابعده » لأنجوس ويلسون - « شقراء الفراش » لجون ويلستاتش .

ويقول بريان انجليز ساخرا:ان هيئة الرقابة اكتشفت بعد عشرين عاما من ترجمة اعمال سيشويك الى الانجليزية انها منافية للأخلاق . كما اكتشفت نفس الشىء بالنسبة لرواية « حجرة صغيرة خلفية » تأليف نيجيل بالتشين ورواية « أربعة أشخاص خائفون » بقلم الآنسة ارنوت روبرتسون التى سبق لدار بنجوين ان نشرتها منذ عدة سنوات . وقامت الهيئة بحظر هذه الأعمال الثلاثة بعد تداولها . والأدهى أن الرقابة حظرت رواية بالتشين فى طبعتها للجيب الأمريكية بسبب غلافها الذى استثارها .

وفى عام ١٩٤٩ قدم احد اعضاء لجنة الرقابة استقالته من أعمال اللجنة لأنه رأى انه يستحيل عليه تطبيق النص القانونى القاضى بعدم حظر الكتب التى تتمتع بأهمية أدبية وفنية وعلمية وتاريخية بسبب سيل الكتب الدافق المعروضة امام لجنة الرقابة . ونجم عن ذلك ان اعضاء لجنة الرقابة كانوا يطلبون من بعض زملائهم ابداء الرأى فى

بعض هذه الكتب او يعتمدون فى حظرها فى كثير من الأحيان على العلامات التى وضعها القراء المتحمسون امام الفقرات البذيئة الواردة فيها . بل وصل الأمر الى ان لجنة الرقابة ادانت ذات مرة احد الكتب استنادا الى مقال يهاجمه منشور فى احدى صحف يوم الأحد . ولم يجد وزير العدل آنذاك غضاضة فى الدفاع عن اسلوب اللجنة الرقابية فى العمل. فقد صرح هذا الوزير بأنه لاتثريب على اللجنة اذا لم تقرأ الكتاب كله واكتفت بقراءة بعض أجزائه عندما يكون هذا الكتاب معروفا ببذاءاته وإباحيته لدى العام والخاص كما هو الحال بالنسبة إلى رواية جيمس جويس المعروفة « يوليسيس » . فضلا عن ان لجنة الرقابة لم تتورع أحيانا من أن تتحدى القرارات التى تصدرها هيئة الاستئناف برفع الحظر عن بعض هذه الكتب . وليس هناك أدل على اضطراب سير العمل فى جهاز الرقابة من انه أحيانا فرض الحظر على كتب امتدحتها الكنيسة الكاثوليكية فى بلاد أخرى من بلاد العالم مثل أمريكا وهولندا .

وفرضت الرقابة الايرلندية ايضا الحظر على رواية « قلب المسألة » لجراهام جرين المعروفة باتجاهها الكاثوليكى الواضح والذى وصفها الروائى ايفلين فوه بأنها رواية لا يمكن لغير مؤلف كاثوليكى ان يكتبها. ومن المضحك ان جريدة « التيمز الايرلندية » نشرت اعلانا يمتدح هذه الرواية فى نفس العدد الذى ذكرت فيه فى موضع اخر أن الرقابة فرضت الحظر عليها . ولأن المسألة زادت عن حدها لم تستطع حكومة دى فاليرا فى ايرلندا الجنوبية السكوت على هذه المتناقضات فنبهت اللجنة الرقابية الى عدم تكرارها حتى لاتصبح سمعة البلاد مضغة الأفواه ومثارا لسخرية العالم وبخاصة ايرلندا الشمالية التى سوف تستغل مثل هذه الفوضى لرفض فكرة توحيد شطرى ايرلندا والدفاع عن ضرورة وجود حدود فاصلة بين هذين الشطرين .



الفصل السابع

الرقابة فى فرنسا

يرسم الرجل الانجليزى فى ذهنه صورة وردية زاهية لفرنسا باعتبارها بلد الحرية فى كافة المجالات ومن بينها الطباعة والنشر، وفى المقابل يرسم الرجل الفرنسى فى ذهنه صورة لضيق أفق وتزمت الرجل الانجليزى تنم عن الزراية والازدراء. ومن ثم نجد الفرنسيين فى العادة ينشرون كل مادرج الانجليز على رفضه باستثناء السيرة الذاتية لفرانك هاريس التى أعرض عنها الفرنسيون بقدر ما أعرض عنها الانجليز. فقد داهم البوليس الفرنسى منزل فرانك هاريس أثناء إقامته فى نيس أملا فى العثور ـ دون جدوى ـ على نسخ مخبأة من كتابه . أضف إلى ذلك أن الفرنسيين قدموه إلى محاكمة محلية بعد أن نشر الجزء الثانى من سيرة حياته فى باريس . ولولا احتجاج نفر من كبار الأدباء أمثال هنرى باربوس ورومان رولاند لاستمر الادعاء الفرنسى فى مقاضاة الكتاب . وبسبب هذه الضغوط أصدرت المحاكم الفرنسية عام ١٩٢٨ حكما بنظافته من البذاءة . فضلا عن أن ترجمة الكتاب إلى الفرنسية سلمت من الأذى ولم تتعرض لأية مضايقات أوعنت . وبالرغم من أن قوانين البذاءة فى فرنسا تميزت بقدر كبير من السماحة فلا مناص من الاعتراف بأن القوانين الفرنسية أظهرت من وقت لآخر تزمتا أخلاقيا واضحا لا يقل عن التزمت الانجليزى فى عهد الملكة فيكتوريا أو تزمت كومستوك البيوريتانى فى أمريكا .

وفى ظل النظام القديم قبل اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ درجت الرقابة فى فرنسا على حظر الكتب المهرطقة فى مجال السياسة والدين . ومن ثم وقفت الرقابة الفرنسية آنذاك بالمرصاد لكل من تسول له نفسه الهجوم على الملك أو رجال الاكليروس . ولكن الأغنية الفرنسية تمتعت بحرية خاصة منذ عهد الشاعر فرانسوا فيلون (١٤٣١ ـ ١٤٨٥ تقريبا) فقد امتنع الرقيب الفرنسى عن التدخل فى شئونها وسمح لها بالتطاول على السلطة والاستهزاء بها . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى أن السلطة رأت أن الأغنية هى وسيلة الفرنسيين

الوحيدة للتفريج عن كربهم . ولا يزال هذا التقليد مستمرا فى فرنسا حتى يومنا الراهن . وتستخدم الأغنية الشعبية فى فرنسا بذاءات جنسية ترمى إلى التعريض بحكام فرنسا وأولى الأمر فيها . وفى فترة الثورة الفرنسية تمتعت فرنسا بدرجة مذهلة من الحرية تمثلت ذروتها فى السماح بنشر وتداول كتابات الماركيز دى بريتون ورتيف دى لاويتون التى أمر المسئولون بنقلها وحفظها فى المكتبة القومية بدلا من تدميرها . وضاق الثوار ذرعا بالاباحية الفرنسية المتفشية فاستصدروا عام ١٧٩١ ـ رغم معارضة روبسبيير ـ قانونا يحرم بيع الصور البذيئة والاتيان بأفعال بذيئة من شأنها أن تخدش حياء النساء وتشيع الفساد بين الصغار . ثم جاء نابليون بونابرت بعد ذلك ليحكم فى عام ١٨١٠ قبضته على الأغانى والكتابات على حد سواء .

وبعودة الملكية إلى فرنسا (١٨١٤ ـ ١٨٢٤) سادت نبرة أخلاقية عالية تدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق . وفى عام ١٨١٩ صدر قانون يجرم المساس بالدين والاساءة إلى الأخلاق العامة ، وكان مؤلف الأغانى بيرنجيه أول ضحايا هذا القانون الذى طبق عليه لأسباب فى حقيقة الأمر سياسية،إذ كان معروفا بآرائه الليبرالية وولائه لنابليون بونابرت الذى تم نفيه من فرنسا بعد إلحاق الهزيمة به . وقد حوكم هذا الشاعر فى حياته مرتين وليس مرة واحدة .

وفى عام ١٨٩٥ شاهدت فرنسا إحدى الحالات النادرة لاضطهاد العلم والعلماء فقد تعرض للخسف والاضطهاد بحث علمى للمؤرخ وعالم الآثار الجليل رانتوا جاك ديلور بعنوان « تناسليات قدسية » سبق أن نشره منذ عشرين عاما ثم أعاد نشره آنذاك . والكتاب عبارة عن دراسة علمية لعنصر التناسل والذكورة فى كل الأديان عبرالعصور المختلفة . وانتهز أعداء ديلور وشانئوه المشايعون للنظام الملكى هذه الفرصة للانقضاض عليه والانتقام منه بسبب جهره بتجنيد النظام

الجمهورى وهجومه العاتى على الكنيسة الكاثوليكية فهاجموه واتهموه بالبذاءة . كما تعرضت لنفس الاتهام أعمال كثير من المفكرين والأدباء الفرنسيين أمثال فولتير وجان جاك روسو والأب بريفوست . وفى تلك الفترة صدر حكم بالادانة على كتاب لوفيت كوفراى « غراميات فارس فوبلاش » ما لا يقل عن أربع مرات . ويرسم هذا الكتاب الذى صدر لأول مرة بين عامى ١٧٨٦ و ١٧٨٩ (والذى أثار ثائرة الكاتب الانجليزى كارليل) صورة لما كان عليه سلوك الارستقراط قبل الثورة الفرنسية . وأيضا أدينت أعمال كريبلون الابن فى سنة ١٨٥٢ والذى غضبت عليه وعلى كتاباته مدام دى بومبادور فأمرت بإبعاده عن باريس .

والأدهى من هذا كله أن القانون الفرنسى فى تلك الفترة أعاد النظر فى الانتاج الأدبى الذى ظهر فى عهد الثورة وما قبلها وحكم عليه بالبذاءة وعلى أصحابه أمثال الشاعر رونسار وبرون وكود يرلوس دى لاكلوس وميرابو ، الأمر الذى يدل على أن السماحة التى تميزت بها الحياة الأدبية الفرنسية لم تكن سماحة مطلقة أو متصلة . فضلا عن أن تعسف الرقابة الفرنسية بلغ ذروته فى منتصف القرن التاسع عشر . ولعل المحاكمة التى تعرض لها الروائى جوستاف فلوبيرت والشاعر شارل بودلير تمثل أوج هذا العسف .

فلوبيرت

فى يناير ١٨٥٧ قدم الروائى المعروف جوستاف فلوبيرت إلى المحاكمة بسبب نشر روايته المعروفة « مدام بوفارى » على حلقات واستمعت المحكمة إلى الدفاع الذى ذهب إلى أن فلوبيرت سعى إلى تصوير الرذيلة بهدف الاعلاء من شأن الفضيلة . واقتنع القاضى بوجهة النظر هذه فأعلن براءة الكتاب وصاحبه من تهمة التهتك

والدعوة إلى الفسق والمجون . وانتهز القاضى هذه الفرصة ليلقى على مسامع فلوبيرت درسا طويلا عريضا فى ضرورة التزام الأدب بالفضيلة والأخلاق الحميدة .

بودلير

فى صيف عام ١٨٥٧ قدم الشاعر شارل بودلير للمحاكمة بسبب نشره الجزء الأول من ديوانه السيىء السمعة « أزهار الشر » الذى استقبلته الصحافة بالشتائم والسباب وقاذع الألفاظ . واستنجد بودلير بالأديب سان بيف الذى كان له نفوذ كبير آنذاك . ولكن سان بيف تقاعس عن الوقوف بجانبه خوفا من أن يفقد هيبته عند الناس بعد أن فقد شيئا من احترام البعض له بسبب ثنائه على رواية « مدام بوفارى » . واستخدم ممثل الادعاء فى محاكمة « أزهار الشر » نفس الأسلوب المتبع فى المحاكمات الانجليزية والذى يتلخص فى تلاوة بعض فقرات الكتاب خارج السياق الذى وردت فيه . واعترض بودلير على هذا الأسلوب المتعسف وطالب بالنظر إلى الديوان كوحدة واحدة وليس كأجزاء منفصلة أو متفرقة . ولم يكتف الادعاء بالهجوم على مضمون ديوان بودلير بل هاجم أيضا سعره الرخيص الذى يسهل على الناس اقتناءه . وأصاب بودلير الذهول وظهرت على وجهه أمارات الألم الممض عندما حكم عليه القاضى بدفع غرامة . ولم يشد من أزره أو يدخل العزاء فى نفسه أن القاضى كان مؤدبا ودمثا معه يخاطبه بالشاعر طيلة فترة المحاكمة وليس بالمتهم . كما أن الكلمات التى وجهها فكتور هيجو له : (إن ديوانك « أزهار الشر » سوف يسطع ويتلألأ كالنجوم فسر إلى الأمام . برافو إنى أحيى روحك الصلبة بكل ما أوتيت من قوة) فشلت أن تواسيه أو تخفف ما فيه من كرب .

وكان بودلير مقتنعا بأنه خسر القضية بسبب سوء دفاع المحامين عنه . فقد استخدموا ـ دون طائل هذه المرة ـ نفس المحاجة التى استخدمها المحامون فى الدفاع عن رواية فلوبيرت « مدام بوفارى » وهى أن بودلير يصور الرذيلة من أجل إبراز الفضيلة . واقتنع بودلير اقتناعا راسخا بأنه لو كان قد دافع عن نفسه بأن الفن شىء مستقل تماما عن الأخلاق لاستطاع أن يظفر بالحكم ببراءته .

لم يكن الديوان الذى حوكم بودلير بسببه يحتوى على أكثر من ست قصائد اغضبت آباء الكنيسة الكاثوليكية فحرضوا صحفيا اسمه جوستاف بوردان للنيل منه وتحريك الدعوى ضده.والجدير بالذكر أن الناشر الجسور بوليه ماليسيس هو الذى رأى الموهبة فى شعر بودلير فقام بنشر ديوانه عام ١٨٥٧ ، وأن بودلير أضاف إلى ديوانه الأول عددا من القصائد ونشرها فيما بعد بعنوان مغاير . ووفقا للقانون الفرنسى الصادر فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٤٦ أمكن للقضاء أن يعيد النظر فى ديوان « أزهار الشر » وأن يصدر حكما من محكمة النقض ببراءته عام ١٩٤٩ بناء على المادة التى استحدثت والتى تنص على حق المؤلف أو ورثته أو الناشر أوورثته طلب إلغاء الحكم الصادر ضد أى كتاب متهم بالبذاءة بعد مرور عشرين سنة .

كتب أخرى تتعرض للحظر

بحلول عام ١٨٦٨ تعرض ثلاثة وستون كتابا للحظر تشمل أعمال فيرلين وكازانوفا والمؤلف المسرحى الكلاسيكى كورنيل . كما أنه سبق لرواية الكاتب الاشتراكى الثورى أيوجين سو « أسرار الشعب » أن تعرضت عام ١٨٥٧ للحظر لعدة تهم من بينها البذاءة .

واستمرت هذه النغمة الأخلاقية تسود الأدب الفرنسى حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ففى عام ١٨٧٤ أمرت المحكمة بتدمير

كتاب الشياطين تأليف باربرى أورفيللى ولكنها لم تصدر حكما بإدانة المؤلف . وبلغ التشدد الأخلاقى مداه عندما حكم القاضى على أحد الناشرين بدفع غرامة لا لشىء إلا لأنه أصدر حكايات لافونتين فى طبعة فاخرة بالرغم أن وزير الداخلية سبق أن صرح له بذلك . ولكن بحلول عام ١٨٧٦ بدأ اليسار الفرنسى يتنامى ويمارس الضغط على الحكومة كى تعفو عن الاساءات السياسية التى ارتكبها مؤسسو الكوميونات الشيوعية فى باريس عام ١٨٧٠ . عندئذ طاش عقل الحكومة الفرنسية وبدأت تتصرف بعصبية وتسدد لكماتها لكل من تشتم فيه رائحة المعارضة . فعلى سبيل المثال ألف ليبون كلاديل قصيدة بعنوان « موديت » تحدث فيها عن فكرة العفو عن المسئولين عن أحداث كوميونات باريس . وأيضا فى قصة من تأليفه صور كلاديل اضطرار زوجة أحد المنفيين بسبب اشتراكه فى أحداث الكوميونات إلى احتراف البغاء حتى تتمكن من إقامة أود أطفالها . ونشر المؤلف قصته فى إحدى المجلات فاستدعى القاضى كلا من المؤلف ورئيس التحرير وحكم عليهما بغرامة بسبب مازعم أنه بذاءات فى القصة . وفى نهاية عام ١٨٧٠ حكمت المحكمة بحبس الكاتب جان رشيبان بتهمة تأليف كتاب بذىء بعنوان « أغنية جويه » . وكان الدافع الحقيقى لهذا الحكم هو خوف الحكومة من الصورة الواقعية التى رسمها هذا المؤلف للطبقة المعدمة فى فرنسا . واحتج هذا الكاتب احتجاجا شديدا على معاملة السلطات له على هذا النحو ودافع عن نفسه بقوله إن كل جريرته هو أنه أراد أن ينبه المجتمع إلى محنة الفقراء وإلى قذارة حياتهم وعريهم وتضورهم من الجوع حتى يجد حلا لمشكلتهم .

والجدير بالذكر أن الناشر البلجيكى هنرى كيستميكر الذى نشر أعمال موباسان وهاوسمان وبعض الأدباء الفرنسيين الآخرين قدم فى بلاده للمحاكمة ثمانية عشر مرة . غير أن هيئة المحلفين البلجيكيين

كانت تبرئه فى كل مرة يمثل أمامها . كما حوكم خمس مرات أخرى أمام قضاة بدون محلفين ظفر بالبراءة فى ثلاثة منها . وأخيرا وجد هذا الناشر نفسه فى مأزق عندما أصدر أحد القضاة حكما قاسيا ضده بسبب إعلان نشره فى صحيفة يصدرها بعنوان « الغزل » فآثر الهروب من بلجيكا واللجوء إلى فرنسا التى رفضت تسليمه إلى السلطات البلجيكية .

ثم حدث تطور فى سياسة الرقابة الفرنسية فى الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر ، وكذلك فى مطلع القرن العشرين، فقد انخفضت معدلات تقديم الروايات والأعمال الأدبية الفرنسية إلى المحاكم . وازدادت فى المقابل معدلات تقديم المجلات إلى المحاكمة بتهمة البذاءة . ففى الفترة بين ١٨٩٦ - ١٩٢٦ تم تقديم عدد كبير من هذه المجلات إلى المحاكم مثل « الكوربيه الفرنسية » و « لى جراند جوينول » و « لى كيوبيدون » بتهمة نشرها قصصا ومواد بذيئة . وفى عام ١٩٤٧ تسبب الانتاج الأدبى والمجلات الهزلية المنتشرة بين الشباب فى انزعاج السلطات وأولى الأمر مما أدى إلى تكوين لجنة يناط بها الاشراف على كتب الأطفال لضمان خلوها من العنف وأعمال السطو والكذب والسرقة والخمول والجبن والكراهية والانحلال والتحيز العرقى والبلطجة،واشترطت وزارة الداخلية على ناشرى مجلات الشباب أن يسجلوا أسماءهم فى الوزارة .

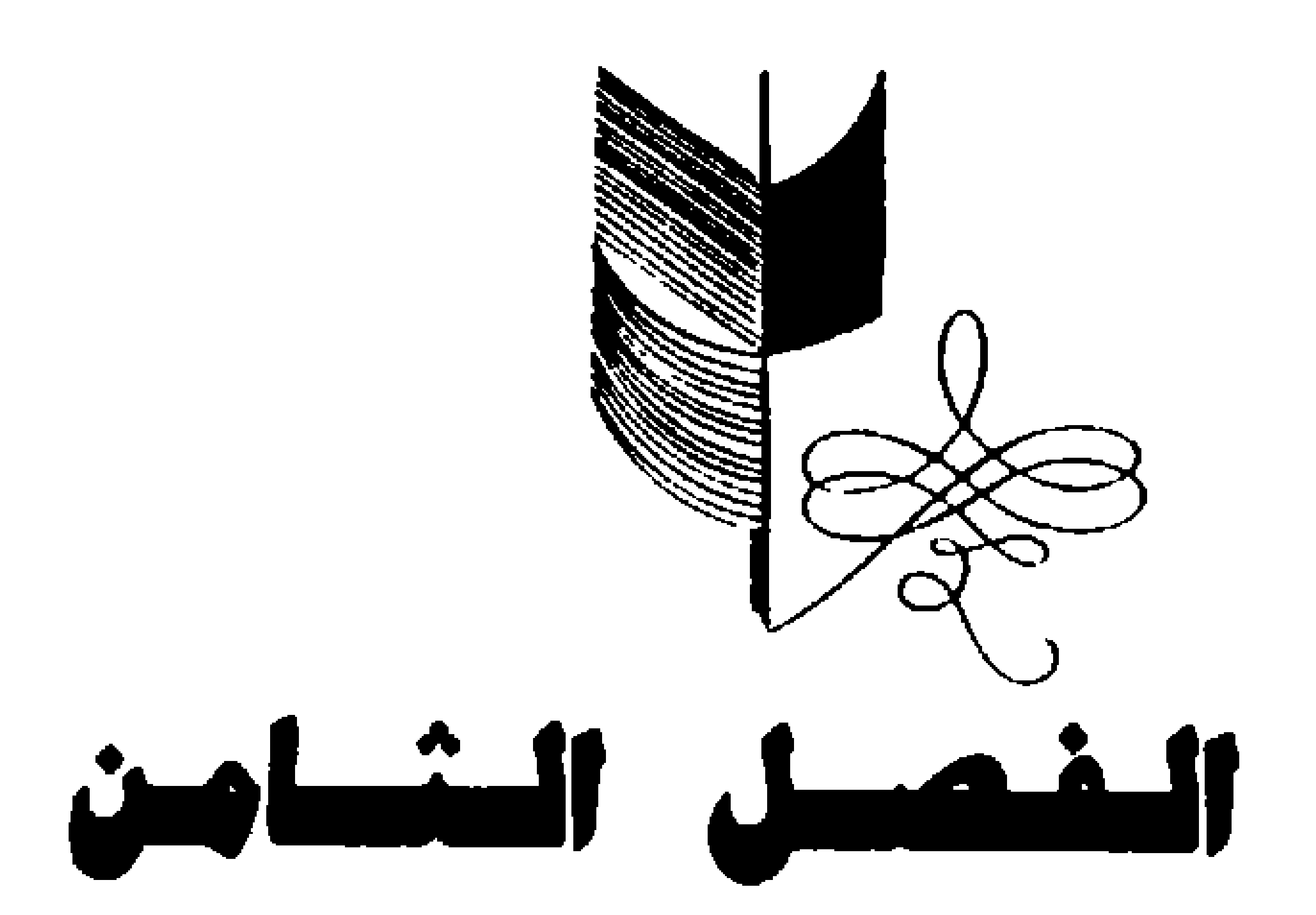
وينص القانون الفرنسى الصادر فى عام ٢٩ يوليه لعام ١٩٣٩ (مواد ١١٩ - ١٢٨) على تجريم امتلاك أو نقل أو توزيع أو بيع أو استيراد أو تصدير لأغراض تجارية أية كتابات أو صور من شأنها أن تسىء إلى الأخلاق العامة أو الاعلان عنها . ولا يعتبر هذا القانون أن

قيمة أى كتاب من الناحية الأدبية مبرر لبذاءته أو التغاضى عن هذه البذاءة . ولكن القانون أجاز إدخال هذه القيمة الأدبية فى الاعتبار عند توقيع العقوبة على المتهمين . وأعطى القانون الفرنسى لمصلحة الجمارك ومصلحة البريد الحق فى الامتناع عن نقل المطبوعات البذيئة . غير أن القانون الفرنسى وضع الضمانات التالية :

١ ـ أن يتم رفع الدعوى ضد المطبوعات المتهمة بالبذاءة فى خلال ثلاث سنوات من تاريخ ارتكاب البذاءة .

٢ ـ بدلا من الأمر بتدمير المادة البذيئة يحق للمحكمة أن تهب هذه المادة لأحد المتاحف التابعة للدولة .

٣ ـ لا يمكن رفع دعوى ضد أى كتاب دون قرار صادر من لجنة خاصة مهمتها إسداء المشورة والنصح لوزير العدل . وتسمى هذه اللجنة التى تأسست فى ٢٥ يناير ١٩٤٠ باللجنة الاستشارية للعائلات ومحال الميلاد .



الفصل الثامن

محاكمات أدبية

١ ـ رواية « عشيق الليدى تشاترلى » تأليف د. هـ. لورانس

رواية « عشيق الليدى تشاترلى » التى ألفها الكاتب الانجليزى المعروف د. هـ. لورانس من أشد الروايات بساطة فى أحداثها وفى بنائها. فهى تدور حول رجل واسع الثراء اسمه السير كليفورد تشاترلى ألحقت به الحرب عاهة كانت سببا فى إصابته بالعجز الجنسى ، الأمر الذى دعاه إلى الانصراف إلى الكتابة والتأليف يعوض بهما فشله فى ممارسة الجنس مع زوجته كونستانس التى يطلق عليها اسم كونى على سبيل التدليل . . وتخلص كونستانس لزوجها العاجز الكسيح وتتفانى فى خدمته فى بادىء الأمر . ولكنها ما تلبث أن تضيق ذرعا بحياتها معه . وتقع هذه السيدة وهى ابنة أستاذ أكاديمى فى غرام خادم اسمه ميلورز يعمل حارسا للصيد عند زوجها . ويستطيع هذا الرجل بفحولته أن يرضيها من الناحية الجنسية على نحو لم تعرفه من قبل ، فتتعلق به ويتعلق بها وتنشأ بين الاثنين وشائج حب صادق وعميق فيقرران أن يتوجا حبهما بالزواج بعد طلاقها من زوجها وأن يعيشا معا فى إحدى المزارع فى إنجلترا . وهكذا ينتصر حبهما على الفوارق الاجتماعية ويعلو فوق الحواجز الطبقية ويتحول إلى علاقة روحية حميمة . وتنتهى الرواية بأن ينتظر العاشقان بكل شوق ثمرة عشقهما وهو مولد طفلهما المرتقب .

● ● ●

بعد أن قدمنا هذا الموجز لأحداث الرواية التى ألفها لورنس عام ١٩٢٨ ونشرتها بعض دور النشر الأمريكية بعد أن امتنعت دور النشر الانجليزية عن نشرها يجدر بنا أن نذكر أن المؤلف كان يعلق أهمية خاصة على هذه الرواية باعتبار أنها أفضل تعبير عن الرسالة التى يبغى تبليغها إلى العالم . وقد بدأ لورانس فى تأليفها عام ١٩٢٦ عندما كان يعيش فى فيلا ميرندا بالقرب من فلورانسا بإيطاليا . وفى الفترة بين أكتوبر ١٩٢٦ ويناير ١٩٢٨ كان لورانس قد كتب ثلاث مخطوطات للرواية خلت المخطوطتان الأولى والثانية من الألفاظ

الفاحشة . ورغم أن المخطوطة النهائية للرواية لا تختلف فى مضمونها على الاطلاق مع مضامين سائر أعماله الأدبية الأخرى فإنها تنفرد باستخدام مفردات جنسية فاضحة لا يسمح بها المجتمع المتحضر . وبسبب هذا الفحش المتعمد من جانب المؤلف وتحديه المحسوب للمواضعات الأخلاقية والاجتماعية السائدة فى مجتمعه والشائعة فى الحضارة الصناعية المادية الحديثة صدمت روايته مشاعر الكثيرين . كان المؤلف آنذاك فى قمة شهرته ومجده الأدبى كما كان يقترب من نهاية عمره . وأدى الطلب المتزايد فى إنجلترا على الرواية إلى استحالة حظر دخولها الأراضى الانجليزية بشكل قاطع . . واستطاع الناشر الايطالى فى فلورنسا بتوخى الحيطة والحذر وبمعاونة بعض أصدقاء لورانس فى إنجلترا أمثال ريتشارد الدنجتون تهريب شحنات من الرواية داخل الأراضى الانجليزية . . ولكن إدارة الجمارك فى كل من بريطانيا وأمريكا سرعان ما تنبهت إلى ذلك فقامت بمصادرة النسخ التى تقع فى أيديها . وانتهز الناشرون مشاكل المؤلف مع الرقابة فقاموا عام ١٩٣٠ بالسطو على روايته وتزويرها وهو عاجز كل العجز عن الدفاع عن حقوقه والذود عن مصالحه . يقول لورانس عام ١٩٣٠ فى مقال بعنوان « حول عشيق الليدى تشاترلى » إنه أراد أن يضع حدا لهذا السطو فقام عام ١٩٢٩ (أى قبل وفاته بعام واحد فى ١٩٣٠) بإصدار طبعة شعبية رخيصة فى فرنسا بهدف تلبية الطلب عليها فى الأسواق الأوربية وقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية من أسرع البلاد إلى تزوير الرواية . فلم يكد يمر شهر واحد على وصول نسخها الأصلية إلى أمريكا قادمة من فلورنسا حتى بادرت المكتبات فى مدينة نيويورك بعرض نسخ مصورة مزورة منها بيعت للجمهور على أنها النسخ الأصلية ولكن بأزيد خمسة دولارات عن سعرها الأصلى وهو عشرة دولارات . وفى أمريكا توالت عمليات تزوير الرواية عن طريق التصوير الفوتوغرافى بحيث حملت النسخ المزورة توقيع المؤلف الذى كانت تزدان به النسخ الأصلية . وفى نهاية عام ١٩٢٨ رأى لوارنس

هذه النسخ الأمريكية المزورة تباع فى قلب لندن فهداه تفكيره أن يحارب التزوير بإصدار طبعة ثانية من الرواية من بضع مئات فى فلورنسا ولكن قلة عدد نسخ هذه الطبعة الثانية لم تكن كافية لإحباط عمليات التزوير والقضاء عليها . ثم قام ناشر أمريكى آخر بتزوير الرواية التى استطال شكلها واتسمت باللون الأسود وبدت كما لو كانت نسخة من الكتاب المقدس . ورغم أن التزوير فى هذه الحالة اعتمد أيضا على التزوير فإن النسخة الجديدة المزورة خلت من توقيع المؤلف عليها . وارتفع سعر هذه النسخة أحيانا إلى خمسين دولارا تبعا لغفلة المشترى أو لهفته على الشراء،ومعنى هذا أن الناشرين الأمريكان قاموا على وجه اليقين بتزوير ثلاث طبعات من الكتاب على أقل تقدير .

وفى القارة الأوربية قام بعض بائعى الكتب بإصدار طبعة من الرواية كتب عليها أن طباعتها تمت فى ألمانيا . ولكن من الجائز أنها طبعة فرنسية وليست ألمانية . وهذه الطبعة التى تتميز بالأناقة لا تعتمد على التصوير بل على جمع الحروف وإعادة الطبع بدليل خلوها من الأخطاء الكثيرة الواردة فى الطبعة الأصلية . وتراوح سعر بيع النسخة الواحدة مَن هذه الطبعة بين ثلثمائة وخمسمائة فرنك . ويعترف لورانس أن قلة ضئيلة من بائعى الكتب وأصحاب المكتبات رفضوا السير فى سكة الغش وامتنعوا عن بيع النسخ المزورة . . ويضيف إنه لم يحصل على بنس واحد من حصيلة هذه الكتب المزورة ولكن أحد بائعى الكتب فى نيويورك شعر بشىء من الندم فأرسل إليه حفنة من الدولارات ذاكرا أنها ١٠٪ من ثمن جميع النسخ المبيعة والتى تمثل حقوق المؤلف ومعتذرا بقوله إن المبلغ المرسل مجرد قطرة ماء صغيرة فى دلو . ثم أخذ الناشرون فى أوربا يساومونه فأرسلوا إليه معبرين عن استعدادهم لاعطائه حقوق التأليف عن جميع النسخ المطبوعة المَبيعة وغير المبيعة بشرط موافقته على تخويلهم الحق فى نشر الرواية . أما

الناشرون الانجليز فلوحوا له بعائد مادى كبير لو أنه قام باستبعاد الألفاظ البذيئة من روايته . وبالفعل حاول لورانس الاستجابة إلى هذا الطلب ولكن قلبه رفض أن يطاوعه . ولكن الناشرين فى إنجلترا وأمريكا قاموا بعد وفاته عام ١٩٣٠ بنشر نسخ « نظيفة » من الرواية دون الاشارة إلى أنهم أجروا تغييرات عليها .

ويلقى لورانس فى مقاله « حول عشيق الليدى تشاترلى » الضوء على الظروف التى ألف فيها هذه الرواية فيقول عن الزوج السير كليفورد الذى تهجره زوجته كونستانس لتضاجع حارس صيده:إنه نتاج الحضارة الصناعية المادية الحديثة،وأن مشكلته تتخلص فى أن دماءه تسرى فيها برودة الموت . وهو لا يفتقر إلى الدفء الانسانى فحسب بل إنه فقد كل صلة تربطه بالنساء وبزملائه من البشر . فى حين أن حارس الصيد يتميز عنه بدفء المشاعر والحيوية الدافقة . ويذكر لورانس أن كثيرا من الأدباء سألوه عن السبب الذى حدا به إلى تصوير السير كليفورد على أنه رجل كسيح وعاجز من الناحية الجسدية كما سألوه إذا كان يهدف إلى تصويره كرمز لما يريد قوله فى روايته . وقد أنحى هؤلاء الأدباء على لورانس باللوم لأنه رسم شخصية كليفورد على هذا النحو فقد كانوا يفضلون أن يرسمه كرجل قادر على ممارسة الجنس وأن تهجره زوجته رغم هذا . يقول لورانس فى هذا الصدد أنه فى بادىء الأمر لم يقصد أن يتوخى هذه الرمزية . فعندما شرع فى رسم شخصيتى كليفورد وزوجته كونستانس لم تكن لديه أية أفكار مسبقة عنهما وأن تصويرهما على هذا النحو كان عفو الخاطر . وعندما فرغ لورانس من تأليف روايته أدرك أن العاهة التى أصابت كليفورد فى الحرب ترمز للشلل العاطفى الذى يعانى منه فى يومنا الراهن كثيرون ممن هم على شاكلة كليفورد ومن المنتمين إلى طبقته . ويعترف لورانس أنه أساء إلى الزوجة العاشقة عندما صور زوجها كشخص عاجز وكسيح لأن هذا من شأنه أن يصور هجرانها لزوجها

على أنه تصرف ذميم وخسيس لأنه يجدر بها الوقوف بجانبه فى مرضه ومحنته . ومع هذا فقد قرر ألا يغير شيئا من رسمه لشخصيته كليفورد .

ويذهب لورانس إلى أن هناك ما يبرر استخدامه للكلمات الجنسية المكشوفة فى روايته . فالهدف من ورائها هو تحرير هذه الكلمات من أية دلالات بذيئة فليس فى ممارسة الجنس ما يشين أو يدعو للخجل . يقول لورانس فى هذا الشأن: أن الكلمة البذيئة تثير ردود فعل بذيئة عند الانسان البدائى وغير المتحضر . فى حين أن الكلمة البذيئة عند الانسان المثقف والمتحضر تنفصل عن ردود فعله البذيئة نحوها . وإذا كان الفعل عند الانسان غير المتحضر يعقب الفكر، فإن الوضع يختلف مع الانسان المتحضر، فالفعل عند هذا الانسان المتحضر يصبح نوعا من الوعى المنفصل عن وعى الفكر بحيث يبدوان وكأنهما شيئان مختلفان . ويقول لورانس: إن هذه الثنائية هى ماحدت به إلى كتابة « عشيق الليدى تشاترلى » التى تهدف إلى الربط بين الفكر والفعل بحيث يتمشى الفعل مع الفكر كما يتمشى الفكر مع الفعل .

ويذكر لورانس أنه تعمد أن تحمل الطبعة الأولى من الرواية صورة (العنقاء) المتجددة على الدوام والتى تموت لتبعث من جديد . ويعرض لكثرة ماورد فى الطبعة الأولى من أخطاء هجائية فيقول: إن المطبعة التى قامت بطبع الرواية فى فلورنسا كانت مطبعة إيطالية صغيرة للغاية تديرها عائلة إيطالية لا تعرف من اللغة الانجليزية كلمة واحدة، الأمر الذى وفر عليها الحرج الناجم عن فهم النص . يقول المؤلف: إن مراجعة البروفات كانت أمرا شاقا بسبب كثرة الأخطاء الهجائية الواردة فيها والتى لم ينجح تصويبها فى اختفاء الكثير منها .

وعبرت إحدى الصحف عن رثائها لحال المطبعجى الايطالى المسكين الذى خدعه المؤلف فجعله يطبع دون أن يدرى روايته البذيئة

الفاضحة . ولكن لورانس دافع عن نفسه قائلا إن هذا ليس صحيحا فقد تولى البعض شرح موضوع الكتاب والكلمات الخارجة فيه للمطبعجي وترك له حرية طباعة الكتاب أو الامتناع عن طبعه إذا رأى فى ذلك ما يورطه أو يعرضه للمتاعب . ولكن المطبعجي هز كتفيه ولم يكترث لهذا التحذير إذ قال : « وماذا فى ذلك . نحن نفعل هذا كل يوم » . ويضيف لورانس:أن عدد نسخ أول طبعة بلغ ألف نسخة أضيف إليها مائتان على ورق عادى . وأن الجمارك الأمريكية كانت أسرع من الجمارك الانجليزية فى حظر الكتاب . وبسبب تأخر الجمارك الانجليزية فى اتخاذ الاجراءات اللازمة نحو الحظر أمكن تهريب ما لايقل عن ثمانمائة نسخة إلى الأراضى الانجليزية .

يقول لورانس فى دفاعه عن رواية « عشيق الليدى تشاترلى »:إن الانسانية استغرقت فى ممارسة الجنس دون فهمه أو إدراكه . ولهذا تحولت الممارسة الجنسية عبر الزمن إلى فعل آلى كالح تغيض عنه الحياة ويبعث على الملال وخيبة الأمل . ومن ثم ففد حان الوقت لادراكه إدراكا سليما وذلك بتجديد الأفكار المتعلقة به . ويتطلب هذا أن يتناغم وعينا بتجاوب أجسادنا واحساسها مع هذا التجاوب والأحاسيس نفسها . كما يتطلب هذا منا استخدام الكلمات التى يقال إنها بذيئة لأن هذه الكلمات تمثل جزءا من وعى العقل بالجسد وليس لهذه البذاءة أى وجود إلا عندما يكن العقل الاحتقار للجسد ويخاف منه . وكذلك عندما يحمل الجسد الموجدة والمقت للعقل ويتصدى لمقاومته . وليس أدل على أن كثيرا من الفتيات ليست لديهن أدنى فكرة عن الجنس من أن امرأة تنكرت فى هيئة رجل وادعت أن اسمها الكولونيل باركر . وعقدت هذه المرأة زواجها على امرأة أخرى وظلت تمارس السحاق معها لمدة خمسة أعوام دون أن تدرى الزوجة المسكينة أنها ضحية خدعة فظيعة . ونحن نرى أيضا المدرس أو القسيس الذى يدين بالمبادىء الأخلاقية البيوريتانية المتزمتة ويعيش

عيشة النسك والتبتل فى شبابه ولكنه فى كهولته ينقلب رأسا على عقب ويعيش عيشة الفسق والتهتك .

ويقول لورانس ان ارتعاد فرائص الجسد أمام العقل له أوخم العواقب مثلما نجد فى المقت الشديد الذى كان عقل الروائى الايرلندى الفذ جوناثان سويفت يحمله لجسده . ويتضح لنا هذا من القصيدة التى نظمها هذا القسيس الروائى بعنوان « سيليا » إلى معشوقته·ففيها يرى العاشق الشر فى جسد معشوقته بسبب عدم قدرة عقله على التطور وإدراك الوعى الجسدى . وفى المقابل أيضا نرى فى العصر الحديث فتيات تافهات سطحيات يرقصن على أنغام الجاز ويسرن على حل شعرهن وينظرن إلى الجنس على أنه مجرد لعبة يستمتعن بها من وقت إلى آخر ويرتشفن من لذته مثلما يرتشف المرء من كئوس الكوكتيل ، مثل هذه الفتيات العصريات لا يدركن قداسة الجنس ويحتقرن رواية « عشيق الليدى تشاترلى » ويعتبرن نظرتها إلى الحب نظرة عتيقة عفا عليها الزمان·فالجنس عندهن مجرد لحظات من اللذة العابرة . وهن لا يكترثن بالألفاظ الجنسية التى ترد فى الرواية والتى يقال إنها بذيئة·ويرين أنها تعبر عن عقلية مراهق أو مراهقة فى الرابعة عشرة من العمر . ويذهب لورانس أن الاحترام العميق والرهبة البالغة التى تحيط بنظرة هذا المراهق أو تلك المراهقة إلى الجنس أكثر صحة وسلامة من نظرة تلك الفتيات اللاهيات المستهترات اللائى لا يحترمن الحب أو الجنس ويرين فيه لعبة أو دمية يستمتعن بها من وقت لآخر . ويذهب لورانس إلى أن روايته « عشيق الليدى تشا ترلى » لا تصلح لذلك الإنسان المتزمت اخلاقيا فى شبابه ثم يتهالك على ملذات الجسد فى اخريات حياته أو للشباب الذى يرقص على أنغام الجاز ويتحلل من قيود الجنس فينطلق فى ممارسته دون رابط أو ضابط . كما أن الرواية لا تصلح لذوى العقول القذرة الذين يطالعون القذارة فى كل ما يقرأون . فرواية « عشيق الليدى

تشاترلى » تتضمن رسالة من نوع مختلف فحواها أنه لابد من إيجاد توازن بين العقل والجسد وأن تنشأ بينهما علاقة تناغم تقوم على الاحترام المتبادل.فمن الواضح أن هذا التناغم مفقود فى يومنا الراهن وأن الجنس تحول إلى أداة يسخرها العقل لتصبح رهن إشارته وطوع بنانه . ومن الواضح أيضا وهو الأسوأ . . أن الجسد قد تحول إلى لعبة للتسلية وإزجاء وقت الفراغ . وهذا معناه القضاء المبرم على تلقائية الجسد ونزعاته الطبيعية . والجسد التلقائى يشعر بنبض الحياة وما يجيش فيها من عواطف وأحاسيس،فالجسد يشعر بالجوع والعطش والغضب والحب والأسى والرقة . ثم يأتى دور العقل ليعترف بها . ومعنى هذا أن العقل يبنى أحكامه على أساس العواطف والمشاعر التى تخالج الجسد . وشتان الفرق بين المشاعر الحقيقية الصادقة التى ينبض بها الجسد وصورة هذه المشاعر الذهنية كما يعكسها العقل، فالذهن يزيف هذه المشاعر،فى حين يشعر بها الجسد حية نابضة ودافقة . والعقل قادر على تزييف عاطفة الحب بكافة أشكاله . ومختلف صوره سواء كان حب الذكر والأنثى أو حب الله أو حب الانسان للانسان . هذا الحب أصبح فى يومنا الراهن عاطفة يزيفها العقل ويستبدلها بمشاعر بديلة غير صادقة وتساعد وسائل الاعلام على انتشارها . هذه العواطف قد ينجح الذهن فى فرضها على الجسد ردحا من الزمن . ولكن الجسد فى نهاية الأمر يتمرد عليها ويلفظها ويرفض الانصياع لها . ومثل هذا الزيف يعتور كثيرا من الزيجات فى عصرنا الحديث حيث يتوهم الزوجان أنهما يعيشان فى سعادة ونعيم . ولكن مثل هذه الزيجات القائمة على العواطف المزيفة لا تلبث أن تتحطم وينتهى أمرها بالفشل وانفصال الزوجين . إن العواطف الانسانية تنخدع وتتعرض للتزييف باستثناء عاطفة واحدة هى الجنس الذى لا يمكن تزويره.فقد يظن زوجان أن زواجهما يقوم على الحب الحقيقى ولكن عندما يتقدم بهما العمر يكتشفان أن هذا الحب لا يعدو أن يكون وهما

عظيما وأكذوبة ضخمة . وعندما يدرك الزوجان أنهما كانا يعيشان فى وهم..تحدث الكارثة ويتبدد الحب الزائف لتحل محله الكراهية الحقيقية . ولا يعنى هذا أن كل الزيجات تنهض على الكراهية.فبعضها يقوم على قدر من الحب الصادق ولكن العاطفة الجنسية لا تتحمل ما قد يكون فى هذه العلاقة من زيف ويتمرد الجسد على هذا الزيف لأن من شأنه أن يقضى على العواطف الجنسية الصادقة قضاء مبرما .

ويتطرق لورانس الى اعتراض بعض الشباب الانجليزى على دعوته الى احياء انجلترا عن طريق احياء حياتها الجنسية فيقول:ان معارضيه يتهمونه بالدعوة الى الهمجية والبربرية والعودة الى حياة الجنس الطليق فى الغاب . ويسخر لورانس من معارضيه بقوله:كيف يمكن لشباب انجلترا أن يقوم بإحياء بلاده عن طريق فحولة الجنس فى حين انه يفتقر أصلا الى هذه الفحولة . ويسخر لورانس أيضا من آراء برنارد شو فى الجنس،فشو الذى يدافع عن الحضارة الحديثة يرى ان العرى يقتل فى الانسان الرغبة الجنسية فى حين ان اخفاء جسد المرأة تحت الملابس يشعلها . ومعنى ذلك ان الملابس التى تغطى جسد المرأة تستثير الجنس فى الرجل أكثر مما يستثيره جسدها العارى . ويستخف لورانس بهذا الرأى قائلا:بئس إثارة جنسية تلك التى تحركها ملابس النساء الفاخرة وبوجه خاص ملابسها الداخلية . وهو يسوق هذه الاثارة التافهة والسطحية كدليل على مدى ما تعانى منه الحضارة الحديثة من خواء . يقول لورانس فى هذا الصدد:ان المسألة ليست مسألة تغطية المرأة لجسدها أو تعريتها له ، فالمرأة التى تتمتع بطاقة جنسية ديناميكية هائلة قادرة على جذب الرجال نحوها حتى لو كانت عارية،فى حين ان المرأة التى تفتقر الى الديناميكية الجنسية تحاول عن طريق الملبس أو غيره تعويض ما لديها من نقص وتسعى الى اجتذاب الذكور اليها . وفى حين ان المرأة الديناميكية من الناحية الجنسية تجذب الرجال اليها بطريقة غير واعية وممتعة،نجد ان المرأة الستاتيكية

من الناحية الحسية تتعمد جذب الرجال اليها بأسلوب واع ومفتعل يثير الاشمئزاز والتنفير ولا يثير الرغبة والمتعة . ورغم ما قد تظهره المرأة الاستاتيكية من تحرر جنسى واستقلال وتحد للمواضعات العامة ورغم ما ترتديه من ملابس شيك بهدف ابراز مفاتنها فإن هذا كله لا يعوضها عما تفتقده من ديناميكية جنسية تلقائية . . فالمسألة ليست ملابس ولكنها مسألة حيوية جنسية متدفقة وتلقائية . وينطبق هذا على الأنثى والذكر على حد سواء . فما الفائدة أن تغطى الأنثى جسدها غير القادر على اجتذاب الذكر اليه بطريقة تلقائية وغير واعية.

ورغم إنكار د . هـ . لورانس للدين والكنيسة نراه يقول ان البابا ورجال الكنيسة الكاثوليكية على حق عندما يصرون على أن تغطى المرأة ذراعيها العاريين عند دخولها الكنيسة ليس لأن عريها قمين بإثارة غرائز الرجال ولكن لأن معظم النساء يفتعلن القدرة على اجتذاب الذكور اليهن . فبئس الإثارة لا تأتى بطريقة تلقائية وغير واعية . فالاثارة الواعية أبلغ دليل على وجود خطأ جسيم يشوب علاقة الذكر بالأنثى . ان ذراع المرأة العارى ينم عن استخفافها بالتقاليد الكنسية أكثر مما ينم عن قدرتها على الاثارة الجنسية . ومن ثم فإن البابا ورجال الكنيسة الكاثوليكية على حق عندما يأمرون النساء بتغطية أذرعهن العارية . ويقول لورانس فى هذا الصدد:إن من الخطل أن نظن ان الكنيسة الكاثوليكية تناصب الممارسة الجنسية العداء أو انها تتخذ موقفا جنسيا محايدا مثلما يفعل برنارد شو.بالعكس انها تقدس الجنس فى إطار الزواج لأنه الطريق الى استمرار الذرية والخلف وإعمار الأرض .

ان الكنيسة التى تدعو الى امتناع كهنتها عن الزواج تؤمن إيمانا راسخا لا يتزعزع برباط الزوجية المقدس ، فالزواج يمثل حجر الزاوية فى الكنيسة التى سوف تنهار بانهياره ، بل ان المجتمع المسيحى

بأسره يتعرض للتفكك لو أصاب التفكك نظام الزواج . وفى النهاية سوف يؤدى انهيار نظام الزواج الى سيطرة الدولة واستبدادها بمقدرات الأفراد مثلما كان الحال فى الدولة الرومانية قبل مجىء المسيحية . ويرى لورانس ان الزواج هو أعظم اسهام قدمته المسيحية الى الانسانية ، فإلى المسيحية يرجع الفضل فى أن تحتفظ العائلة باستقلالها عن سيطرة الدولة . . والى نظام الزواج كما تعرفه يرجع الفضل فى أن تحتفظ الأسرة باستقلالها عن سيطرة الدولة ، فالأسرة مملكة صغيرة يصول فيها ربا الأسرة ويجولان.وهذه الاسرة تفعل ما تشاء فى إطار المملكة الكبيرة التى تمثلها الدولة ، وبذلك تكون المسيحية قد منحت الأسرة الحرية والاستقلال والقدرة على مقاومة بطش الدولة وجورها . وفى مملكة الزوجية الصغيرة يصبح الزوج ملكا والزوجة ملكة يبسطان نفوذهما على الرعية التى تتمثل فى الأبناء .

ويذهب لورانس الى أن المذهب البروتستانتى على العكس من ذلك يرى ان المجتمع يتكون من مجموعة أفراد ينعزل الواحد منهم عن الآخر،وان الواجب يقتضى من كل فرد أن يسعى الى انقاذ روحه وأرواح الآخرين.ومن ثم فإن البروتستانتية ترى فى نظام الزواج ـ مثلما يفعل النساك والرهبان ـ عائقا يقف فى سبيل سعى الأفراد لانقاذ أرواحهم.ويحدثنا لورانس عن الزواج وتجدده بلهجة صوفية وشاعرية فيقول:كما ان الكون والأرض والسماء والكواكب والأجرام وكل شىء فى الوجود دائم التجدد، فإن الزواج السوى دائم التجدد أيضا ، والزواج لا يعتبر زواجا إلا إذا أقيم على امتزاج الجسد بالجسد والدم بالدم ، أما الانسجام فى العقل والطبائع والمشارب والميول فيصح أن يكون أساسا للصداقة ولا يمكن أن يكون أساسا للزواج . ان لورانس يريد للزواج أن يعود الى ما كان عليه منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام أيام الآلهة أبوللو وديميتر وأتيس فى عهود الوثنية . . أى قبل أن تظهر الأديان والفلسفات المثالية الداعية الى نبذ الجسد والتخلى عنه والتى

استحدثها بوذا وأفلاطون والمسيح . وهى فلسفات وأديان متشائمة كانت السبب فى عزل الانسان عن الحياة وعن لحمه وشحمه . وبمجىء العلم واختراع الآلة سرت فى الكون والأرض والقمر برودة الموت وغاض عن الوجود دفء الحياة ، ان الكنيسة الكاثوليكية كانت محقة عندما نظرت الى الوجود نظرة دينية وشاعرية معتبرة إياه وحدة واحدة لا تنفصل أو تتجزأ فجاء العلم وبصحبته المذهب البروتستانتى ليفتت ويجزأ هذه النظرة التكاملية . ونفس الشىء حدث للانسان، فبعد ان كان الانسان جزءا من كل لا يتجزأ هو الكون انفصل عن هذا الكون حتى علاقته الكلية بالانسانية جمعاء تحطمت فتحول الى أجزاء منعزلة وتحول الكون الذى يعيش فيه الى مادة وطاقة كما تحولت علاقة الأنثى والذكر من امتزاج الدم بالدم الى علاقة باهتة تتكون من تآلف الطباع وتجانس المشارب ، والطبقة المثقفة هى أول طبقة أصابتها الفردية والتجزئة فانفصلت عن جموع البشر من حولها فى حين ظلت الطبقة العاملة تحتفظ بدفئها العاطفى وشعورها بأنها جزء من كل انسانى وكونى لا سبيل الى انفصالها عنه ولكن هذا الشعور الكلى ما لبث أن تبدد بسبب الحقد الطبقى الذى بدأ يغزو قلب هذه الطبقة ويجعلها تشعر بالوحدة نحو الطبقات الأوفر حظا ، وهو الأمر الذى أدى فى النهاية الى تجزئتها والقضاء على احساسها بالتكامل وبأنها جزء لا يتجزأ من الانسانية .

مصلحة البريد الأمريكية تصادر الرواية

فى عام ١٩٥٩ تولت مطبعة جروف فى نيويورك نشر رواية « عشيق الليدى تشاترلى » كاملة وبدون أى حذف منها ، وذلك بعد حصولها على موافقة أرملة المؤلف الألمانية فريدا لورانس رافاجلى. وظهرت الرواية بشكل محترم. فقد صدرها أرتشيبالد ماك ليش الأمين السابق لمكتبة الكونجرس الأمريكية وقدم لها مارك سكورر أستاذ الأدب

الانجليزى فى جامعة كاليفورنيا الذى اشتهر بتخصصه فى أدب د . هـ . لورانس . وفى يوم ١١ يونية من نفس العام أمر رئيس مصلحة البريد بمنع إرسال الكتاب عن طريقها على أساس انه كتاب بذىء ،كما أمرت المصلحة بمنع إرسال أية نشرات دعاية بالبريد للاعلان عنه.وبادر الناشرون برفع قضية ضد مصلحة البريد وطالبوا القضاء أن يعلن ان الكتاب ليس بذيئا بالمعنى الوارد فى نص القانون القاضى بمنع المطبوعات البذيئة من التداول . أو أن يعلن فى حالة اقرار القانون ببذاءة الكتاب ان هذا القانون غير دستورى لأنه ينتهك الضمانات المنصوص عليها فى التعديلين الأول والخامس . وفى ٢١ يولية ١٩٥٩ أصدر القاضى الفيدرالى فردريك فان بيلت بريان حكما فى صالح الكتاب.فقد أوضح هذا القاضى ان رئيس مصلحة البريد ينقصه الحجى لعدم قدرته على التمييز بين المطبوعات البذيئة والمطبوعات غير البذيئة ، وأشاد القاضى بأسلوب اخراج الكتاب على نحو محترم وبين ان المشتركين فى شرائه قلة ضئيلة العدد ينتمون فى الغالب الأعم الى فئة الأدباء والدوائر العلمية والأكاديمية.وبعد أن استعرض القاضى قضية رواية يولسيس لجيمس جويس خلص الى انه لا يصح اعتبار أى كتاب يتناول الجنس بذيئا إلا إذا كان اهتمامه العام يميل الى الجنس بشكل مرضى وفاضح وبحيث يطغى الجنس فيه على ما يتضمنه من أهمية اجتماعية . ولا يصح الحكم على هذا الاهتمام العام بأثره على القراء غير الناضجين وغير المسئولين وأصحاب الشهوات،ولكن المعيار فى هذه الحالة هو ذلك الانسان العادى فى فكره ونوازعه الجنسية كما يقول القاضى وولسى . وأيضا لا يصح الحكم ببذاءة أى كتاب إلا إذا تجاوز حدود التسامح الذى تقتضيه معايير المجتمع الراهنة فى المسائل الخاصة بحرية التعبير الجنسى والعلاقات الجنسية بين البشر ، فضلا عن انه لا يصح الحكم على كتاب من خلال أجزاء منه أو فقرات وردت فيه.فالحكم الصحيح

على الكتاب لابد أن يكون حكما عليه ككل،وبناء على ما تقدم رأى القاضى الأمريكى فردريك بريان ان قرار رئيس مصلحة البريد بمنع ارسال رواية « عشيق الليدى تشاترلى » على انها رواية بذيئة قرار خاطىء ومخالف لأعمال القانون وخاصة لأن مؤلف الرواية واحد من أهم وأبرز الروائيين الانجليزى المحدثين . واستطرد القاضى منوها بأسلوب الرواية البديع فى كثير من المواضع مؤكدا انه لا سبيل الى انكار قيمتها الأدبية . ويعترف القاضى ان الرواية تحتوى على عدد من الفقرات التى تصف العلاقات الجنسية بتفصيل دقيق وواقعية تامة واخلاص كامل وانها تحتوى على كلمات وفقرات فاحشة تتردد فى أرجائها وهى فقرات من شأنها أن تصدم مشاعر القارىء الحساس ولكنها تلعب دورا واضحا فى بناء الرواية وتطوير شخصياتها . ومعنى هذا أن اللغة التى يستخدمها المؤلف رغم خشونتها تتسق مع موضوع الرواية وأحداثها وشخصياتها . وبفرض ان لغة هذه الفقرات ـ إذا

نظرنا اليها بمعزل عن بقية الرواية ـ قمينة بإثارة شهوات الجسد ونزعاتها المريضة ، فلا سبيل الى انكار انها جزء لا يتجزا من نسيج الرواية الشامل وان موضوعها وأثرها وهدفها ليس استثارة غرائز الجسد.فالكتاب لا يهدف الى تصوير القذارة من أجل القذارة رغم ان بعض فقراتها قد توحى بذلك إذا أخذناها بمعزل عن الكتاب ككل . ثم يعود القاضى ليؤكد ان المحك فى الحكم على بذاءة أى كتاب ليس فقراته التى تسىء الى مشاعر بعض الأفراد أوحتى تسىء الى قطاع عريض من المجتمع ومن ثم فإن المحك فى الحكم على رواية لورانس ليس قبول المجتمع لأخلاقيات الليدى تشاترلى أو رفضه لها . فمثل هذا الحكم لا يستند الى الشرعية الدستورية .

وينتقل القاضى الأمريكى الى تأكيد ما سبق للقاضى الانجليزى كوكبرن أن ذهب اليه وهو ان نوايا المؤلف لا تحدد إذا كان كتابه بذيئا

أم لا . فالكاتب قد يؤلف كتابا بذيئا وفى اعتقاده انه بذلك يخدم هدفا أخلاقيا ساميا . ولكن مثل هذه النوايا الطيبة لا تمنع كتابه من أن يكون بذيئا ، غير ان اخلاص المؤلف وأمانته وشرف مقصده كما يتجلى لنا من أسلوب تأليف كتابه له علاقة وثيقة بقيمة كتابه من الناحية الأدبية وأمانته من الناحية الفكرية . والرأى عنده أن رواية لورانس « عشيق الليدى تشاترلى » تشبه رواية جيمس جويس « يولسيس » فى ان كلا منهما اتسم بشرف القصد والاخلاص والأمانة الفنية والبعد عن الرغبة فى استثارة النوازع الجنسية لدى القارىء العادى .

ثم يشير القاضى الى الرأى الذى عبر عنه رئيس مصلحة البريد بأن الكتاب يسىء الى المواضعات والمعايير السائدة فى المجتمع المعاصر فيقول: انه عاجز عن تبيان الأساس الذى يبنى عليه رئيس مصلحة البريد حكمه . فالمجتمع الأمريكى أقبل على الكتاب دون أن يظهر امتعاضه منه . كما ان النقاد اجمعوا على الثناء عليه . فضلا عن ان أهم الصحف عبرت فى افتتاحياتها عن ترحيبها بنشر الكتاب واستنكرت أية محاولة لحظره أو منعه من التداول ، وتعرض القاضى للألفاظ والأوصاف الجنسية الصريحة الواردة فى الكتاب وكثرة استخدام المؤلف للألفاظ الجنسية الخارجة بقوله: انه فى ظل التطور الذى طرأ على المجتمع لا يرى ان هذه الرواية الانجليزية البارزة قد تجاوزت الحدود التى أصبح المجتمع يسمح بها عند تناول الجنس والعلاقات الجنسية ، وينبرى القاضى للدفاع عن حرية الرأى والتعبير فيقول: انه من الضرورى رفع القيود التى تجنح الى تكبيل الأفكار ومنعها من الانتشار إذا شئنا أن نصون للمجتمع حريته سواء جاءت هذه الأفكار فى قالب كتيبات للدعاية السياسية أو الدعاية لأعمال فنية أو كتب أدبية ونقدية أو مؤلفات سياسية واقتصادية واجتماعية . إذ ينبغى أن تتوافر فى الأسواق جميع هذه المطبوعات دون عوائق

أو قيود . ويذهب القاضى الأمريكى انه ينبغى علينا أن نميز بين كتب الأدب المكشوف التى يتم توزيعها وتداولها سرا بغية الكسب والثراء والتى تثير أحط الغرائز فى الانسان وبين الأعمال الأدبية التى تتولى دور النشر المحترمة نشرها وتوزيعها بالوسائل المعتادة المشروعة . ويختم القاضى فردريك براين دفاعه عن الحرية بقوله : « ان استبعاد هذا الكتاب من توزيع البريد على أساس انه كتاب بذىء من شأنه أن يضع سابقة يمكن تطبيقها على جانب كبير من الكلاسيكيات الراسخة فى أدبنا ، ومثل هذا الحكم ينطوى على خطر يهدد حرية المجتمع . ان تفسير قانون البذاءة على هذا النحو وتطبيقه على رواية « عشيق الليدى تشاترلى » وحظره من توزيع البريد سوف يجعل القانون غير دستورى من حيث تطبيقه وانتهاكه للضمانات التى يكفلها هذا القانون بمقتضى التعديل الأول لحرية التعبير والنشر . »

والجدير بالذكر ان الصحافة الأمريكية فى عمومها وقفت بجانب دار النشر جروف التى أصدرت رواية « عشيق الليدى تشاترلى » فضلا عن ان بعض المجلات الدينية الرسمية والمسئولة ناصرت الرواية ضد مناوئيها. فقد نشرت مجلة « الكنيسة الحية » إنها تعتبر الرواية راشدة وناضجة وانها تستنكر تدخل أجهزة الدولة لحظرها ، غير ان هذه المجلة سلمت بحق الآباء فى منع أبنائهم فى قراءتها إذا رأوا ذلك .

وبالنظر الى ان قانون حماية حقوق المؤلف على المستوى العالمى لم يصدر إلا فى عام ١٩٥٢ دون أن يكون له أثر رجعى والى ان قوانين حماية المؤلف فى أمريكا لم تعترف بحق التأليف لأى كتاب يصدر خارج الولايات المتحدة الأمريكية اللهم إلا إذا تم نشره فى أمريكا عقب نشره فى بلاده مباشرة فقد ترتب على ذلك عدم أحقية عائلة لورانس فى الحصول على أى عائد مادى . وبالنظر أيضا الى تبرئة الرواية من

تهمة البذاءة فقد أقدم ناشرون أمريكيون كثيرون على السطو على هذه الرواية وإعادة نشرها كاملة أحيانا وبصورتها المهذبة أحيانا أخرى ، الأمر الذى هدد مصالح ناشرها الأصلى دار جروف للنشر،فبادرت من جانبها الى إصدار طبعة شعبية رخيصة لتقطع الطريق على الناشرين اللصوص . ولم تكتف دار النشر جروف بهذا بل نشرت رواية أخرى لا تقل إثارة للجدل عن رواية « عشيق الليدى تشاترلى » ففى يوم ٢٤ يونية ١٩٦١ نشرت جروف رواية هنرى ميلر المشهورة « مدار السرطان » ،ومرة أخرى قامت مصلحة البريد الأمريكية بحظر هذا الكتاب ولكن عادت فأخرجت عنه دون رفع الأمر للقضاء للبت فيه .

محاكمة رواية « عشيق الليدى تشاترلى » من انجلترا

لم تكن محاكمة رواية « عشيق الليدى تشاترلى » المرة الأولى فى تاريخ بريطانيا الحديث التى تتعرض فيها الكتب للمحاكمة ففى عام ١٩٥٤ قدمت النيابة رجلا اسمه ريتر إلى المحكمة بتهمة نشر الأدب المكشوف ولم يجد محاموه وسيلة للدفاع عنه أفضل من أن يثبتوا للمحكمة أن هناك كتبا تباع فى الأسواق تفوق فى انحلالها الكتب التى ينشرها ريتر،وهذه الكتب هى « جوليا » للناشر ورنر لورى و « المغازل » للناشر سكر ووربرج و « سبتمبر فى كوينز » للناشر هتشنسون و « الصورة والبحث » للناشر هينمان و « الرجل المسيطر » للناشر آرثر باركر وارتعدت فرائص الناشر ورنر فاعترف بأنه مذنب توفيرا للمال . . واختصارا للوقت كما قامت المحكمة بتغريم الناشر هتشنسون ولكنها برأت الناشرين الثلاثة الآخرين .

وكانت هذه المحاكمات سببا فى شعور الناشرين والأدباء والمفكرين والمثقفين بالقلق والاستياء فقاموا بالضغط على الحكومة حتى أدخلت

فى قانون المطبوعات البذيئة لعام ١٩٥٩ بعض التعديلات على قوانين النشر المتصلة بالأدب المكشوف الأمر الذى يعتبر مكسبا للمؤلفين والناشرين على حد سواء ومنها ضرورة النظر إلى الكتاب أو العمل الفن ككل قبل اصدار الحكم عليه وحق الناشر فى أن يدفع عن نفسه التهمة ببراءة القصد من وراء النشر وضرورة تحديد نوع العقوبة ومداها وحق كل من المؤلف والناشر فى الاستئناف ولعل أهم تعديل أجرى على القانون القديم يقضى بعدم الادانة « فى حالة التثبت من أن نشر المادة موضوع الخلاف له ما يبرره من حيث المصلحة العامة تأسيسا على مصلحة العلم أو الأدب أو الفن أو التعليم أو الأهداف الأخرى العامة التى تهم الناس وتشغل بالهم » . وبطبيعة الحال كان لهذا التعديل الأخير آثار بالغة الأهمية .

هذه المقدمة المبتسرة لا غنى عنها قبل أن نذكر انه حتى النسخة المهذبة والنظيفة من رواية « عشيق الليدى تشاترلى » لم تنج من المثول أمام الشرطة والمحاكم رغم التعديلات التى أدخلت على قانون البذاءة عام ١٩٥٩ . وعلى أية حال بدأت المشاكل القانونية مع الرواية قبل ذلك ببضعة أعوام سنة ١٩٥٤ ففى ذلك الوقت أصدر القاضى بقسم شرطة التيمس أمرا بتدمير قائمة من الكتب البذيئة التى قامت الشرطة بضبطها . ولم يعجب الناشر لرواية لورانس وليم هاينمان أن تكون هذه الرواية محل ضبطية قضائية فقام برفع قضية فى المحاكم ضد هذا الاجراء المتعنت وذكر القاضى وقت نظر القضية انه قرأ الكتاب فوجده غثا ورخيصا وكلاما فارغا .فسأله الدفاع إذا كان قد قرأ النسخة الكاملة أو النسخة النظيفة فأجابه القاضى بأنه يربأ بنفسه أن يقرأ النسخة الاصلية لأنها لو وصلت إلى يديه لكان قد ألقى بها فى النار.واعترف المخبر السارجنت هربرت ريد بأنه لم يقرأ الكتاب ولكنه تلقى تعليمات من مدير النيابة العامة باستصدار أمر بتدمير كل النسخ

المضبوطة منه-ولكن القاضى اضطر إلى الاعتراف بأن النسخة المنقحة من الرواية لم تكن بذيئة إلى الحد الذى يبرر تدميرها ومن ثم فانه قام باستبعادها من قائمة الكتب البذيئة التى صدرت الأوامر بتدميرها وكانت هذه أول جولة أحرزت فيها رواية لورنس انتصارا داخل الأراضى الانجليزية-وبسبب الاصلاحات والتعديلات التى طرأت على قانون المطبوعات البذيئة لعام ٥٩ وتبرئة القضاء الأمريكى لرواية لورانس من تهمة البذاءة تشجعت دار النشر الشعبية المعروفة باسم دار بنجوين للنشر فأعلنت عن عزمها على نشر الرواية فى صورتها الأصلية الكاملة الأمر الذى أربك الحكومة-ففى استجواب مقدم إلى النائب العام فى مجلس العموم عجز هذا الرجل عن أن يقرر إذا كانت النيابة العامة سوف تقدم ناشر الرواية إلى المحاكمة . وقد رفض عمال المطبعة جمع الكتاب وطبعه مما أضطر دار بنجوين للنشر إلى الالتجاء إلى مجموعة أخرى من عمال الطباعة . وأعلنت دار النشر انها بصدد اصدار رواية « عشيق الليدى تشاترلى » يوم ٢٥ أغسطس ١٩٦٠ . واتفقت سكوتلانديارد مع دار النشر على اصدار بضعة نسخ من الرواية حتى تكون بذلك قد نشرتها بالفعل فى حين ترجىء عملية النشر العام لحين بت السلطات فى الموضوع . وفى يوم ١٩ أغسطس ١٩٦٠ رفع مدير النيابة العامة قضية فى محكمة بوستريت بلندن ضد الرواية على أساس أن نشرها يمثل خرقا لقانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٩٥٩ . وبالنظر لما أظهرته دار النشر بنجوين من تعاون مع السلطات وامتناعها عن طرح الكتاب فى الأسواق لحين البت فى الموضوع قامت هذه السلطات بمقضاة الشركة الناشرة دون توجيه أى اتهام لمديرها أو أى من الأفراد المسئولين فيها .

نظرت قضية « عشيق الليدى تشاترلى » أمام محكمة الأولد بيلى الشهيرة فى لندن التى استمعت إلى شهادة خمسة وثلاثين متخصصا مرموقا فى الأدب والتأليف الروائى والنقد واللاهوت والتربية

والتعليم . واستغرقت المحكمة والمحلفون فى نظر القضية على مدار ستة أيام بأكملها . ولم تجد المحكمة شاهدا واحدا على استعداد لأن يؤازرها فضلا عن أن الدفاع جهز قائمة بأسماء ثلثمائة خبير لامع كانوا جميعا على أهبة الاستعداد للشهادة فى صالح الكتاب فيما لو طلبت المحكمة شهادتهم . وتطوع الكثيرون منهم لكتابة خطابات التأييد للرواية ضد الذين يحاكمونها . وسوف نتابع فى الصفحات التالية وقائع جلسات المحاكمة يوما بيوم .

وقائع الجلسة الأولى فى ٢٠ أكتوبر ١٩٦٠

بدأت محاكمة رواية لورانس « عشيق الليدى تشاترلى » فى ٢٠ أكتوبر ١٩٦٠ . وافتتح الجلسة المستر جريفت جونز كبير المستشارين فى محكمة الأولد بيلى . وكان قفص الاتهام خاليا تماما رغم أن الادعاء كان يشير إلى المتهم الماثل فيه وهو دار بنجوين للطباعة والنشر . فالمحكمة لا يمكنها أن تحاكم المؤلف لأن المؤلف مات فى عام ١٩٣٠ ، أى بعد عامين فقط من كتابة روايته المثيرة ولم يكن يعنيها محاكمة أصحاب دار بنجوين للطباعة والنشر بل كان يعنيها فى المقام الأول والأخير محاكمة الكتاب والهيئة (وليس الأشخاص) المسئولة عن نشره . قال جريفت جونز موجها كلامه إلى المحلفين : ان دار بنجوين للنشر طبعت مائتى ألف نسخة من الكتاب لتوزيعها فى الموعد المحدد وهو ٢٥ أغسطس ١٩٦٠ غير أنها أرجأت التوزيع حتى يتخذ المحلفون قرارهم فيما إذا كان الكتاب تنطبق عليه من الناحية القانونية الشروط التى تنطبق على الأدب المكشوف ، أم أنه كتاب يجلب النفع العام للمجتمع ثم خاطب المحلفين بقوله : أيها المحلفون انى أبدأ بتذكيركم بقضية معروفة هى قضية هيكلين التى تم نظر القضاء فيها منذ زمن طويل عام ١٨٦٨ والتى كانت الأساس الذى بنيت عليه القوانين الحالية الخاصة بالأدب المكشوف . قال كبير

القضاه كوكبيرن الذى نظر فى أمر تلك القضية (من المؤكد أن الكتاب سيوحى إلى عقول الشباب من الجنسين بل حتى الأشخاص الأكثر تقدما فى السن بأفكار ذات طابع أشد ما يكون قذارة وشهوانية) . وطلب جريفث جونز من المحلفين أن يتأكدوا من وجود هذا الجانب فى رواية لورانس أو خلوها منه . ثم ذكر المستر جريفث جونز المحلفين بالسؤال الذى طرحه كبير القضاة كوكبيرن عن أعمار القراء الذين يحتمل أن تفسدهم المادة المنشورة . وعما إذا كانت هذه المادة المنشورة تباع بسعر رخيص يساعد على نشر الفساد أم أن ارتفاع سعرها يحد من عدد قرائها ونوعية هؤلاء القراء . ثم تساءل المستر جريفث جونز تساؤلا بالغ الأهمية : من الذى يضع لنا المعايير التى نحكم بها على الأعمال الأدبية ؟ هل هم التلاميذ والمراهقون ؟ بالطبع لا : وليس معنى أن الكثير من الأعمال الأدبية العظيمة لا يصلح مطلقا من نواح مختلفة لأن يقرأها المراهقون أن نلوم الناشر لها ونعتبره مذنبا فى حق الناس . ثم طرح الرجل بعض التساؤلات العويصة : هل صحيح أن الكتاب (أى كتاب) مسئول عن ادخال الأفكار الفاسدة فى العقول أم أن الطبيعة البشرية هى فى الحقيقة المسئولة عن ذلك ؟ وسلم جريفث جونز بحق الأديب أن يكتب بحرية كاملة ولكنه تحفظ قائلا : ان هذا الأديب عضو فى المجتمع الذى يعيش فيه ومن ثم فان واجبه نحو هذا المجتمع ألا يصيبه بأى أذى من الناحية العقلية والجسدية والروحية، فإذا اصطدمت نوازع الابداع فيه مع أخلاق المجتمع فان أخلاق المجتمع ينبغى أن تكون لها الغلبة. ولكنه عاد ليذكر المحلفين أنهم ليسوا رقباء بل قضاة ، مؤكدا على حق الأقلية فى أن تقول مالا توافق عليه الأغلبية بشرط ألا تلحق بها أية أضرار وطالب كبير المستشارين المحلفين ألا يفتشوا فى قلوب الناس وضمائرهم فيبحثوا فى نوايا الناشر أو المؤلف . كما طالبهم بضرورة النظر إلى العمل الأدبى ليس كأجزاء متفرقة قد يجد فيها القارىء

فحشا وتهتكا بل ككل متكامل ووحدة واحدة.ولم ينس المستر جريفث جونز ـ بالرغم من أنه يمثل الادعاء ـ أن يشير إلى التغيرات التى تطرأ على الذوق الأدبى من عصر إلى عصر.فعصرنا الراهن يسمح بنشر أشياء لم يكن بحال من الأحوال مسموحا بها فى القرن التاسع عشر فى عهد الملكة فكتوريا ولهذا نراه يناشد المحلفين أولا أن يقرأوا الرواية من الألف إلى الياء . وثانيا أن يمتنعوا عن مناقشتها من وجهة نظر فكتورية عتيقة تتسم بالتزمت وضيق الأفق .

ويصل المستر جريفث إلى مربط الفرس فيقول : انه لا يشك فى عظمة د . هـ . لورانس كأديب وان روايته موضع الخلاف لا تخلو من القيمة الأدبية المحدودة . ومن ثم فإن على المحلفين أن يقرروا عما إذا كانت هذه الرواية تتضمن فحشا يفوق ما لها من قيمة أدبية . ويعطينا أمثلة على هذا الفحش فى الفعل والقول قائلا : ان الليدى تشاترلى التى تشعر بالاحباط بسبب عجز زوجها الجنسى بسبب اصابته فى الحرب العالمية الأولى وجدت فى الجناينى الرجل القادر على اشباع شهوتها فى حجرة النوم وحجرة بالسطوح وعلى بطانية فى كوخ وتحت شجرة وفى العراء فى الغابة وتحت المطر المنهمر . وأحصى جريفث المواضع التى يصف فيها لورانس فى روايته العملية الجنسية وصفا تفصيليا كاملا ودقيقا فوجد أنها لا تقل عن ثلاثة عشر موضعا فضلا عن انه أحصى الكلمات القبيحة التى ترددت فى طول الرواية وعرضها . ثم قرأ على الحاضرين الكلمات التالية التى سطرها لورانس ليفتتح بها روايته : « لقد جاهدت دوما أن أفعل نفس الشىء وهو أن أجعل من العلاقة الجنسية شيئا سليما له قيمته وليس شيئا يدعو إلى الخجل . وتمثل هذه الرواية أقصى ما وصلت اليه فى هذا السبيل » .

ثم بدأ الدفاع (ويمثله المستر جيرالد جاردنر) دفاعه بأن أشاد بالدور الثقافى العظيم الذى لعبته دار بنجوين للنشر منذ إنشائها

عام ١٩٣٥ فى نشر عيون الأدب الانجليزى والعالمى بأزهد الأسعار بين طبقات العمال والفقراء . مبينا أن بريطانيا هى الدولة الوحيدة فى كل العالم المتحضر التى حظرت نشر الرواية فى نصها الكامل ، فى حين قامت أمريكا والدول الأوربية بنشرها دون أدنى حذف. الأمر الذى أدى إلى تسرب بعض النسخ إلى السوق البريطانى. وتناول الدفاع العيوب التى شابت قانون المطبوعات القديم فلخصها فى ثلاثة عيوب استطاع المشرع اصلاحها فى قانون المطبوعات الجديد الصادر فى ١٩٥٩ . ويكمن العيب فى القانون القديم فى السماح للادعاء بابراز الفقرات التى يرى أنها تنطوى على الاباحية بغض النظر عن السياق العام الذى وردت فيه ، فى حين أن القانون الجديد لا يسمح بالتركيز على أية فقرات إلا داخل سياقها العام . والعيب الثانى أن القانون القديم كان يأخذ فى الاعتبار ما قد تتركه الأعمال الأدبية من أثر منحل فى نفوس طلبة المدارس وطالباتها من المراهقين والمراهقات ومعنى هذا انه جعل من مثل هؤلاء الصبية معيارا للحكم على الأعمال الأدبية . ولو أن الأمر كذلك لتوقف نشر كثير من الأعمال الأدبية العالمية التى لا تخلو بعض أجزائها من بعض مظاهر الاباحية مثل مسرحية هاملت لشكسبير وحكايات كانتربرى لتشوسر . أما العيب الثالث فهو أن القانون القديم لم يفرق بين الأدب المحترم والأدب المكشوف . فالنقاد والدارسون يعلمون أنه بفرض ان هناك اباحية فى بعض الأعمال الأدبية ، فإنها لا تعدو أن تكون اباحية ظاهرية فقط حيث أنها توظف أو تستخدم فى تحقيق هدف أو رسالة أكبر من مجرد الاباحية. فى حين أن الأدب المكشوف يستخدم الاباحية كهدف فى حد ذاته كما يستخدم القذارة من أجل القذارة .

وينتقل الدفاع إلى توضيح أدب لورانس وموقفه من الجنس فيبين إيمانه العميق بالزواج كنظام اجتماعى وأن هدفه من رواية « عشيق الليدى تشاترلى » هو التأكيد على أن التهتك والاباحية لا يمكنهما أن يكونا بديلا عن الحب والعلاقة الزوجية الدائمة . وذكر الدفاع أن

لورانس فى روايته يهاجم التصنيع وما خلفه من شرور ونتائج مدمرة (فالسير كليفورد تشاترلى الذى يمتلك المناجم والمصانع) إنسان عاجز وكسيح . كما أنه يهاجم الأفراط فى تمجيد العقل على حساب الجسد والعاطفة مثلما يفعل هذا الرجل العاجز الذى لا يفتأ أن يتحدث عن الجنس ويفلسفه دون أن يتمكن من ممارسته . وذكر الدفاع أن لورانس يؤمن بأن الحب هو الرباط المقدس الذى يربط بين جسدى الرجل والمرأة وانه ليس هناك ما يدعو إلى الخجل من رغبات البدن التى يكرسها نظام الزواج . وأضاف الدفاع أن الأغريق والرومان تنبهوا إلى قدسية هذه العلاقة . فلما جاءت المسيحية فى القرون الوسطى زرعت فى نفوس المؤمنين بها الاحساس الدفين بأن الجنس خطيئة تستحق التكفير عنها.ورد الدفاع على قول الادعاء أن هناك مالا يقل عن ثلاثة عشر موضعا فى الرواية تصف العلاقات الجنسية وصفا تفصيليا دقيقا بأن الادعاء لم يفهم هذه المواقف الروائية على حقيقتها فلو انه تمعن فيها لوجدها عاجزة عن ارضاء العاشق والعشيقة اللذين بدءا يحبان بعضهما البعض حبا حقيقيا بعد فترة انغماسهما فى الاباحية ولذات الجسد . وهكذا تنتهى الرواية باستشراف علاقات عاطفية سوية تتسم بالصحة النفسية تتطور تطورا بطيئا ومطردا نحو الاستعداد والتمهيد للزواج واقامة علاقة زوجية دائمة وثابتة ووطيدة .

ويخلص الدفاع إلى القول بأن وظيفة الروائى المعاصر تتجلى فى رسم صورة صادقة للمجتمع وتبيان الشرور الاجتماعية السائدة فيه وهذا ما يفعله لورانس فى روايته «عشيق الليدى تشاترلى» التى لا تقع بحال من الأحوال تحت طائلة القانون.فهى فضلا عن قيمتها الأدبية والفنية تعود بالنفع على المجتمع . ويذهب الدفاع إلى أن المؤلف يتعمد استخدام بعض الألفاظ الجنسية الخارجة بشكل متكرر (مثل كلمة ينيك) بهدف أن يطهر هذه الألفاظ مما علق بها عبر

الأجيال من قبح لا مبرر له.وبعد أن طلب الدفاع استبدال بعض المحلفين من الرجال ببعض المحلفات من النساء (بحيث أصبح عدد المحلفين فى النهاية تسعة رجال وثلاث نساء) طلب أيضا من القاضى ألا يسمح للمحلفين بقراءة الرواية محل النزاع على راحتهم فى بيوتهم مصرا على أن يقرأ كل محلف الرواية بمعزل عن زملائه المحلفين وعلى مقعده الجلدى الوثير داخل الحجرة المخصصة له فى مبنى المحكمة وذلك قبل النطق فى الحكم فى القضية .

وقائع الجلسة الثانية فى ٢٧ أكتوبر

لم تكن الجلسة الثانية التى عقدت فى ٢٧ أكتوبر ١٩٦٠ محاكمة لرواية « عشيق الليدى تشاترلى » بقدر ما كانت حوارا أدبيا رفيع المستوى أدلى فيه الخبراء والمتخصصون بآرائهم فى قيمة الكتاب.كانت مظاهرة أدبية وفكرية قد لا نجد نظيرا لها فى تاريخ الآداب العالمية . فقد خف للدفاع عن الكتاب نخبة من أهم كتاب انجلترا وعلمائها ومنهم رجال دين بارزون .

كان أول من استدعته المحكمة للشهادة بناء على طلب الدفاع هو جراهام هوف مؤلف كتاب « الشمس المظلمة : دراسة عن د . هـ . لورانس». قال هوف ان لورانس واحد من أهم الروائيين الانجليز المحدثين وأن نحو ثمانمائة كتاب ألفت عنه حتى ذلك الوقت وذكر أن « عشيق الليدى تشاترلى » ليست من أحسن أعماله الروائية التسعة ولكنها فى نفس الوقت ليست أسوأها فهى فى نظره تأتى فى المرتبة الخامسة . وعندما سئل إذا كان لورانس ألف روايته كذريعة يغطى بها مقصده الحقيقى وهو نشر ما فيها فقرات جنسية.أجاب:بأنه من غير المعقول أن يكتب كتابا من ثلثمائة صفحة كمجرد ستار لنشر صفحاته الجنسية التى لا يزيد عددها عن ثلاثين صفحة . وحول اتهام

الصفحات الثلاثين بالاباحية يقول هوف : « يصعب أن نجد أية اباحية هنا. فالاباحية شيء يدينه لورانس بشدة. صحيح أن محور الرواية عبارة عن موقف زنا ولكن هذا موجود فى الكثير جدا من الأعمال الروائية الأوربية منذ الالياذة . وأضاف هذا الخبير: أن للمواقف الجنسية فى الرواية وظيفة فهى تبين ما طرأ على شخصية الليدى تشاترلى من تطور من حيث أنها بدأت تدرك طبيعتها وتصبح على وعىٍ بها .

وأكد هوف ان استخدام لورانس بعض الكلمات السوقية الخاصة بالجنس لايهدف الى الفجور والتهتك . ولكنها محاولة من جانبه ـ قد تكون فاشلة ـ لتطهير هذه الكلمات من ايماءاتها الدونية الفاحشة . وهدفه من هذا هو التدليل على انه ليس فى العملية الجنسية مايشين على الاطلاق . وأردف هوف: أن المؤلف كتب « عشيق الليدى تشاترلى » ثلاث مرات، وأن النسخة الأولى من الرواية خلت من الفقرات الجنسية . فضلا عن أنه فكر فى اختيار عنوان آخر لروايته هو « الحنان » ولكنه عدل عنه ثم ناقش الادعاء اسلوب لورانس الذى يعتمد على تكرار بعض الألفاظ تكرارا شديدا يصل الى عشر مرات فى حيز ضيق. فأقر هوف بأن هذا التكرار سمة مميزة لأسلوبه . وليس فيه مايعيب من الناحية الأدبية . ولكنه اعترف بأن التوفيق يجانبه فى هذا التكرار احيانا . كما اعترف بعدم واقعية الحوار الغريب الذى دار بين العالم الاكاديمى المستر مالكولم والد الليدى تشاترلى وبين ميلورز الجناينى عشيق ابنته . فلا يعقل أن يتضاحك الأب الأكاديمى مع عشيق ابنته وبعترف له بقوة الباه التى استطاع بها أن يشعل فتيل الجنس فى جسدها .

واستدعيت الناقدة المعروفة هيلين جاردنر مؤلفة بعض الكتب النقدية المعروفة عن ت. س. اليوت وجون دون وغيرهما من الشعراء

والأدباء . شهدت هذه الناقدة بأن د. هـ. لورانس واحد من أهم خمسة أو ستة أدباء انجليز فى القرن العشرين . وقالت عن روايته « عشيق الليدى تشاترلى « أرى أنه كتاب يلفت النظر للغاية . غير انى لا أعتقد انه من اعظم الأعمال التى كتبها لورانس وان اتسمت بعض فقراته بقدر كبير من الجدارة والاستحقاق . بل ان هذه الفقرات من اعظم ما سطر على الاطلاق » وتوافقت آراؤها فى الرواية مع آراء هوف فذهبت الى أن هدف لورانس من تكرار بعض الالفاظ التى يعتبرها المجتمع فاحشة هو رغبته فى تطهيرها من تداعيات الفحش التى ارتبطت بها من كثرة الاستخدام عبر الاجيال فضلا عن انها اكدت ان لورانس أراد بتكراره لمثل هذه الألفاظ أن يقول انه ليس هناك أى شىء مخجل فى ممارسة الجنس .

وبعد ذلك استدعيت السيدة جوان بينيت المحاضرةفى اللغة الانجليزية وآدابها فى جامعة كامبردج وصاحبة العديد من المؤلفات النقدية عن الروائية فيرجينيا وولف والروائية جورج اليوت والشاعر جون دون . ووصفت هذه الناقدة لورانس بأنه أعظم روائى شاب منذ توماس هاردى وجوزيف كونراد . واجابت عن سؤال خاص بالهدف الذى يرمى اليه من وراء روايته بقولها:انه يريد ان يبرز اهمية الجسد فى حياة الانسان وأهمية اكتمال العلاقات الزوجية . وتؤكد هذه الناقدة ان لورانس لايدعو الى الفسق والفجور لأن مثل هذه العلاقات الجنسية لاتبعث على الرضا أو الفرح بل على السخط والاشمئزاز . وتعترف جوان بينيت بأن الزنا هو المحور الذى تدور حوله الرواية ولكن الرواية فى نظرها لاتقتصر على الجنس فهى تعالج قضايا اجتماعية مثل العلاقة بين الطبقات العليا والمتوسطة والعاملة . كما انها تدافع عن الزواج القائم على اكتمال العلاقات الجسدية بين الرجل والمرأة.فالزواج الذى ينتفى منه هذا الاكتمال ينبغى فسخه . وأردفت جوان بينيت قائلة: ان لورانس يدمغ العلاقات الجنسية

الرخيصة والعابرة مثل خيانة الليدى تشاترلى زوجها مع واحد من أصدقائه أثناء وجود الضيوف فى منزله لأنها علاقة لاتقوم على الحب فى حين أنه يوافق على علاقتها بالجناينى ميلوز لأنها علاقة مكتملة وصادقة او هكذا أصبحت فى نهاية الأمر . وفيما يتعلق بخيانة الليدى تشاترلى لزوجها ذكرت جوان بينيت ان السير تشاترلى ادراكا منه لعجزه الجنسى سبق أن أشار على زوجته ان تنجب طفلا من رجل غيره .

وعندما ظهرت الروائية الشهيرة ربيكا ويست لتدلى بشهادتها اهتم المحلفون بظهور هذه الكاتبة الشهيرة أمامهم . قالت ربيكا ويست:ان د. هـ. لورانس أديب رفيع المستوى يناقش أدبه الجاد فى كل بلاد العالم جميع المعنيين بالآداب الغربية .

وأنكرت ان المؤلف يدعو الى تمجيد الزنا لأنه أنفق كل حياته فى رسم صورة لما ينبغى ان يكون عليه الزواج السعيد وأبرز أهمية هذا الزواج فى الحياة . وعرضت للجانب الاليجورى (أو الرمزى) فى الرواية فقالت:ان المؤلف أراد برسمه لشخصية العاجز الكسيح السير كليفورد ان يصور الافلاس الثقافى والحضارى الذى تعانى منه المجتمعات الحديثة . فهذه المجتمعات عاجزة عن تلبية حاجات الانسان الأولية .

وليس غرام الليدى تشاترلى بالجناينى الا رمزا لعودة الانسان الى منابعه الأولى وفطرته السليمة التى كان الابتعاد عنها سببا لما أصاب الحضارة الحديثة من ضمور . ولورانس فى نظرها كاتب واقعى يهتم بمعالجة مشكلات تلك القطاعات العريضة فى كل انحاء العالم التى تعيش فى المدن وتبنى المصانع وتعمل فيها وماتعانى منه هذه القطاعات العريضة من ضياع . وعند سؤالها عن اهمية الرواية من الناحية الأدبية أجابت ربيكا ويست:بأن الحكم على قيمتها الادبية ليس بالأمر الهين

أو اليسير . تقول ربيكا ويست :أن بعض عباراتها وفقراتها شديدة السوء ولكن هذا لايقلل من عظمتها . ونفس الشىء فى رأيها ينطبق على اعمال الأدباء الآخرين أمثال شكسبير وورد زورث وديكنز . ثم تناولت « عشيق الليدى تشاترلى » بالتحديد فقالت:ان فيها بعض العبارات الواضحة السوء من ناحية الصياغة كما انها تفتقر الى الاحساس بالدعابة . ورغم ان كثيرا من صفحات الرواية لاتروق لها فان الشك لايراودها فى قيمتها الفنية .

ثم استدعى اسقف وولويتش فجاءت شهادته لصالح لورانس الذى اعلن انكاره للمسيحية وسخر منها فى بعض كتاباته .

قال الأسقف عن نفسه انه تخرج فى كامبردج وأخذ شهادة فى اللغات الكلاسيكية ودرس اللاهوت وعلم الاخلاق وحصل على دكتوراه الفلسفة . وسئل بوصفه رجل دين عن رأيه فى المزايا الأخلاقية للرواية فأجاب قائلا : واضح ان لورانس لم يحكم على الجنس من منظور مسيحى وأن نوع العلاقة الجنسية التى يصورها فى كتابه ليس بالضرورة ذلك النوع الذى شخصيا اعتبره نموذجيا . غير انى أرى بجلاء ان ما يسعى لورانس اليه هو ان يصور العلاقات الجنسية على انها شىء مقدس . واستشهد الأسقف برأى كبير الأساقفة وليم تمبل لتوضيح آراء لورانس فى الجنس . يذهب كبير الأساقفة الى أن السبب الذى يجعل المسيحيين يمتنعون عن التنكيت عن الجنس هو نفس السبب الذى يمنعهم من التنكيت عن الروح القدس . فكلاهما مقدس . ويرى أسقف وولوتش أن لورانس فى أدبه يصور قداسة العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . واننا نخطىء إذا ظننا انه يصور الاباحية الجنسية من أجل ذاتها.فكتابه فى حقيقية الأمر هجوم على الاباحية ودعوة الى اقامة علاقات جنسية دائمة وصحية بين البشر.فضلا عن أن لورانس يبدع احيانا فى وصف جمال

الطبيعة بصورة قل أن نجد لها نظيرا . واعترف الاسقف ان لورانس ينكر المسيحية ولكنه قال : « ان (عشيق الليدى تشاترلى) رواية ينبغى على كل المسيحيين قراءتها . ومن الواضح ان شهادة الأسقف أثارت ممثل الادعاء المستر جريفث جونز الذى قاطعه بشىء من الخشونة من وقت لآخر .

ثم جاء دور الدكتور فيفيان بنتو استاذ الأدب الانجليزى بجامعة نوتنجهام (مسقط رأس د . هـ . لورانس) الذى تخصص فى أدب لورانس والقى العديد من المحاضرات عنه فى امريكا والهند وبلجيكا ويوغسلافيا وايطاليا . وقد نشر بنتو بعد وفاة لورانس بعض أعماله غير المنشورة التى اخذها من اخته ، كما انه جمع تراثه فى قسم خاص بمكتبة جامعة نوتنجهام .

ويرى بنتو ان لورانس واحد من اعظم الكتاب الانجليز فى القرن العشرين وانه يقف فى مصاف روائى انجلترا العظام امثال توماس هاردى وجورج اليوت وجين اوستن وهنرى فيلدنج . ويضيف بنتو ان الرواية تهدف الى امرين:اولا الهجوم على المجتمعات الصناعية وتحويل الفرد فيها الى آلة أو مجرد ترس فى آلة . ثانيا ان سعادة الانسان تنبع مما يجده من حب وحنان فى علاقته الجنسية . ويرى بنتو ان الرواية عمل من اعمال لورانس الهامة ولكن ليست اهم هذه الأعمال . فضلا عن انه يعتبرها كتابا اخلاقيا . ويمتدح بنتو الخطاب الوارد فى نهاية الرواية فيصفه بشدة الشاعرية ويرى فيه تأكيدا للحياة ولما يمكن ان نسميه الزواج الصادق . ولايشك هذا الناقد فى ان لورانس يستهجن الاباحية ويستنكرها ويرى فيها أبلغ الضرر .

ويرى بنتو ان بعض أجمل فقرات الرواية لاتتصل بالجنس بل تعالج النقد الاجتماعى مثل وصف انتقال الليدى تشاترلى فى منطقة

داربشير ، وادراكها للعواقب الوخيمة الناجمة عن الحياة الآلية والصناعية . ويردد بنتو ماسبق أن ذهب اليه الخبراء الآخرون من ان استخدام لورانس للالفاظ البذيئة كان ضرورة أدبية وأن هدفه كان تطهير هذه الكلمات من معناها البذيء وهو امر يستحيل تحقيقه بحكم المعتقدات الثابتة التى توارثتها الأجيال بخصوص هذه الكلمات . واستأذن مستر جاردنر ممثل الدفاع فى قراءة بعض الفقرات التى كتبها لورانس فى مقاله «حول رواية عشيق الليدى تشاترلى» الذى سبق ان لخصناه والتى تبين بما لايدع مجالا للشك ايمان هذا الكاتب الذى يتزعزع بالزواج .

وأراد ممثل الأدعاء المستر جريفث جونز احراج البروفيسور بنتو فذكر له ان الناقدة الأمريكية استر فوريس تمتدح أول مخطوط سطره لورانس للرواية وهو مخطوط نظيف وخال من الالفاظ البذيئة بخلاف المخطوط المنشور الذى تحط هذه الكاتبة من شأنه . ورد بنتو على ذلك بقوله ان رأى الناقدة الأمريكية لايعتد به لأن قيمتها النقدية محدودة للغاية . ثم سأل الادعاء بنتو عن رأيه فى الكتاب المعروف الذى

يهاجم لورانس والذى ألفه الناقد جون ميدلتون مرى بعنوان « ابن أمه » فأجاب بنتو انه لايعتقد ان الكتاب جيد او انه يبعث على الرضا . وأضاف بنتو:ان مرى نفسه اعاد الى لورانس شيئا من اعتباره فى كتاب لاحق بعنوان « الحب والحرية والمجتمع » واختتم بنتو شهادته بقوله:انه عندما اعاد قراءة « عشيق الليدى تشاترلى » بعد مضى سنوات من قراءته الأولى لها ازداد اعجابه بها عن ذى قبل الأمر الذى يؤكد ان لها قيمة فنية .

واستدعى السير وليم امريز وليامز مدير دار بنجوين للنشر الذى يقول انه تخصص فى اعمال د. هـ. لورانس على مدار خمسة واربعين

عاما وانه قرأ كل مؤلفاته . ويرى وليامز انه من النادر ان نجد كل هذا التفاوت فى مستوى كتابات مؤلف واحد . فهى تصل الى اوج الكمال فى روايتيه « أبناء وعشاق » و« الفتاة الضائعة » ثم تتدنى وتهبط الى سفح الابداع كما نرى فى روايته « الضابط البروسى » ورغم هذا فلورانس على قدم المساواة مع كل من هاردى وكونراد .

وأعلن وليامز ان هناك اقبالا عظيما على اعمال لورانس، وان دار بنجوين أرادت نشر كل اعماله بمناسبة مرور ثلاثين عاما على وفاته . وتحدث وليامز عن الظروف التى دعت دار بنجوين لنشر « عشيق الليدى تشاترلى » فقال: ان الدار ارادت بهذا النشر ان تحتفل بعيدها الفضى . وشجعها على اتخاذ ذلك القرار عدة اعتبارات اولها صدور قانون المطبوعات عام ١٩٥٩ الذى ينص لأول مرة على حق الناشر فى استدعاء الخبراء للادلاء بشهادتهم كما ينص على ضرورة الحكم على أى عمل أدبى ككل . فضلا عن ان دار بنجوين أرادت أن تحذو حذو الناشرين الأمريكان الذين نشروا الرواية فى امريكا عام ١٩٥٩ . وأضاف السير وليامز: ان دار بنجوين كانت بصدد نشر جميع مؤلفات لورانس باستثناء كتابين او ثلاثة من بينها « التحليل النفسى للا وعى » لأنه فى رأيه كتاب لايقرأ . وعندما طرح ممثل الادعاء جريفث جونز السؤال عما حدا ببنجوين الى نشر النسخة غير النظيفة فى حين انه كان بامكانها نشر النسخة الأولى النظيفة أجاب بقوله: ان سياسة الدار كانت ولاتزال تحرص على نشر الأعمال الأدبية كاملة غير منقوصة وان النسخة غير المحذوف منها تتميز باكتمالها بالمقارنة بالنسخة الأصلية .

وردا على سؤال خاص بالتغيرات التى تطرأ على أفكار المؤلف ونواياه من وقت الى آخر مما جعل لورانس يتخلى عن مخطوطه الأول ويفضل عليه مخطوطه الأخير. أجاب وليامز: ان الفنان له مطلق الحرية

فى تغيير افكاره من وقت الى اخر وهو الوحيد الذى يحق له ان يقرر الشكل النهائى الذى تظهر عليه أعماله . ويذهب وليامز الى ان علاقة الجناينى ميلورز بالليدى تشاترلى طرأ عليها تغيير.ففى بادىء الأمر كانت علاقة شهوانية فاشلة وغير صحية ولكنها تحولت فى نهاية الأمر الى علاقة جنسية صحية ومكتملة .

واستدعى بريبندارى ستيفان هوبكنز محرر رواية « رجل الكنيسة فى لندن » وهو راعى كنيسة وسئل عن مزايا الرواية من الناحيتين الأخلاقية والسوسيولوجية وخاصة من وجهة النظر المسيحية فأجاب: ان الكتاب يتضمن هدفا اخلاقيا فهو يعنى برسم صورة للتفاهم والحنان وبقداسة الجنس وثمرته . ومن ثم فهو يؤكد جانبا هاما من التقاليد المسيحية .

ويرفض هذا الكاهن استبدال الكلمات والعبارات الخارجة بوضع نقط أو ترك فراغات لأن هذا من شأنه ان يعطى الفرصة لاساءة مقصد المؤلف وهدفه من روايته . ولايرى هذا الرجل مانعا من ان يقرأ أبناؤه وبناته الرواية بحيث يناقشونها معه او مع والدتهم .

وفى ختام الجلسة الثانية استدعى الأديب والعالم السوسيولوجى المعروف ريتشارد هوجارت مؤلف « فوائد معرفة القراءة والكتابة » قال هوجارت:انه قام بتدريس أدب د. هـ . لورانس للناشئة وانه يعتبره اديبا فذا وان الذين يقرأون روايته « عشيق الليدى تشاترلى » على انها علاقات شهوانية بين ذكر وانثى يصدرون احكاما ابعد

ماتكون عن الصواب ويخطئون فى فهم الرواية التى يعتبرها هوجارت عملا اخلاقيا وفاضلا بل انه عمل يتضمن افكارا اخلاقية متزمتة . فالرواية التى تدور حول الاحترام الجسدى والنفسى والروحى المتبادل

بين عاشق وعشيقته لايمكن ان تدعو الى الفسق او التهتك .

وقائع الجلسة الثالثة فى ٢٨ اكتوبر ١٩٦٠

وفى اليوم التالى الموافق ٢٨ أكتوبر ١٩٦٠ استكملت المحكمة شهادة ريتشارد هوجارت . كما استدعت المحكمة للشهادة بناء على طلب الدفاع ناظر مدرسة اسمه كامارتس والآنسة سارة بيريل جونز مدرسة الكلاسيكيات بمدرسة كيلى للبنات وتبعها المؤرخة وكاتبة السير الدكتورة س. ف. ويدجوود والنجم التليفزيونى فرانسيس وليامز والروائى الكبير ا. م. فورستر صاحب الرواية الذائعة الصيت « رحلة الى الهند » وحضر روى جنكنز عضو البرلمان البريطانى والمؤرخ الأدبى والتر ألين والآنسة آن سكوت جيمس المحررة ببعض المجلات والدكتور جيمس هيمنج المتخصص فى علم النفس التربوى .

أنكر هوجارت ـ وهو يستكمل شهادته ـ ماسبق أن أنكره غيره من الشهود وهو أنه ليس صحيحا أن الرواية مجرد علة يتعلل بها المؤلف لأن يسوق فقراته البذيئة وأضاف :اليس صحيحا أن فقرات الفسق والتهتك فيها مملة لأنها متكررة على نحو لا يتغير ولاتختلف الأحداث المتهتكة إلا فى شىء واحد هو مكان وقوعها . ويرى هوجارت أن كل حادثة من الأحداث الواردة فى الرواية تختلف عن سواها فى أنها تمهد على نحو مطرد لزيادة التفاهم والصدق بين العاشقين . ويتحدث هوجارت كيف تحولت العلاقة الشهوانية بين الجناينى وعشيقته إلى علاقة تتجاوز الجنس والجسد فى آخر الأمر لتصبح علاقة زوجية نقية وخالصة ، الأمر الذى يؤكد استنكار المؤلف للحياة الجنسية الماجنة . فالكتاب لايحبذ الزنا ولكنه يدافع عن الزواج . والعلاقات الجنسية فى نظر لورانس شديدة الأهمية ولكنها لا تعدو أن تكون تمهيدا للعلاقة

الروحية الوطيدة . ويعرض هوجارت لاستياء لورانس من التدهور الذى أصاب اللغة الانجليزية والذى جعل الناس يستخدمون الألفاظ الدالة على الممارسة الجنسية على أنها شتائم وسباب يستخدم للتحقير .

ثم جاء دور المستر فرانسيس كاميرتس ناظر مدرسة قريبة من لندن فقال للمحلفين انه قرأ رواية لورانس وهو فى السابعة عشرة من عمره وأنها تركت فى نفسه أبلغ الأثر . وفى رأيه أن الرواية ترمى إلى أمرين أحدهما دراسة العلاقات الانسانية العميقة والثانى دراسة الأثر الضار الذى يتركه التصنيع الحديث فى شخصية الأفراد . ويمتدح المستر كاميرتس الرواية لأنها أول عمل يعالج العلاقات الجنسية بين البشر بطريقة جادة .

والجدير بالذكر أن الضعف والوهن بدأ يدب فى أوصال ممثل الادعاء المستر جريفث جونز الذى أخذ يمتنع عن توجيه الأسئلة إلى الشهود .

ثم جاء دور ... الآنسة سارة بيريل جونز مدرسة اللاتينية والكلاسيكيات فى احدى مدارس البنات لتقول: إن للرواية ميزة تعليمية واضحة اذا قرئت بعد السابعة عشرة . وتدل شهادتها على أن بنات المدرسة التى تعمل بها لايقبلن على قراءة هذه الرواية . ولكن هذا لايمنع بعضهن من الاقبال على مطالعتها .

ثم جاء دور المؤرخة وكاتبة السير الدكتورة س . ف . ويدجوود التى ألفت كتابين فى الأدب ، وأعلت هذه الكاتبة من شأن الرواية ووصفت مؤلفها بأنه واحد من أعظم الروائيين الخلاقين فى القرن العشرين بل وفى الأدب الانجليزى كله . كما وصفته بأنه واحد من

أبرز الشعراء طرا . وأكدت هذه السيدة ان حذف الفقرات الجنسية من الرواية قمين بالاضرار بالهدف منها وهو اظهار أن ممارسة الجنس التى لاتستند إلى الحب شىء سيىء وقبيح فالحب والحنان لاغنى عنهما فى أية علاقة جنسية سوية .

ويتضح من شهادة فرانسيس وليامز الصحفى والشخصية التليفزيونية المعروفة أنه قرأ نسختى الرواية المهذبة والكاملة وهو مقتنع بتفوق النسخة الكاملة والتى تحتوى على الفقرات الجنسية على النسخة النظيفة من الناحيتين الفنية والأدبية . ويرى وليامز أن لورانس أراد من روايته التنبيه إلى مخاطر الافراط فى استخدام العقل على حساب العواطف التلقائية وإلى مخاطر التصنيع الذى يمتهن انسانية الانسان ، ويعتبره مجرد ترس فى آلة ضخمة مما ينم عن بصيرة هذا المؤلف وتنبهه الباكر إلى مخاطر النظم الشمولية التى باتت تهدد العالم مثل النازية والبلشفية . ولايرى وليامز أدنى غضاضة فى أن يستخدم الجنايني ميلورز الألفاظ الجنسية الخارجة لأن مثل هذه الألفاظ عادية ومألوفة لمن ينتمى إلى مثل طبقته وهى الطبقة العاملة .

وعندما نودى على ادوارد مورجان فورستر بدا هذا الاسم غريبا على الأسماع . فرغم شهرته العريضة فإن العالم لايعرفه باسمه الكامل ولكنه يعرفه باسمه الأخير . وظهر الاهتمام على وجوه الحاضرين عند اعلان قائمة الدرجات العلمية الفخرية الممنوحة له . وزاد هذا الاهتمام عندما عرف الجميع أنه مؤلف رواية « رحلة إلى الهند » التى تحولت إلى عمل مسرحى كان يعرض آنذاك على خشبة أحد مسارح لندن . وسئل فورستر عن علاقته بلورانس فقال إنه كان يقابله كثيرا فى عام ١٩١٥ . ورغم أنه توقف عن مقابلته بعد ذلك فإن صلته به لم تنقطع . شهد فورستر بمكانة لورانس فى الأدب

المعاصر كله . وأضاف أن رأيه القديم فيه لم يتغير . فهو لايزال يعتقد أنه أكثر الروائيين اتصافا بالخيال فى الجيل كله . وعن « عشيق الليدى تشاترلى » كعمل أدبى قال : « أرى أن هذه الرواية تتمتع بمزايا أدبية رفيعة للغاية . ولعلنى أضيف أنها من بين روايات لورانس قد لاتكون الرواية التى أحمل لها الاعجاب أكثر من غيرها . فأنا فيما أعتقد أحمل هذا الاعجاب لرواية (أبناء وعشاق) . وعن وجود عنصر بيوريتانى أخلاقى متزمت فى أدبه الروائى قال: إن مثل هذا العنصر

لاريب موجود رغم ماقد يبدو على هذا من مفارقة تتعارض مع الحرية التى يظهرها عند الخوض فى شئون الجنس . وعقد فورستر مقارنة بينه وبين جون بنيان ذلك الكاتب الدينى البيوريتانى المعروف صاحب أول رواية فى الأدب الانجليزى على الاطلاق وهى « تقدم الحاج فى مسيرته » . فكلاهما يلتهبان بالعواطف ويبشران بما يؤمنان به من عقيدة . لورانس يبشر بالجنس وجون بنيان بالدين المسيحى . كما شبه فورستر لورانس بالشاعر الرومانسى المعروف وليم بليك الذى كان يتوق إلى تغيير العالم بحيث يكون على الصورة التى يشتهيها .

وعندما ظهر روى جنكنز عضو مجلس العموم البريطانى ورجل القانون المعروف ترك هذا الرجل أثرا عميقا فى جميع الحاضرين رغم قصر شهادته الشديد . ولاغرو فقد كان مسئولا قبل غيره عن تقديم المشروع الخاص بالمطبوعات البذيئة لعام ١٩٥٩ والذى استغرق اعداده خمسة أعوام بأكملها . وعندما داهم البوليس البريطانى دار بنجوين للنشر لمصادرة « عشيق الليدى تشاترلى » نشر جنكنز خطابا فى مجلة الاسبكتاتور يعبر فيه عن استيائه الشديد من حماقة مدير النيابة العامة الذى أمر بحظر الكتاب . وأيضا اتهم جنكنز البوليس بخيانة العهد الذى قطعه على نفسه بعدم التعرض للانتاج الأدبى . وفى كلمته القصيرة للغاية ذكر جنكنز أن ديباجة قانون

المطبوعات البذيئة تنص على حماية الانتاج الأدبى . وعندما سئل جنكنز اذا كان يعتبر « عشيق الليدى تشاترلى » انتاجا أدبيا قرر أنه عمل أدبى ما فى ذلك ريب .

واستدعى المؤرخ والناقد الأدبى المعروف والتر ألين صاحب كتاب « الرواية الانجليزية » للشهادة فقال: إنه لايعتبر « عشيق الليدى تشاترلى » من أحسن ماسطره يراع لورانس . ولكن هذه الرواية نتاج عبقرية مؤلفها الفذة فى حين أن معظم الروايات التى ظهرت فى وقتنا الحديث من تأليف كتاب يفتقرون إلى الموهبة . . وأوضح والتر ألين أن الكتاب أقرب ما يكون إلى نشرات الدعاية منه إلى العمل الروائى بمعنى أن المؤلف يعبر فيه بجلاء غير مسبوق فى أعماله الأخرى عن طائفة من الآراء حول حالة المجتمع والعلاقات الجنسية . والرأى عند ألين أن الكتاب أخلاقى من حيث أنه يعالج شرور المجتمع الصناعى وطبيعة العلاقات الجنسية .

وعندما مثلت المحررة فى شئون المرأة الآنسة آن مكوت جيمس نوهت هذه الصحفية بأن للرواية أهمية تعليمية وسيكولوجية وأن استبعاد الأجزاء الجنسية منها يقضى على هذه الأهمية لدرجة أنها لاترى مبررا لنشرها على الاطلاق دون هذه الأجزاء .

ومثل للشهادة بعدها الدكتور جيمس هيمنج المتخصص فى علم النفس التربوى الذى حصل على درجة الدكتوراة فى دراسة مشاكل المراهقة . والرأى عنده أن صورة الجنس فى العصر الحديث قد أصبحت شائهة وشديدة التفاهة والغثاثة . فقد باتت مجرد نشوة جسدية عابرة وموقوته تستثيرها العطور والملابس فى حين أنه ينبغى اقامة العلاقات الجنسية على الحب والحنان والدفء الانسانى الدائم . فالكتاب لايتضمن دعوة إلى التهتك والفجور بل إلى العلاقة الجنسية

الصحية والمستديمة . وتظهر الرواية أنه ليس فى الجنس ما يدعو إلى الخجل والعار كما استقر فى نفوس الناس . فالممارسة الجنسية السليمة هى فرحة بالحياة . وعندما حاول الدكتور هيمنج أن يقارن بين الرواية وغيرها من الروايات اعترض القاضى على ذلك . فانتهز ممثل الدفاع المستر جاردنر هذه الفرصة السانحة ليناقش الجوانب القانونية من هذا الموضوع .

وفى ختام الجلسة الثالثة ثار جدال حامى الوطيس بين المستر جاردنر ممثل الدفاع والمستر جريفت جونز ممثل الادعاء حول تفسير قانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٩٥٩ . وبعد الاستماع إلى وجهات النظر المتباينة انتهى القاضى إلى مايلى :

١ - ليس من شأن القانون الخوض فى نية المؤلف أو الناشر . فالمحكمة لاتحاكم أيا منهما ولكنها تحاكم الكتاب المنشور لما جاء فيه .

٢ - سلم القاضى بسلامة وجهة نظر الدفاع التى تقضى بضرورة بل حتمية المقارنات بين الكتاب موضوع النقاش وغيره من كتب بهدف التدليل على قيمة هذا الكتاب من الناحية الأدبية .

٣ - سلم القاضى بسلامة وجهة نظر الدفاع الذاهبة إلى ماطرأ مؤخرا على الجو الفكرى والأدبى من تغيرات . فالعمل الأدبى الذى كان مرفوضا فى العصر الفيكتورى أو حتى منذ عشرين عاما لم يعد مرفوضا الآن فى العديد من الحالات .

٤ - اعترض القاضى على المقارنات بين الكتاب المتهم وغيره من الكتب اذا كان الهدف منها التدليل على أنه سبق نشر كتب تتضمن درجة من الاباحية قد تقل أو تزيد عما فى الكتاب موضع الاتهام .

٥ - أقر القاضى مبدأ استدعاء الخبراء والمتخصصين للادلاء بشهاداتهم فيما يتعلق بقيمة العمل الأدبى . غير أنه أنكر عليهم الحق فى الشهادة اذا كان العمل مثار النقاش يخدم مصلحة الجمهور ويعود بالنفع العام فهذه مسألة يقررها المحلفون وحدهم .

وقائع الجلسة الرابعة فى ٣١ أكتوبر ١٩٦٠

فى اليوم الرابع الموافق ٣١ أكتوبر ١٩٦٠ تم استدعاء خبراء آخرين فتكرر دفاعهم عن الرواية . وهم الناقد المعروف رايموند وليامز الأستاذ بجامعة اكسفورد، نورمان سانت جون ستيفال المحامى المتخرج من جامعتى اكسفورد وكامبردج - ج . دابليو . لامبرت المحرر فى جريدة السنداى تايمز - السير ألن لين مؤسس دار بنجوين للنشر - القس ت . ر . ميلفورد - الناقد المرموق البروفيسور كينيث موير - السير ستانلى أنوين رئيس مجلس ادارة شركة أنوين للنشر - الآنسة ديليس باول الكاتبة فى السنداى تايمز - الشاعر المعروف س . داى لويس - ستيفين بوتر الذى ألف أول كتاب له عن د . هـ . لورانس - جانيت آدم سميث المحررة فى نيو ستيسمان - نويل أنان عميد كلية كنجز كوليدج بجامعة كامبردج - القس دونالد تيتلر مدير التعليم الدينى فى اسقفية برمنجهام - الناقد الادبى جون كونيل - س . ك . يونج المحرر الصحفى - هكتور هيثرنجتون المحرر الصحفى فى جريدة الجارديان - الآنسة برناردين وول الكاثوليكية المنشأ وربيبة دير السيدة العذراء فى منطقة بايزووتر فى لندن .

قال رايموند وليامز فى شهادته ان لورانس واحد من خمسة أو ستة من كبار الأدباء فى أوربا الحديثة وأن شهرته الدولية سبقت شهرته فى انجلترا وأن الرواية موضوع الخلاف واحدة من أهم أربعة أعمال المؤلف الأدبية وهى : « أبناء وعشاق » و « قوس قزح » و « نساء عاشقات » ويستطرد رايموند وليامز ليؤكد أن لورانس سعى فى روايته إلى تحطيم تلك النظرة التقليدية المنفرة التى ارتبطت عبر الأجيال بممارسة الجنس . ثم تلا هذا الناقد بعض فقرات الرواية التى تبين

مقدار الاحترام العميق الذى أولاه لورانس للجنس . وعندما اعترض البعض بفقرات أخرى من الكتاب تتسم بالاباحية الصريحة قال رايموند وليامز: ان مثل هذه الفقرات لاتعبر عن رأى المؤلف فى الجنس ولكنها تصف الحالة النفسية المرحلية التى تعيشها بعض شخصيات الرواية . ومن ثم فإنه من الخطأ النظر اليها بعيدا عن سياق الرواية العام .

وفى شهادته يقول نورمان سانت جون ستيفال الذى ينتمى إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أنه يعتبر الرواية كتابا أخلاقيا رغم انكار مؤلفها للدين المسيحى وأن صاحبها كتبها فى اطار التقليد الكاثوليكى الذى ينظر إلى الجنس على أنه شىء طيب فى حد ذاته ومنحة من لدن الله . ويأسف ستيفال لاختفاء هذه النظرة الصحية بسبب قدوم عهد الاصلاح الدينى أى بسبب انتصار البروتستانية التى استطاعت أن تنتزع جانبا كبيرا من البساط من تحت أقدام الكنيسة الكاثوليكية .

ويذهب لامبرت المحرر فى جريدة السنداى تايمز أن رواية لورانس لها مزايا سوسيولوجية وأدبية وأن مؤلفها يرفض الاباحية ويدينها . ويضيف لامبرت : انه عندما قرأ هذه الرواية فى يفاعته تعلم منها أن الممارسة الجنسية لاتضم طرفين منفصلين بل طرفين يكمل الواحد منهما الآخر .

ويشرح السير ألين لين مؤسس دار بنجوين للنشر السياسة العامة التى تنتهجها هذه الدار والتى تتلخص فى نشر عيون الأدب الانجليزى والعالمى فى سلسلة من الكتب الرخيصة الثمن تعرف بسلسلة بنجوين لايزيد ثمن الكتاب فيها عن ثمن عشرة سجائر فقط كى تعطى ذوى الدخول المحدودة والذين لم يواصلوا تعليمهم فرصة استكمال

مطالعاتهم وترقية أذواقهم . وبعد نجاح هذه السلسلة قررت دار

بنجوين للنشر اصدار سلسلة أخرى هى سلسلة بيليكان لنشر العلوم والفنون . ثم واجه ممثل الادعاء جريفث جونز الشاهد بمقال نشرته المانشستر جارديان فى ٧ مارس ١٩٦٠ جاء فيه على لسان السير ألين لين أنه لايعتبر رواية « عشيق الليدى تشاترلى » من أعظم الروايات التى كتبها لورانس . وبمواجهته بهذا المقال قال السير ألين لين أنه لايذكر أنه قال هذا . وهنا تدخل القاضى ليؤكد انه لايصح اعتبار كلام الجرائد دليلا يمكن الاستناد اليه لأن الصحف فى العادة لاتتحرى وجه الدقة فى كل ما تنشر . وقد جاء ايضا فى هذا المقال أن السير ألين لين أحد الرواد الذين أظهروا جرأة واقداما فى نشر رواية « يوليسيس » لجيمس جويس .

يقول القس ميلفورد الذى ألف كتيبا بعنوان « فلسفة الجنس »:انه لايرى ما يمنع المرء من قراءة رواية لورانس فى خلوة دون اشراك الآخرين فى الاستماع إليها . ويضيف هذا القس:أن من حق الأديب أن يحلل أدق خلجات ومشاعر النفس البشرية وهذا ما نجح فى عمله . ويعتبر انه من الخطأ أن ننظر إلى ممارسة الجنس على أنها مسألة تافهة وثانوية لاتزيد فى قيمتها عن اهتمامنا بالموسيقى والزهور . وينبهنا مليفورد إلى خطأ آخر هو النظرة إلى اللذة الجنسية كهدف فى حد ذاته يسعى الرجل والمرأة لتجديده كشىء منفصل ومؤقت . فالجنس فى رأى لورانس يبدأ بالعلاقة الجسدية الكاملة وينتهى بالعلاقة الروحية الدائمة .

وأوضح الناقد الأكاديمى المعروف كينيث موير أن رواية لورانس لاتدور حول الجنس الفاضح ولكن حول خلاص الفرد ثم خلاص

المجتمع عن طريق الحنان المتبادل بين الرجل والمرأة فى علاقات جنسية سوية . والمؤلف لايصف العمليات الجنسية وصفا فسيولوجيا ولكنه يصفها وصفا شاعريا . ومن ثم فانه من الخطل أن نقول إن وصف هذه العلاقات يتسم بالشذوذ أو السادية .

وأكد السير ستانلى أنوين رئيس مجلس ادارة شركة أنوين للنشر ذلك فى شهادته إذ قال:إن الرواية تدعو إلى ضرورة استمساك الرجل بامرأة واحدة وضرورة التصاق المرأة برجل واحد . وأضاف أنوين أنه لايعتبر العشيقة الليدى تشاترلى امرأة فاسقة أو متهتكة .

وعندما جاء دور سيسل داى لويس للشهادة آثار ظهوره فى المحكمة اهتماما شديدا به فهو الشاعر المعروف والمحاضر فى جامعة كامبردج وأستاذ مادة الشعر فى جامعة اكسفورد ونائب رئيس الجمعية الملكية للأدب . ذكر لويس أنه مؤلف الروايات البوليسية المنشورة باسم نيكولاس بليك المستعار . وأردف لويس قائلا: إن تصوير لورانس لامرأة زانية فى روايته لايعنى مطلقا أنه يحبذ الزنا أو يدافع عنه . ولايرى لويس أن الليدى تشاترلى امرأة اباحية أو منحلة كما أنه لايرى أنها مفرطة فى شهوانيتها . ويذهب لويس أن الخير فيها يطغى على الشر،وأنه من الخطأ أن نظن أن العاشقين لم يتحدثا فى أية موضوعات سوى المضاجعة.فقد تحدث مليورز إلى عشيقته عن حياته أثناء الخدمة العسكرية فى الهند ورأيه فى المجتمع الذى يعيش فيه . ويعتقد لويس أنه من الطبيعى أن يركز المؤلف على بعض المحادثات دون الأخرى التى تتصل بالموضوع الذى يعالجه فى روايته وهو فى هذه الحالة العلاقة السوية بين الرجل والمرأة . ويضيف لوبس:أن لورانس يتناول فى عموم أدبه موضوع انحراف الحضارة الحديثة عن الطريق القويم.فهذه الحضارة تخطىء خطأ فادحا عندما تعلى من شأن العقل على حساب الغرائز والعواطف .

وتحدث ستيفن بوتر الناقد والمحاضر فى الأدب الانجليزى بجامعة لندن ومقدم البرامج الأدبية بمحطة الاذاعة البريطانية . يقول بوتر:أنه أخطأ عندما قرأ رواية « عشيق الليدى تشاترلى » لأول مرة فقد ظن أنها دعاية لبعض أفكار المؤلف عن الجنس . ولكنه تنبه إلى خطئه بعد قراءته الثانية للرواية عندما اكتشف أنها تتمتع بالقوة بغض النظر عما فيها من أفكار . ويؤكد بوتر أن لورانس كان يهدف إلى تطهير الكلمات الجنسية من البذاءة التى اقترنت بها وأن يعيد إلى هذه الكلمات وقارها اللائق بها . وهو أمر من الصعب تحقيقه .

وفى شهادتها أكدت الآنسة جانيت آدم سميث المحررة الأدبية فى مجلة « النيوستسمان » و« الليسنر » أن الرواية تدور حول القفر والموات الذى أصاب انجلترا بعد الحرب العالمية الأولى وما أصاب عمال الريف الانجليزى من تشويه من جراء التصنيع وبناء المساكن الشائهة التى انتشرت فيه على نحو سرطانى . وترفض هذه الشاهدة رفضا باتا الفكرة القائلة بان الرواية تحبذ التهتك وتشجع على الفسق . وتعجز الشاهدة عن مقارنة الرواية بروايات أخرى لأن رواية لورانس تحترم العلاقة بين الجنسين فى حين أن الروايات الأخرى تعتبر العلاقة الجنسية أمرا تافها ومعيبا.ان « عشيق الليدى تشاترلى » فى رأيها تتجاوز الشهوانية الحيوانية وتنطلق إلى آفاق أرحب من الحب والحنان فى حين أن الجنس فى الروايات الأخرى المماثلة يرتبط بالعنف والقسوة والشذوذ .

ثم أدلى نريل أنان الأستاذ بجامعة كامبردج بشهادته فقال:إنه يدرس لطلبته منهجا يتناول الأخلاقيين القدامى أمثال أفلاطون وأرسطو والأخلاقيين الانجليز أمثال جون ستيوارت ميل وجورج اليوت وماثيو أرنولد و د . هـ. لورانس ووصف نويل أنان

د . هـ . لورانس بأنه أعظم الكتاب الانجليز ثراء فى الخيال فى القرن العشرين وأنه يقف على قدم المساواة مع فيرجنييا وولف وجيمس جويس وجوزيف كونراد وإ . م فورستر الذى سبق أن أوردنا شهادته .

وفى شهادته ذهب رجل الدين القس دونالد تيتلر إلى أن الرواية تتضمن جوانب تعليمية . فهى تساعدالشباب على تحقيق النضج والاحساس بالمسئولية فى الممارسات الجنسية . ثم قام ممثل الدفاع المستر جاردنر بتلاوة فقرات مستفيضة عن تقديس لورانس للروابط الزوجية استقاها من مقاله « حول عشيق الليدى تشاترلى » وفيه يقول هذا الكاتب:ان هذا النظام هو حجر الزاوية فى الكنيسة المسيحية وأن هذه الكنيسة سوف تنهار بدونه . فضلا عن أن هذا النظام هو الذى يقى الفرد من غائلة الاستبداد وتسلط الدولة على مقدرات الأفراد . وسأل ممثل الدفاع الشاهد إذا كانت هذه الآراء تتعارض مع رأى الكنيسة . فأجاب رجل الدين دونالد تيتلر بقوله: إن ما يقوله لوارنس فى هذا الشأن هو ابلغ تعبير عن موقف الكنيسة من نظام الزواج . وهنا احتج ممثل الادعاء جريفث جونز بقوله: إنهم لم يجتمعوا لمحاكمة مقال لورانس « حول عشيق الليدى تشاترلى » بل لمحاكمة روايته التى تحمل هذا الاسم . وأخذ يضيق الخناق على الشاهد حتى يتبين أن المقال يتضمن دفاعا عن قدسية الزواج فى حين أن الرواية فى نظره تخلو من أية اشارة إلى هذه القدسية .

وقال المستر جون كونيل الناقد الصحفى ورجل التربية والتعليم ان قراءة رواية « عشيق الليدى تشاترلى » ضرورية لفهم أدب لورانس ككل . وأضاف أن المؤلف صاغ روايته بأمانة وأنه عالج فيها موضوعين متشابكين وعلى درجة عالية من الأهمية فى انجلترا الحديثة

وهما العلاقات الجنسية والفوارق الطبقية . ويذكرنا هذا الناقد بأن لورانس بدأ روايته بعبارة بالغة الأهمية لاينبغى أن نتجاهلها وهى « نحن نعيش بالضرورة فى عصر مأساوى » .

وذكر س . ك . يونج . الذى ألف كتابا تناول فيه سيرة حياة د . هـ . لورانس قائلا عن نفسه:أنه نشأ وترعرع فى أسرة تعمل بالمناجم شبيهة بالأسرة التى وصفها هذا المؤلف فى رواياته . ويذهب يونج إلى أن وصف لورانس لحياة المناجم يطابق مع ما عرفه عنها فى تلك الأيام .

وجاء فى شهادة المستر هكتور هثرينجتون أنه درس الأدب فى كلية كوربوس كريستى فى اكسفورد وتخرج منها . وأن مايروقه فى « عشيق الليدى تشاترلى » هو تصويرها لروعة الحب الجسدى وقوى الخلاص التى تطلقها الممارسات الجنسية الصحية من عقالها وأهمية الرقة والحنان فى علاقة الذكر بالأنثى . ويذهب هذا الرجل إلى أن الرواية تغاير تماما ذلك النوع من الروايات الذى يدور حول الممارسات الجنسية العنيفة والسادية والسحاق والشذوذ والمضاجعات الحرام .

وانتهى اليوم الرابع من المحكمة بشهادة الآنسة الكاثوليكية برناردين وول التى شدت اليها انتباه الجميع . قالت هذه الآنسة فى شهادتها أن النسخة الكاملة من الرواية تفوق بكثير فى أهميتها النسخة المهذبة الخالية من الفقرات الجنسية لأن النسخة الكاملة توضح فيما توضح احدى النقاط الهامة فى الرواية وهى التناقض الموجود بين امتلاء الحياة التلقائية من ناحية وخواء وإفلاس الحياة الصناعية من ناحية أخرى .

وقائع الجلسة الخامسة فى ١ نوفمبر ١٩٦٠

تحدث ممثل الدفاع المستر جيرالد جاردنر فى جلسة اليوم الخامس الموافق ١ نوفمبر ١٩٦٠ قائلا:إن دار بنجوين للنشر عندما قررت نشر رواية « عشيق الليدى تشاترلى » كانت تدرك سلفا أن النيابة قد ترفع قضية ضدها . ولكنها حرصت على نشرها اقتناعا منها بأنها رواية نظيفة وأدب راق يعود بالنفع على الناس وليس فيه أى ضرر لهم .
ولو كان الربح وحده هدف الدار لأمكنها نشر النسخة الخالية من الفقرات الجنسية داخل بريطانيا والنسخة التى تحتوى على الفقرات الجنسية المعترض عليها خارج بريطانيا فتحقق بذلك الربح والأمان معا . ولكن اقدامها على نشر الرواية دون حذف كان مسألة مبدأ .
وأضاف الدفاع ان قانون المطبوعات البذيئة لعام ١٩٥٩ جاء لحماية الأدب الحق من الأدب المزيف والكتابة الراقية من الأدب المكشوف وأبرز الدفاع أن الخبراء والمتخصصين الذين أدلوا بشهادتهم لصالح الرواية ليسوا مجرد أناس يعيشون فى برج عاجى وسجناء تخصصاتهم . ولكنهم أناس لهم خبرة واسعة ويستطيعون التمييز بين الصالح والطالح وبين النافع والضار . فمنهم النقاد وأساتذة الجامعات والمدرسون ونظار المدارس ومؤلفو الروايات والشعراء ورجال الدين والعاملون فى حقول السياسة والصحافة . وهم نخبة من صفوة الشهود لانظير لها فى أية محاكمة . وحتى لايتأثر الشهود ببعضهم البعض استدعت المحكمة كل شاهد منهم على حدة دون أن يعلم عن شهادة من سبقوه شيئا فقد استطاع هؤلاء الشهود بآرائهم الناضجة أن يفحموا الادعاء ويعقدوا لسانه . والمثير للدهشة أن يجمع كل هؤلاء الشهود (كل واحد منهم بطريقته) على النقاط التالية :
١ ـ ان رواية « عشيق الليدى تشاترلى » عمل أدبى له أهميته ولكنه لايتسم بالكمال حيث تشوبه بعض العيوب والمثالب الفنية . كما أنه

ليس أفضل أعمال د. هـ . لورانس . ومن هذه العيوب فشل المؤلف الذى ينحدر من طبقة العمال فى تصوير مسلك الطبقة الارستقراطية . ويتضح لنا هذا من اخفاقه فى تصوير والد الليدى تشاترلى .

٢ ـ لايمكن تقييم أعمال د . هـ . لورانس الأدبية تقييما متكاملا دون الاشارة إلى هذه الرواية .

٣ ـ من الخطأ الحكم على بعض الفقرات أو الأجزاء فى الرواية فمن الضرورى الحكم على الرواية كوحدة عضوية أى ككل واحد لايتجزأ .

٤ ـ هدف لورانس من وراء استخدامه للألفاظ التى تبدو فاحشة نظيف فهو يريد تطهيرها من تداعياتها القذرة . فالحب الجنسى شىء مقدس وأساس العلاقة الروحية الدائمة .

٥ ـ ان الفقرات الجنسية الواردة فى الرواية ليست واحدة أو نمطية كما يزعم الادعاء . فمنها الاباحى الذى يهدف إلى الهجوم على العلاقات الجنسية العابرة التى تقوم على شهوات الجسد فقط . مثل علاقة الليدى تشاترلى الجنسية ببعض الطلبة عندما كانت تلميذة تدرس فى ألمانيا . هذه العلاقات التى تستهدف المتعة العابرة والرخيصة شىء يرفضه المؤلف ويشمئز منه . وهنا يختلف وصفه للعلاقات الجنسية المكتملة القائمة على الحب الدائم والحنان الفياض . وهى العلاقات الجنسية السوية التى ربطت بين سليلة النبل الليدى تشاترلى وحارس الصيد الذى يعمل عند زوجها الكسيح . ويقول ريتشارد هوجارت : إن مثل هذه العلاقات الصحية تتجاوز رغبات الجسد وتفضى إلى ارتباط العاشقين بوشائج روحية متينة . ومن ثم يتضح أن الفقرات الجنسية ليست تعلة يتعلل بها لورانس لتأليف روايته . بل هى جزء لايتجزأ من البناء الروائى . ولكن الدفاع أظهر نوعا من التحفظ عندما قرر أن هذا لايسوغ لأى كاتب هابط أن

يحذو حذو لورانس .

٦ ـ ان لورانس يقدس العلاقة الزوجية ليس بالمعنى القانونى أو الدينى ولكن على أساس التكافؤ الجنسى بين الزوجين بغض النظر عن الفوارق الطبقية .

٧ ـ ان الرواية تعود بالنفع العام على الناس . ولها قيمة اجتماعية وتربوية إلى جانب قيمتها الأدبية وأن الفقرات الجنسية المعترض عليها تتضمن بعضا من أبدع مما سطره يراع المؤلف .

٨ ـ ليس هناك أدنى شك فى أمانة لورانس وصدق مقصده .

ثم أوضح الدفاع أن الخلاف الذى نشب بين الشهود كان محدودا للغاية واقتصر على نقطة واحدة وهى مدى نجاح رواية لورانس فى تصوير العصر الحديث . وفى ختام دفاعه الطويل بات واضحا أن مستر جاردنر نجح فى التأثير على المحلفين وكسب ثقتهم . وأعقبه الدفاع فحاول دون جدوى أن يزيل أو على الأقل أن يخفف من الوقع الطيب الذى تركه الدفاع فى هيئة المحكمة .

ثم اختتم القاضى مستر بايرن جلسة اليوم الخامس وطلب إلى المحلفين أن يصدروا حكمهم بعد أن نبههم إلى طبيعة وظيفتهم وموقف القانون من القضية . قال مستر بايرن موجها كلامه إلى المحلفين:ان وظيفة القاضى هى مراعاة القانون والدراية بنصوصه فى حين أن وظيفة المحلفين تتلخص فى تمثيل مصالح الجمهور وتدارس وجهات النظر المتباينة التى يقدمها إليهم كل من الادعاء والدفاع . ثم قام القاضى باستجلاء الجوانب القانونية للقضية المطروحة وتنبيه المحلفين اليها . وتتلخص هذه الجوانب فيما يلى :

١ ـ ان القانون الجنائى الانجليزى ينص على ضرورة أن يستند المحلفون إلى الحقائق وليس إلى آراء الخبراء . (وهذا رأى يبدى عليه

بعض رجال القانون تحفظاتهم) .

٢ ـ ان نية الافساد من وراء التأليف أو النشر أمر لايعتد به من الناحية القانونية . فالعبرة بالنتيجة أى بالعمل نفسه وواجب المحلفين يقتضى منهم أن يقرروا بعد قراءة الرواية بأنفسهم اذا كانت هذه الرواية تجنح إلى الافساد أم لا .

٣ ـ انه يتعين على المحلفين النظر الى الرواية ككل وليس الى بعض الفقرات البذيئة فيها . ويحذر القاضى المحلفين من تنصيب أنفسهم رقباء على الأعمال المنشورة فيحبذون حذف هذا الجزء أو ذاك منه . فواجبهم يقتصر على التثبت من بذاءة العمل من عدمه .

٤ ـ ينبه القاضى المحلفين الى أن رواية « عشيق الليدى تشاترلى » .. تصدم المشاعر وتثير الاشمئزاز ولكن هناك فرقا واضحا بين الميل الى الافساد وبين صدم المشاعر واثارة الاشمئزاز .

٥ ـ يقول القاضى ان من حق الفرد وخاصة الكاتب والفنان أن يتمتع بحريته فى التعبير بشرط عدم الحاق أى ضرر جسمانى أو عقلى أو روحى بأفراد المجتمع . أما اذا حدث تضارب بين حرية الفنان وأخلاق المجتمع فان أخلاق المجتمع هى الأجدر بالرعاية والصيانة .

٦ - ان كثيرا من الشهود أكدوا أن الرواية تتضمن دعوة أخلاقية الى الفضيلة بل والى التزمت البيوريتانى وانها كتاب ينبغى على كل مسيحى أن يقرأه . ولكن القاضى حذرهم من الانسياق وراء هذه الأفكار وطلب اليهم تمحيصها برؤية وحيدة وموضوعية .

٧ - تنص المادة الرابعة من قانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٩٥٩ على تبرئة أية مطبوعات يثبت أنها تخدم الصالح العام وتساعد على تقدم العلوم وترقية الفنون والآداب أو أية أشياء أخرى تهم عامة الناس . وتنص الفقرة (٢) من هذه المادة الرابعة على حق الدفاع فى استدعاء الخبراء والمتخصصين لاثبات ذلك .

٨ - اذا اقتنع المحلفون أن المطبوعات المنشورة بذيئة ولكنها تخدم

الصالح العام فمن واجبهم أن يقرروا اذا كانت الفائدة منها تزيد عن الضرر الناجم عنها . وخاصة لأن شهادة الخبراء تدل عن أن الرواية موضع الخلاف تتمتع بقدر من الأهمية الأدبية ، فضلا عن الأهمية الأخلاقية والسسيولوجية والتعليمية .

٩ - ان شهادة هذا الحشد الهائل من الخبراء لاينبغى أن تؤثر فى استقلالية أحكام المحلفين .

١٠ - يجب على المحلفين أن يقتصروا فى حكمهم على الكتاب موضع الخلاف وليس على أى كتاب آخر . ومن ثم ينبغى استبعاد المقارنات من دائرة تفكيرهم . فليس معنى عدم رفع قضية ضد كتاب أكثر بذاءة أن يكون ذلك مبررا للسماح بتداول الكتاب الأقل بذاءة .

الحكم بالبراءة

وفى اليوم التالى الموافق ٢ نوفنبر ١٩٦٠ انعقدت هيئة المحكمة لتستأنف النظر فى القضية وجاء المحلفون ليقضوا بكامل هيئتهم ببراءة رواية « عشيق الليدى تشاترلى » ودار بنجوين للنشر من التهم الموجهة ضدهما .

وهنا انتهز الدفاع هذه الفرصة للمطالبة بتعويض عن الأضرار التى لحقت بدار النشر نتيجة منع الرواية من التداول .

٢ - رواية « يوليسيس » تأليف جيمس جويس

رواية « يوليسيس » لجيمس جويس رواية طويلة تربو على سبعمائة صفحة وتتكون من ثمانية عشرة فصلا ء تقع أحداثها فى فترة زمنية لاتزيد على أربع وعشرين ساعة . فالفصل الأول من الرواية يبدأ فى

الثامنة من صبيحة يوم ١٦ يونية عام ١٩٠٤ والفصل الثامن عشر والأخير يقع حوالى الساعة الثالثة من فجر اليوم التالى الموافق ١٧ يونية ومن الواضح أن هذه الرواية تحتفظ بوحدة الزمان فضلا عن احتفاظها بوحدة المكان رغم أن كل فصل من فصولها الثمانية عشرة يقع فى مكان مختلف . فجميعها يقع فى دبلن أو على مقربة منها وفى بداية كل فصل من الرواية يعطى جيمس جويس قارئه عنوانا للفصل يستمده من ملحمة الأوديسا للشاعر الاغريقى المعروف هوميروس . وهذه العناوين تساعد فى ارشاد القارىء حتى لايضيع فى هذا التيه الروائى . غير أن المؤلف آثر أن يتخلص من هذه العناوين بعد الانتهاء من تأليف روايته .

ان البناء الروائى فى رواية لورانس « عشيق الليدى تشاترلى » آية فى البساطة فى حين ان بناء « يوليسيس » الروائى غاية فى التعقيد يزيد منه ان كثيرا من صفحاتها عبارة عن أفكار غير مترابطة تطوف بخلد شخصياتها ، وهو ما يعرف فى الأدب باسم تيار الشعور أو تيار اللاوعى . وأبرز هذه الشخصيات هى شخصية ستيفن ديدالوس وهو مثقف أديب تدور حوله رواية جويس المعروفة « صورة الفنان فى شبابه » ثم ليوبولد بلوم مندوب الاعلانات ذلك الرجل الايرلندى البالغ من العمر الثامنة والثلاثين والذى ينحدر من أصل يهودى وزوجته المغنية اللعوب ماريون أو مولى التى لا تكف عن خيانته مع عشيقها بويلان . والجدير بالذكر ان قلب ليوبولد بلوم الذى مات ولده أحب ستيفان ديدالوس عوضا عن ابنه الذى فقده . وأيضا مما يزيد من تعقيد الرواية ان مؤلفها دائب التغيير فى أسلوبها من فصل الى آخر الأمر الذى يربك القارىء ويحيره . والفصل الأخير من الرواية وهو بعنوان « بنيلوبى » يحتوى على ست وأربعين صفحة ليس فيها علامة وقف واحدة تسجل الأفكار التى ترد على بال مولى بلوم

وهى ترقد فى فراشها بعد احدى خياناتها الزوجية مع عشيقها . وتنتقل الرواية فى ربوع دبلن بشوارعها وحاراتها وحاناتها وبيوت الدعارة فيها الخ . . وقد بلغ وصف جويس لهذه المدينة حدا مذهلا من الدقة والاتقان . يقول جويس فى هذا الصدد لصديقه فرانك بدجين : « انى أريد اعطاء صورة لمدينة دبلن كاملة ودقيقة لدرجة انه إذا قدر لها أن تختفى من الوجود فإنه يمكن إعادة بنائها من واقع كتابى » وفى تجوال ليوبولد بلوم فى ربوع دبلن تصور رواية يولسيس مشهدا عن زيارة هذا الرجل فى منتصف الليل لبيت دعارة تديره المسز بيللا كوهين . وتطوف الهلوسات بعقل بلوم المريض فيتصور نفسه فى حالة من العهر وقد تحول الى امرأة بأمر من مديرة بيت البغاء كما يتصور هذه المرأة وقد تحولت الى رجل يفعل به ما يشاء .

مصلحة الجمارك البريطانية تصادر الرواية

لعبت مصلحة الجمارك البريطانية دورا واضحا فى الاضطهاد الذى تعرضت له رواية « يولسيس » فعندما عجز جيمس جويس أن يجد ناشرا لروايته فى بلاده قبلتها دار نشر فى باريس تملكها سيلفيا بيتش باسم شكسبير وفرقته وطبعت هذه الدار ألف نسخة من الرواية وزعتها على المشتركين فى جميع أنحاء العالم . ثم أصدرت الناشرة هارييت ريفر فى شهر اكتوبر عام ١٩٢٢ طبعة ثانية من الرواية من ألفى نسخة تولت نشرها دار ايجويست للنشر وزعتها على الأفراد والمكتبات والوكلاء . وتمكنت طرود كاملة وسليمة من هذه الرواية أن تصل بأمان الى لندن . وفى يناير ١٩٢٣ قامت نفس الناشرة مس ريفر بطبع خمسمائة نسخة اضافية أرسلت نسخة واحدة منها الى لندن وصدرت الباقى الى ميناء فولكستون فى انجلترا حيث قامت الجمارك البريطانية باستدعائها لتحرق جميع النسخ أمام عينيها فى مدفأة الملك تنفيذا لقانون الجمارك الصادر فى عام ١٨٦٧ .

وفى باريس استمرت سيلفيا بيتش من جانبها فى إعادة طبع الرواية بسبب اقبال السياح فى العاصمة الفرنسية عليها ، غير ان مصلحة الجمارك البريطانية وقفت لهذه الرواية بالمرصاد ، ولم تكف عن مطاردتها لمنع دخولها الى الأراضى الانجليزية وكانت الاذاعة البريطانية فى سبيلها الى تقديم عرض للرواية ولكنها ما لبثت أن ألغت هذا البرنامج بعد أن نشر الكاتب الفريد نويس ورئيس جمعية الناشرين جيمس بلاكوود احتجاجا على الرواية فى جريدة التيمز .
وبالرغم من ان دور النشر البريطانية امتنعت عن نشر الكتاب خوفا من المصادرة فإن هذا لم يمنع وصول بعض النسخ الى أيدى الأدباء والمثقفين الأمر الذى حفز الدوائر الأدبية والأكاديمية على مناقشة الرواية كما حفز بعض النقاد على تأليف بعض الكتب الممنوعة عنها . وفى بريطانيا استمر حظر الرواية حتى عام ١٩٣٣ عندما أصدرت المحاكم الأمريكية حكما تاريخيا بالسماح بتداولها فى الأراضى الأمريكية ، وهو ما سوف نعرض له .

يوليسيس أمام القضاء الأمريكى

بدأت رواية « يوليسيس » تواجه المشاكل فى أمريكا عندما أقدمت مجلة اسمها « ذى ليتل ريفيو » على نشرها مسلسلة على صفحاتها . وقامت مصلحة البريد الأمريكية بضبط نسخ هذه المجلة فى الفترة بين ١٩١٩ و١٩٢٠ وفى ديسمبر ١٩٢٠ رفعت جمعية تدعى جمعية جون . س . سمر دعوى فى نيويورك ضد الرواية وبعد كثير من التأجيل تقرر النظر فى القضية فى ١٤ فبراير ١٩٢١ وحكمت المحكمة بتوقيع غرامة على المحررة المسئولة عن النشر مارجريت أندرسون غير انها رفضت دفع الغرامة وفضلت عليها الحبس لولا أن احدى السيدات المستهجنات لرواية يوليسيس خفت لانقاذها من السجن بأن دفعت الغرامة نيابة عنها .

وعندما قامت سيلفيا بيتش عام ١٩٢٢ بإصدار الرواية لأول مرة بين دفتى كتاب تسرب كثير من النسخ من باريس الى الولايات المتحدة رغم الحظر الذى فرضته مصلحة الجمارك الأمريكية عليها . ومن جانبه استطاع الكاتب الأمريكى المعروف أرنست هيمنجواى بمعاونة صديق له تهريب عدد كبير من نسخ الرواية عن طريق معدية دائمة التنقل بين كندا التى سمحت بتداول الكتاب،وأمريكا التى قامت بحظره . فقد تعمد هذا الصديق الاكثار من اسفاره بين كندا وأمريكا وهو يخفى بعض النسخ فى بنطلونه فى كل مرة يسافر فيها . ولكن إدارة البريد الأمريكية تنبهت أخيرا الى عمليات التهريب فشددت من اجراءاتهاوتمكنت من مصادرة وتدمير بين أربعمائة وخمسمائة نسخة كانت هارييت ريفر قد نشرتها .

ويسبب الحظر الأمريكى على الرواية لم يكن من الممكن أن يحتفظ المؤلف بحقوق النشر.الأمر الذى شجع الناشرين على استباحتها فتعدد نشرها فى صورة مهذبة لتلبية الطلب الشديد عليها . ويقال ان بائعى الكتب الأمريكان وحدهم باعوا فى السر والخفاء ما لا يقل عن ثلاثين ألف نسخة فى أمريكا وخارجها .

وعند نشر الرواية مسلسلة فى مجلة « ذى ليتل ريفيو » استقبلها بعض النقاد بالهجوم القاذع . فقد ذهب أحد النقاد فى العدد رقم ٣٤ من مجلة « سبورتنج تايمز » الصادر فى أول ابر يل ١٩٢٢ الى انه يقدر الدوافع التى حدت بالجمعية الأمريكية لمحاربة الرذيلة الى رفع قضية على الرواية كما يقدر الأسباب التى دفعت القاضى الأمريكى الى فرض غرامة قدرها مائة دولار على المحررة المسئولة عن النشر . ثم وصف المؤلف بأنه رجل ملتاث العقل تخصص فى أدب المراحيض . واعترف الكاتب بموهبة جويس الأدبية ولكنه عاب عليه بذاءته

وخروجه الشائن على الأعراف الأخلاقية ، كما عاب عليه انه يكتب بطريقة جورج ميرديث المجنون.فثلثا الرواية لا رابط بينهما ويبدوان كأنهما هلوسات محمومة لرجل فقد عقله . واستطرد كاتب « السبورتنج تايمز » ليصف « يوليسيس » بأنها رواية قمئية وأدب فاضح ومكشوف .

ومما زاد من سخط بعض النقاد على الرواية انها تصور الشذوذ الجنسى والهلوسات الجنسية المريضة والخيانات الزوجية وبيوت الدعارة . كما انها تصور الجنس على انه شىء قمىء خال من البهجة أو الفرحة كما يتضح لنا من موقف ليوبولد بلوم من الممارسة الجنسية . وضاق هؤلاء النقاد ذرعا بيأس جويس من الحياة برمتها التى لم ير فيها غير الاستسلام أمام المكاره . ولم يجد جويس ما يرد به على هذا الهجوم القاذع عليه سوى قوله ان ما ذهب إليه هو الحقيقة بعينها دون رتوش . فإذا رأى ناقد ان كتابه لا يصلح للقراءة فأجدر به أن يرى الحياة على حقيقتها وانها لا تستحق أن نحياها ، ثم يذكر جويس فى معرض دفاعه عن نفسه انه إذا كانت نظرته الى الجنس لا تروق فى عيون من كانوا على شاكلة ابسن وشلى ورينان وأترابهم ممن يصفون الحب بالروحانية والنقاوة والدوام الى الأبد فالأجدر بهم أن يدركوا مقدار كذبهم وتجاهلهم للواقع .

ولكن ظروف رواية « يوليسيس » تحسنت بحلول عام ١٩٣٣ عندما قامت دار النشر الأمريكية المعروفة باسم راندوم هاوس بإصدار طبعة جديدة من الرواية متحدية بذلك الحظر الذى فرضته مصلحة الجمارك الأمريكية عليها تطبيقا للمادة ٣٠٥ من قانون الجمارك الصادر عام ١٩٣٠ . واغتم جويس عندما علم بأمر محاكمة روايته فى أمريكا أمام محكمة منطقة نيويورك وانتظر نتيجة المحاكمة بفارغ

الصبر . واسندت دار النشر أمر الدفاع عنها إلى اثنين من أشهر المحامين الأمريكان هما موريس ل . أرنست ومساعده الكسندر ليندلى اللذين فعلا شيئا شبيها بما فعله الدفاع فى قضية « عشيق الليدى تشاترلى » فقد قام هذان المحاميان بجمع خطابات وأخذ آراء مئات من المعلمين والمربين والكتاب ورجال الدين ورجال الأعمال وأمناء المكتبات . واستند ارنست فى دفاعه إلى آراء ستيوارت جلبرت وربيكا ويست وشين ليلى وأرنولد بينيت وارنست بويد وجلبرت سيلدز وادموند ويلسون .

أقام الدفاع دفاعه على أساس أن مفهوم البذاءة ومعاييرها تتغير بتغير الزمن وأن الرواية ليست بذيئة بمعايير عام ١٩٣٣ فالرواية عمل أدبى كلاسيكى معقد يهدف بوجه عام إلى المتعة والتعليم ولا يروق فى عيون طلاب الشهوة والباحثين عن المتعة الرخيصة . وكان من حسن الرواية أن الذى فصل فى قضيتها قاض ذكى مستنير اسمه جون م . وولسى استمع بعناية شديدة يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ إلى الحجج المقدمة من الدفاع . وطلب القاضى وولسى من اثنين من معارفه من ذوى الميول الجنسية العادية أو المتوسطة أن يقرءا الكتاب ويبديا رأيهما فيه . يقول وولسى فى هذا الشأن أنه تبين له أن رأيهما يطابق رأيه فقد ذهب الرجلان إلى ضرورة قراءة الرواية ككل وأنها لا تثير فى نفس قارئها أية نوازع جنسية أو أفكار شهوانية . بل ان انطباعهما عن الرواية أنها مأساوية بعض الشيء وتسجل بقوة حياة الانسان الداخلية وكوامن مشاعره وأفكاره .

والجدير بالذكر أن الأديب بدر الديب نشر فى العدد الثالث من مجلة ابداع (مارس ١٩٩٢) ترجمة كاملة لمنطوق الحكم الذى أصدره القاضى وولسى بشأن الافراج عن رواية « يولسيس » والسماح

بتداولها داخل أمريكا وانى أرى من المفيد أن أسوق كثيرا من الفقرات الواردة فى ترجمة بدر الديب للحكم الذى أصدره القاضى وولسى فى ٦ ديسمبر عام ١٩٣٣ :

● لم ألحظ فى « يوليسيس» على الرغم من صراحة (مؤلفها) غير المعهودة أى تخابث شهوانى . ولهذا فاننى أرى أن الكتاب ليس مثيرا للغرائز الجنسية .

●● حاول جويس فى كتابه «يوليسيس» ان يقوم بتجربة جادة من نوع حديث (ان لم يكن كامل الجدة » من الأنواع الأدبية . فهو يتناول مجموعة من الشخصيات من الشريحة الأدنى من الطبقة المتوسطة يعيشون فى دبلن عام ١٩٠٤ لقد حاول جويس أن يبين كيف أن شاشة الوعى تنطبع عليها انطباعات دائمة التغير . . ولا تأتى هذه الانطباعات بما هو فى بؤرة ملاحظة الانسان أو ما حوله من أشياء واقعية . ولكنها تحمل أيضا فى منطقة الظل بقايا انطباعات قديمة بعضها حديث وبعضها مستمد بالتداعى من الوعى الباطن . ويرينا كيف أن هذه الانطباعات تؤثر فى حياة وسلوك الشخصيات التى يصنعها . . ولأن جويس كان مخلصا لأسلوبه ولأنه لم يفشل فى تحمل نتائجه وتبعاته الضرورية ولأنه حاول مخلصا أن يروى بشكل كامل ما تفكر فيه شخصياته فان ذلك جعل جويس يتعرض لكثير من الهجوم وجعل مقصده عرضة لكثير من اساءة الفهم والتصوير . فمحاولته المخلصة الصادقة لبلوغ هدفه تطلبت منه أن يستخدم ـ على نحو عارض ـ كلمات معينة تعتبر بشكل عام كلمات قذرة ، كما أدى ذلك إلى ما يراه الكثيرون انشغالا بالجنس فى أفكار شخصياته على نحو يثير المشاعر . والكلمات التى توصف بأنها قذرة هى كلمات سكسونية قديمة يعرفها كل الرجال وأكاد أزعم أن الكثير من النساء على معرفة بها أيضا . ثم انها كلمات من الطبيعى والمعتاد أن تستخدمها ـ فيما أعتقد ـ نماذج البشر التى يحاول جويس أن يصف حياتها الجسدية والعقلية . . وعلى هذا فانى أرى أن « يولسيس »

كتاب مخلص وصادق .

●●● على الرغم من أن (الكتاب) يبدو فى مواضع مقززا وانه يتضمن كما قلت عديدا من الكلمات التى تعتبر عادة كلمات قذرة فانى لم أجد فيه شيئا مما يمكن أن أعتبره قذارة من أجل القذارة ذاتها ، فكل كلمة من كلمات الكتاب تساهم وكأنها قطعة من الموازيك فى تبيان تفاصيل الصورة التى يحاول جويس أن يرسمها لقرائه .

وبناء على ما تقدم سمح وولسى بدخول رواية « يولسيس » للولايات المتحدة .

وأيد قاضى الاستئناف أوغسطوس هاند الحكم الذى أصدره جون وولسى والذى اقتفى أثره عدد كبير من القضاة فى محاكم الولايات الأخرى . ورغم ذلك فان بعض الولايات ظلت تصر على تشددها وتطبق نفس الأحكام المتزمتة الخاصة بالبذاءة التى سبق للقاضى البريطانى كوكبرن أن قام بتطبيقها .

وبناء على الحكم الصادر فى صالحها تمكنت دار راندوم هاوس الأمريكية من نشر رواية « يوليسيس» لجيمس جويس فى يناير عام ١٩٣٤

ان حكم محكمة نيويورك الجزئية الذى أيده الاستئناف ببراءة رواية « يولسيس » من تهمة البذاءة أسهم فى إقرار النقاط القانونية الأربعة الهامة التالية : ـ

(أولا) فى حالة الادعاء ببذاءة أى كتاب يجب بادى ذى بدء التأكد من أن الهدف من كتابته هو الاثارة الجنسية ، أى أن الكتاب مكتوب بهدف استغلال البذاءة . فإذا ثبت أن الكتاب يهدف إلى الاثارة الجنسية فان هذا كفيل بانهاء التحقيق ويترتب على ذلك اصدار حكم ضده (القاضى وولسى) .

(ثانيا) ان معنى لفظ بذىء كما تحدده المحاكم من الناحية القانونية هو الميل نحو إثارة الدوافع الجنسية أو السبب فى اثارة الأفكار الشهوانية وغير النظيفة من الناحية الجنسية . أما أن كتابا ما يؤدى إلى إثارة مثل هذه الدوافع والأفكار فهو أمر تحدده المحكمة حسب ماله من أثر على شخص ذى حساسية جنسية متوسطة أى على ما اصطلح الفرنسيون على تسميته الرجل متوسط الحسية . فالقانون يعنى فقط بالانسان العادى . (القاضى وولسى) .

(ثالثا) تقرر على أقل تقدير بالنسبة لهذه المحكمة استبعاد كتب علم وظائف الأعضاء والطب والعلم والتربية الجنسية من تطبيق قانون البذاءة رغم أن هذه الكتب قد تميل إلى حد ما وبالنسبة الى بعض الأشخاص إلى اثارة الأفكار الشهوانية . ونحن نرى أن تمتد نفس هذه الحصانة الى الأدب (كما هو الحال فى العلم) حيث نتبين إذا تحرينا الموضوعية صدق المعالجة وأن المادة الجنسية لا تستخدم لاثارة الشهوات ولا تشكل الطابع الغالب على الكتاب . . فالذى يحدد الأمر فى كل حالة هو النظر الى الكتاب ككل للحكم عليه إذا كان مثيرا للشهوات أم لا (القاضى هاند) .

(رابعا) فى اعتقادنا أن المحك السليم للحكم على بذاءة أى كتاب هو الأثر الغالب الذى يتركه هذا الكتاب . وعند تطبيق هذا المحك علينا أن نعتبر كشواهد تبعث على الاقناع مدى ارتباط أجزاء الكتاب محل الاعتراض بموضوعه ومدى رسوخ سمعة الكتاب فى نظر النقاد المعتمدين . فضلا عن حداثة الكتاب وما انتهى إليه الرأى فيه إذا كان الكتاب قديما ، لأنه ليس من المحتمل أن تتمكن الأعمال الفنية من المحافظة على مكانتها الرفيعة إذا كان مضمونها البذىء هو المبرر لوجودها (القاضى هاند) .

محتويات الكتاب

الصفحة



رقم الايداع ٧٠٩٠ / ٩٣
I.S.B.N
977 - 08 - 0198 - 4

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

هذا الكتاب

عزيزى القارىء..هذا الكتاب : « الأدب والجنس » يلقى الضوء على تاريخ الرقابة على المصنفات الأدبية التى درج النقاد على اطلاق اصطلاح الأدب المكشوف على هذا النوع من الأدب الاباحى أو الجنسى الذى يهدف إلى استثارة الغرائز الجنسية .

ونظرة إلى المجتمعات البشرية نرى أنها قد عرفت هذا النوع من الرقابة منذ العصر الرومانى « ٤٣ ق . م - ١٨ م » وكان أول من طبق عليه هذا الحظر بل الطرد هو الشاعر الرومانى أوفيد بسبب قصيدته التى تلقن فنون الحب لمن ليس له به دراية ، وأفاض فى ذلك مما دعا الامبراطور أوغسطوس إلى تطبيق القانون الرقابى والحكم بطرده .

وبمجىء المسيحية اهتم الناس بطهارة الروح والجسد حتى أصبحت العفة هى المثل الأعلى للحياة ، واستمر ذلك لفترة .. عادت بعدها المؤلفات الأدبية الخادشة للحياء .

والكتاب يعرض للمحاكمات الأدبية التى جرت للأدباء منذ القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين فى كل من انجلترا وأيرلندا وأمريكا وفرنسا ، كما يعرض - بصفة خاصة - لوقائع المحاكمة التى جرت لأشهر الكتاب الروائيين وعلى سبيل المثال د . هـ لورنس مؤلف رواية « عشيق الليدى تشاترلى ، والروائى جيمس جويس مؤلف رواية « يوليسيس » والتى حشد كوكبة من العلماء والكتاب كل منهم يدلى برأيه فى هذا الموضوع الخطير .. الأدب والجنس .

